حائز جائزة نوبل للآداب

جوزيه ساراماجو

المنوَر



الرواية التي فُقدت
ثم عثر عليها
في الوقت المناسب!

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

جوزيه ساراماجو

المنوَر

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

المنوَر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥-١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٤
ISBN: 978-9953-88-802-6

GOVERNO DE PORTUGAL | SECRETÁRIO DE ESTADO DA CULTURA

Funded by the Direção Geral do Livro, dos Arquivos e das Bibliotecas

رسم وتصميم الغلاف: سارة دندش

ترجمة: هيثم لمع

تدقيق: بسام ضو

الإخراج الفني: بسمة تقي

تحية لذكرى جيرونيمو هيلاريو، جدّي

في كلّ نفس، كما في كلّ بيت،

توجد، غير الواجهة، زوايا مخبّأة

راوول براندا و

الكتاب الذي فُقد في زمن وعُثر عليه مع الزمن

كان ساراماجو يحلق ذقنه عندما رنّ جرس الهاتف، فرفع السمّاعة إلى الناحية غير المبتلّة بالصابون من وجهه وقال بضع عبارات لا أكثر: «صحيح؟ هذه مفاجأة مذهلة»، «لا، لا داعي لذلك. سأكون عندكم في أقلّ من نصف ساعة». وأقفل. ثمّ أنهى حمّامه بسرعة لم أعهدها منذ عرفته، وقال لي إنّه سيخرج ليستعيد رواية كتبها ما بين أربعينيات القرن الماضي وخمسينياته ثمّ ضاعت منه. عندما رجع كان يحمل تحت ذراعه «المنوَر»: رزمة من الأوراق المطبوعة بالآلة الكاتبة حفظها الزمن وعفاها من الاصفرار، وكأنّ الزمن كان أكثر احترامًا للنسخة الأصلية من تلك الجهة التي تسلَّمَتها سنة ١٩٥٣. «إنّه لشرفٌ لدارنا أن تنشر المخطوطة التي ظهرت لدينا بينما كنّا نوضّب أغراضنا للانتقال إلى مكان آخر»، هذا هو الكلام الذي سمعه جوزيه ساراماجو عام ١٩٨٩، وكان يومذاك منكبًا على إنهاء روايته «الإنجيل يرويه المسيح». كان جوابه: «أوبريغادو. شكرًا، ليس الآن»، قبل أن يخرج من الدار إلى الشارع حاملاً روايته ومعها جواب انتظره سبعًا وأربعين سنة، منذ كان له من العمر واحد وثلاثون عامًا وأحلام كثيرة متأهّبة. ذلك التصرّف القديم من قبل دار النشر دفع به إلى صمت آلمه، استعصى على النسيان، فطال عقودًا.

«الكتاب الذي فُقد في زمن وعُثر عليه مع الزمن»، هكذا كنّا نشير إلى «المنوَر» في منزلنا. وقد حاول الذين قرأوا الرواية آنذاك إقناع المؤلّف بضرورة نشرها، لكن جوزيه ساراماجو كان يرفض ويصرّ على رفضه، ويقول إنّ الكتاب لن يُنشر طالما هو على قيد الحياة. كان تفسيره الوحيد أنّ ذلك يتعارض مع خطّه في الحياة الذي كتب عنه مرارًا وصرّح به تكرارًا، وهو ألّا أحد مجبرٌ على أن يحبّ أحدًا آخر ولكن كلّنا ملزمون باحترام بعضنا. وفقًا لهذا المنطق كان ساراماجو يعتبر أنْ ليس هناك أيّ مؤسّسة ملزمة بنشر المخطوطات التي تتسلّمها، إنّما هناك واجب إرسال الردّ إلى من انتظره يومًا بعد يوم، شهرًا بعد شهر، بفارغ الصبر وربّما ببعض الترقّب القَلِق، لأنّ الكتاب الذي يسلّمه صاحبه، المخطوطة، هو أكثر من مجرّد حروف مكدّسة، فهو يضمّ في طيّاته كائنًا بشريًا، بذكائه وأحاسيسه. هكذا فإنّ الجرح الذي شعر به ساراماجو الشابّ لعدم تسلّمه ولو سطرًا أو سطرين، ولو كلمة مختصرة تقول مثلاً «أوقفنا النشر في الفترة الحالية»، كان معرّضًا لأن يُفتح من جديد كلّما ذكرنا الكتاب، أو هكذا فكّر كلّ من كان يُحيط به، ممّا حدانا إلى عدم الإصرار على نشره. رأينا في هذا الألم العتيق أيضًا سبب عدم اكتراثه لمخطوطته وكيف تركها تقبع على طاولته بين ألف ورقة وورقة. جوزيه ساراماجو لم يقرأ «المنوَر»، ولم يلحظ غياب النسخة الأصلية عندما أخذتُها للتجليد، واتّهمني بالمبالغة عندما قدّمتُها له مغلّفة. غير أنّه لكونه المؤلّف، كان يعرف أنّ الرواية جيدة، وأنّ بعض ما

كان يضمّه هذا العمل عاد إلى الظهور في باقي آثاره الأدبية، وأنّه حمل بذار ما انتهى لاحقًا إلى النموّ والتفتّح كليًّا، ونقصد صوت ساراماجو الروائي الخاصّ به.

«كلّ شيء تمكن روايته بطريقة مختلفة»، قالها ساراماجو ضاربًا في صحارى الحياة ومُبحرًا في مياهها المضطربة. إذا أخذنا بهذه المقولة، اليوم بعد تناول ما كان واقعًا فعلاً وما حسبناه فرضًا، سيتعيّن علينا تفسير الإشارات وفهم عناد الكاتب في ضوء حياة كاملة، مشاركاً بها الآخرين ما لديه، تحدوه رغبة ملحّة في التواصل. «الموت هو الانتقال من حالة وجود إلى غياب عن الوجود»، قال أيضًا جوزيه ساراماجو. صحيح أنّه مات وغاب عن الوجود، ولكن فجأة ومع نشر «المنوَر»، في البرتغال والبرازيل، البلدين اللذين يحتضنان لغته، يتناقل الناس من يد إلى يد كتابًا جديدًا ويعلّقون، بانفعال ودهشة متجدّدين، على قراءته وعلى المفاجأة التي حملها معه. هكذا نكتشف أنّ ساراماجو نشر مجدّدًا رواية تحمل نضارة ملهِمة، تخترق أحاسيسنا وتنتزع منّا التعبير عن بهجتنا ودهشتنا. ونفهم، أخيرًا، أنّ هذا ما أراد المؤلّف تقديمه لنا ليستمرّ مشاركاً ما لديه بعد غيابه، كليًّا، عن الوجود. ونسمع هنا وهناك كلامًا لا يكلّ: هذا الكتاب درّة نفيسة، كيف أمكن لشابّ في العقد الثالث من عمره الكتابة بكلّ هذا النضج وهذه الثقة، راسمًا معالم هواجسه الأدبية وخريطة عمله الفنّي وإحساسه بهذا الوضوح؟ نعم، هذا هو السؤال الذي يطرحه القرّاء. من أين أتى ساراماجو بهذه المعرفة،

بالقدرة على وصف شخصياته بهذه الحذاقة والرشاقة والبلاغة في الرواية، وتناول مواقف بمنتهى العادية ولكن بغاية العمق، مواقف تنطبق على كلّ مكان وزمان، كيف له أن يكسر القواعد بهذه الطريقة العنيفة في سلاستها، السلسة في عنفها؟ شابّ لا ننسى أنّه كان لا يتجاوز ربيعه الثلاثين ولم يجلس على مقاعد الجامعة، لوالدين أمّيين من أجداد أمّيين، عمل ميكانيكيًا، وموظّفًا إداريًا في تلك الأيّام، كان له من الجرأة على تأويل ذلك الكون الذي يمثّله كلّ بيت، ببوصلته الخاصّة وبرفقة محبّبة من بيسووا، وشكسبير، وإيسا دي كيروس، وديدرو، وبتهوفن. هذا هو المدخل إلى عالم ساراماجو، وهكذا بدأ تحديده منذ ذلك الزمن البعيد.

ونلتقي في «المنوَر» بكلّ شخصيات ساراماجو من الرجال: ذاك الذي دعاه بكلّ بساطة إتش في «دليل الرسم والخطّ»، وريكاردو ريس من «سنة موت ريكاردو ريس»، وريموندو سيفا من «قصّة حصار لشبونة»، ودون جوزيه من «كلّ الأسماء»، والموسيقي من «انقطاعات الموت»، وقايين، والمسيح، وسيبريانو ألغور، تلك المجموعة من رجال مقلّين في الكلام، وحيدين، وأحرار لا ينقصهم غير إيجاد الحبّ ليكسروا، ولو مؤقّتًا، طريقة عيشهم المكثّفة والانطوائية في هذا العالم.

وفي «المنوَر» أيضًا نساء ساراماجو القويّات. عندما يُعيد المؤلّف في شخصياته النسائية ابتكار القدرة على كسر القوانين تبدو هذه القدرة واضحة أكثر وفجّة أكثر: ليديا، الجميلة التي تعيش على

نفقة رجل أعمال ومع ذلك قادرة على إعطائه دروسًا في الكرامة، حبّ امرأة لامرأة، الخضوع المتوارث في قلب العائلة والذي نكتشفه كواقعة مثيرة للشفقة، والإدانة الاجتماعية التي لا تطاق، والانتهاك، والغريزة، والجهد المبذول للحفاظ على المكانة الاجتماعية، ووضاعة الحياة، والاستقامة التي تحتضنها بعض الأجساد على الرغم من ضائقة العيش ومشقّات الحياة.

«المنوَر» هي قبل أيّ شيء رواية شخصيات. المكان لشبونة والزمان أربعينيات القرن العشرين بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ولكن مع استمرار دكتاتورية سالازار التي تخيّم على الرواية مثل ظلّ ثقيل أو خلفية صامتة. هي ليست رواية سياسية وتستبعد منّا التفكير في أنّها عانت من تشدّد الرقابة أو أنّ هذا سبب عدم نشرها يومذاك. بيد أنّها بالنسبة إلى العادات والأفكار المتحفّظة في تلك الفترة، كانت رواية تتجاوز القيم السائدة، وترى في الخلية العائلية أحيانًا مرادفًا للجحيم وليس بالضرورة ملاذًا للطمأنينة، وفي مظاهر الأمور قوّة تبتعد بها عن حقيقتها وجوهرها، وتتناول مُثلاً تصوّرها كأهداف جديرة بالثناء لتستدرك بعد بضع صفحات فقط وتصفها بأنها نسبية، وتستنكر استنكارًا واضحًا الإساءة في معاملة النساء، وتروي بكلّ عفوية وطبيعية الحبّ المثلي المتلازم مع قلق الفرد ولو أنّه بنظر المؤلّف غير مدان. كلّ ذلك، وما يتضمّنه سائر الكتاب، أدّى دورًا ولا شكّ في قرار عدم نشره. كان، لصدوره عن مؤلّف مجهول، يتّخذ هيئة أكثر عنفًا، ويحمل مخاطرة كبيرة تستدعي جهدًا كبيرًا للدفاع

عنه أمام الرقابة والمجتمع، ولا سيّما قياسًا بالربح الضئيل الذي كان سيعود به. وهكذا بقي الكتاب معلّقًا، من دون «نعم» تُلزم دار النشر، ومن دون «لا» قد تُحرجها في الغد. ويُحتمل أيضًا أنّهم في الدار، وهنا نعود إلى الافتراضات، وضعوه جانبًا في انتظار زمن مقبل، زمن مختلف، ولم يتصوّروا أنّ هذا الانتظار سيدوم عقودًا طويلة قبل أن تبدأ تباشير ما يسمّى انفتاحًا بالظهور، فتعاقبت الأجيال وحلّ معها النسيان، في العالم وفي دار النشر. كذلك كان لدى جوزيه ساراماجو وظيفة أخرى، كان يعمل مصحّحًا، ويشرع في تجاوز مرحلة الصمت والوحدة مستعدًّا لتأليف غيره من الكتب.

لم تكن الحياة سهلة بالنسبة إلى جوزيه ساراماجو. بعد خيبة أمله من تجاهل الناشرين وتركه من دون جواب بالنسبة إلى «المنوَر»، ذلك الكتاب الذي كُتب في ساعات الليل الطويلة، بعد انتهاء يوم العمل في مهن مرهقة، عانى ساراماجو من مهانات كان عليه مواجهتها لكونه مجهولاً، يفتقر إلى الدراسة الجامعية، أو الانتماء إلى النخبة، وكلّها كانت عوامل مهمّة في مجتمع صغير مثل لشبونة في خمسينيات وستينيات القرن الماضي. كان الذين أصبحوا زملاء له في ما بعد يسخرون منه لأنّه يتلعثم في كلامه، وهذه المشكلة الإضافية التي تجاوزها لاحقاً كانت تدفعه دومًا إلى الانسحاب، تاركاً فصاحة اللسان لغيره. كان يراقب ويعيش مقيمًا في عالمه الداخلي، وفي ذلك يكمن ربّما سبب وفرة كتاباته. بين اليوم الذي سلّم فيه مخطوطة «المنوَر» ويوم عودته إلى النشر مرّت عشرون سنة،

وكانت ولادته الجديدة مع الشعر في «القصائد الممكنة» و«ربّما فرح»، أمّا النتاج الثالث «العام ١٩٩٣» فكان بمثابة جسر إلى الرواية ظهر بعده كتابان ضمّا مدوّنات صحفية كانت أشبه بأجنّة من أدب الخيال. كذلك كان «المنوَر» حاضرًا ضمن مدوّناته، ولو أنّ أحدًا لم يكن يعرف بوجود تلك الرواية، المحفوظة في انتظار وصولها إلى القارئ كأكثر من مجرّد كتاب مفقود.

«المنوَر» هو الكتاب الذي استحقّه قرّاء ساراماجو. إنّه ليس بابًا يُغلق، بل على العكس هو يُفتح على مصراعيه للعودة إلى قراءة كامل أعمال الكاتب في ضوء أفكاره في شبابه. «المنوَر» هو المدخل إلى ساراماجو وسيكون اكتشافًا لكلّ قارئ. كما لو أنّ دائرة تكتمل، كما لو أنّ الموت غائب عن الوجود.

بيلار دل ريو

رئيسة مؤسّسة جوزيه ساراماجو

١

من بين ستائر شفّافة تتمايل في حلمه الجميل، ترامت إلى مسامع سيلفستري أصوات آنية المطبخ، وكاد يجزم أنّ بعض الضوء أيضًا بدأ ينفذ إليه من خلال شقّ بين ستائر حلمه. لوهلة أزعجه الأمر، لكنّه سرعان ما أدرك أنّه أفاق من نومه. فتح عينيه وأغمضهما أكثر من مرة، ثم تثاءب، وبقي ساكنًا بعضَ الوقت وهو يشعر بالرقاد يغادره شيئًا فشيئًا، ورويدًا رويدًا. بحركة سريعة، جلس على سريره وشدّ أطرافه فسمع بكل وضوح طقطقة مفاصل ذراعيه. بدت تحت قميصه الداخلي عضلات ظهره واضحة مشتدّة. كان له جذع قويّ، وساعدان صلبان غليظان، ومنكبان عريضان يملأهما عضل مفتول، عضل يساعده في مهنته كصانع أحذية. أمّا اليدان فكالحجر، مع كفّين بلغ جلدهما سماكة تتيح لإبرة مع خيطها أن تخترقه، من دون أن تخرج ولو نقطة دم واحدة.

بحركة دائرية أكثر بطئًا أخرج ساقيه من السرير. الفخذان الرفيعتان والركبتان البيضاوان، من احتكاكهما الدائم بالسراويل الطويلة التي محت بطريقها وبر الساقين، تثير حزن سيلفستري العميق وحفيظته. القسم الأعلى من جسمه هو ولا شكّ مدعاة فخر له، على العكس من ساقيه الهزيلتين اللتين تبدوان وكأنهما ليستا ساقيه.

من دون حماس، تأمّل سيلفستري قدميهِ المستقرّتين على السجّادة، وحكّ رأسه المائل إلى اللون الرمادي قبل أن يمرّر يده على وجهه، ويتحسّس عظام وجنتيه ولحيته. نهض متثاقلاً وخطا بضع خطوات في غرفة النوم. كان في إطلالته بعض من دون كيخوتي، معلّقًا كما يبدو فوق ساقين طويلتين وكأنّهما ساقا زرافة، بسرواله وقميصه الداخليين، وخصل شعره المتناوبة بين بياض وسواد، وأنفه الكبير والمعقوف، وجذعه القويّ الذي لا تكادُ تحمله رجلاه.

بحث عن سرواله الطويل ولم يجده. فأطال عنقه ناحية الباب ونادى:

ـ ماريانا، ماريانا. أين بنطلوني؟

وصله صوت من الداخل:

ـ سآتيك به.

من طريقة سير ماريانا وهي مقبلة، يحزر المرء أنّها امرأة سمينة لا يمكنها أن تسرع أكثر. كان على سيلفستري أن ينتظر قليلاً وبالفعل، انتظر صابرًا. أطلّت المرأة عند الباب وقالت:

ـ ها هو.

كانت تحمل السروال الطويل مطويًّا على ذراعها اليمنى، الأكثر غلاظة من ساقَي سيلفستري. وأضافت:

لا أعرف ماذا تفعل بأزرار سراويلك، فهي تختفي كلّ أسبوع. ربّما عليّ أن أثبّتها بسلك من المعدن...

كان صوت ماريانا حاسمًا مثل صاحبته. تُسمع فيه صراحة وطيبة كاللتين تراهما في عينيها. طبعاً لم يخطر لسيلفستري أنّ ما قالته زوجته كان غزلاً، لكنّه ابتسم بكلّ تجاعيد وجهه وبعض الأسنان التي بقيت في فمه. أخذ البنطلون ولبسه تحت نظرها وبدا راضيًا الآن لأنّ قطعة الثياب التي غطّت ساقيه أعادت جسمه متناسقًا منتظمًا. كان سيلفستري فخورًا بهذا الجسم بقدر ما كانت ماريانا غير آبهة لما وهبتها الطبيعة. لم يكن أيّ منهما يخدع الآخر أو ينخدع به، فكلاهما يعرف أنّ جذوة الشباب انطفأت إلى غير رجعة، لكنّهما كانا متحابّين حبًّا كبيرًا وحنونًا، كما كانا منذ ثلاثين سنة، وقت زواجهما. وربّما هو الآن أكبر أيضًا، لأنّه لم يعد بحاجة إلى أن ينمو في ظلّ مفاتنهما، حقيقية كانت أم متوهّمة.

لحق سيلفستري بزوجته إلى المطبخ. دخل إلى الحمّام ورجع منه بعد عشر دقائق بهيئة نظيفة. عاد ولكن من دون أن يسرّح شعره لأنّه كان من شبه المستحيل ترويض تلك الخصل المجنونة التي تسيطر على رأسه، «مكنسة المركب» كما كان يحلو لماريانا أن تسمّيها.

كان البخار يتصاعد من فنجاني القهوة فوق الطاولة وكانت تنتشر في المطبخ رائحة طيّبة هي رائحة النظافة والانتعاش. كانت وجنتا

ماريانا المستديرتان تلمعان وجسمها البدين يهتزّ بكامله مع حركتها وتنقّلها بين المواقد.

ـ كل يوم تزيدين سمنة يا امرأة!...

وضحك سيلفستري، وضحكت معه ماريانا. جلسا إلى المائدة مثل طفلين يلهوان بعفوية، وراحا يرتشفان القهوة الساخنة برشفات طويلة وصاخبة، كأنهما يتنافسان مَن من الاثنين يتفوّق على الآخر برشفته.

ـ ماذا قرّرنا إذاً؟

قالها سيلفستري بعدما توقّف عن الضحك واللهو. ماريانا أيضاً أبدت الجدّية، وبهت اللون الوردي على وجنتيها.

ـ لا أعرف، أنت من يُقرّر.

ـ كما قلت لك بالأمس. النعل يزيد غلاءً كلّ يوم، والناس يشكون ويقولون إنّ أسعاري مرتفعة. المشكلة في ثمن النعل... والمسألة ليست بيدي. ليتهم يقولون لي إن كان هناك سكّاف يعمل بأسعار أقلّ. لكنّهم يشكون ليس إلا...

وضعت ماريانا حدًّا لاعتراضات زوجها يقينًا منها بعدم جدواها. فقد كان عليهما أن يتّخذا قرارًا بشأن المستأجر.

ـ لا بأس بالفكرة. سيُساهم معنا في دفع الإيجار. وإذا كان رجلاً عازبًا، يحتاج إلى من يهتمّ بتنظيف ملابسه، ستُغطّى نفقاتنا.

احتست ماريانا ما بقي من قهوتها الحلوة في قاع فنجانها وأجابت:

ـ أنا لا يهمّني، طالما يُمكنني أن أساعد...

ـ طبعاً، لكنّنا من جديد نلجأ إلى تأجير الغرفة، بعدما تحرّرنا من تلك الكتيبة التي غادرتنا...

ـ تحرّرنا وارتحنا! آمل أن يكون شخصًا خلوقًا... أنا من جهتي أتّفق مع كلّ الناس، على أن يُحسنوا التعامل معي.

قال سيلفستري وهو يمضغ لقمة الخبز الأخيرة:

ـ لنجرّب مرّة أخرى... رجل عازب يحتاج إلى مكان لمنامته، هذا ما يناسبنا. هذا المساء سأخرج لأضع الإعلان.

ثمّ نهض مصرّحًا: والآن، إلى العمل.

ثمّ عاد أدراجه إلى غرفة النوم واتّجه صوب النافذة. سحب الستارة التي كان يستخدمها كحاجز صغير وسط الغرفة ففتحت من الجهة الأخرى على منصّة مرتفعة تحمل منضدة العمل. أدوات، قوالب، خيطان، علب من المسامير، وقطع من الحرير والجلد. وفي أحد الجانبين، علبة التبغ الفرنسي وعيدان الكبريت.

فتح سيلفستري النافذة وألقى نظرة إلى الخارج. لا جديد. فقط قليل من المارّة، وعلى مسافة ليست بعيدة، رأى امرأة تُنادي على حبّات الفول الجافّ وتساءل كيف تعيش تلك المرأة. فهو لا

يعرف أحدًا يأكل الفول الجافّ اليوم. هو نفسه كفّ عن أكله منذ أكثر من عشرين سنة. اختلف الزمن، اختلفت العادات، واختلفت المأكولات. اختصر المسألة بهذه الكلمات وجلس إلى منضدته. فتح علبة التبغ، سحب أوراق اللفّ من بين كومة الأغراض التي تملأ الطاولة ولفّ سيجارة. أشعلها، أخذ منها سحبة وبدأ العمل. كان ينتظره تثبيت أنصاف نعل أمامية وهذا عمل كان يصرف عليه جهده ويطبّق فيه كلّ خبرته الحرفية.

كان بين الفينة والفينة ينظر بطرف عينه إلى الشارع الذي بدأ يمتلئ بضوء الصباح، على الرغم من سماء ملبّدة وحجاب من ضباب خفيف يمحو حدود الأشياء والأشخاص.

بين وفرة الأصوات التي بدأت تستيقظ في المبنى، ترامى إلى مسمع سيلفستري صوت حذاء ينزل الدرج، وقد عرف صاحبته في الحال. سمع باب المبنى وهو يفتح على الشارع فأطلّ برأسه:

ـ صباح الخير، آنسة أدريانا.

ـ صباح الخير، سيّد سيلفستري.

وقفت المرأة قليلاً تحت النافذة. كانت قصيرة القامة تضع نظارة سميكة العدستين تجعل من عينيها كرتين صغيرتين وقلقتين. تبلغ من العمر ما بين الثلاثين والأربعين، مع بعض الشعيرات البيضاء الظاهرة من خلال تسريحتها البسيطة.

ـ إلى العمل إذًا؟

ـ نعم. إلى اللقاء، سيّد سيلفستري.

هكذا كان يبدأ كلّ صباح. مع خروج أدريانا إلى عملها، كان صانع الأحذية يطلّ من نافذة طبقة الميزانين. من المستحيل تفادي رؤية ذلك الشعر الكثيف والأشعث أو تجاهل تلك التحيّات الصباحية الضرورية. سيلفستري تبعها بنظراته. من بعيد هي تبدو، وفقًا لوصف السكّاف وسعة مخيلته، مثل «كيس لم يُحكم ربطه». عند وصولها إلى زاوية الشارع، التفتت أدريانا وألقت في اتّجاه الطابق الثاني تحية وداعية توارت بعدها عن الأنظار.

ترك سيلفستري الحذاء من يده وأطلّ برأسه من النافذة. لم يكن فضوليًا، ولكن كان معجبًا بجاراته في الطابق الثاني، بتعاملهن كزبونات وبإنسانيتهن. أدار رأسه إلى فوق وبصوت غيّرته وضعية العنق قال تحيّته:

ـ مرحبًا، آنسة إيساورا! كيف نهارك اليوم؟

وأتاه الجواب من الطابق الثاني فوقه، بصوت أضعفته المسافة:

ـ لا بأس به. الضباب...

ولم يُفهم ما إذا كانت تقصد أنّ الضباب يُفسد جمال الصباح أم لا. إيساورا تركت خيوط المحادثة تنقطع وأغلقت النافذة على مهل. لا يزعجها السكّاف، بسحنته المتأمّلة والبشوشة في آن، لكنّها هذا الصباح لا تشعر برغبة في التحدّث. عليها إنجاز كدسة من القمصان قبل نهاية الأسبوع. يجب تسليمها يوم السبت بأيّ طريقة. آه كم تودّ لو تستطيع إنهاء قراءة الرواية. بقيت أمامها خمسون صفحة فقط

وهي الآن في الفصل الأكثر تشويقًا. علاقات الحبّ السرّية، الصامدة أمام ألف عقبة ومفاجأة، تستهويها وتأخذها كليًا. كما أنّ الرواية مكتوبة ببراعة، وتجربة إيساورا الكافية كقارئة تسمح لها بإعطاء حكم صائب. تردّدت. لكنّها تعرف جيّدًا أنّه لا يحقّ لها حتّى مجرّد التردّد. القمصان في انتظارها. أتتها من الداخل أصوات المحادثة بين أمّها وخالتها. كم تتكلّم هاتان المرأتان. عمّ تحكيان طول النهار، وقد سبق وتناولتا مئات المواضيع مئات من المرّات؟

اجتازت الغرفة التي تنام فيها مع أختها. الرواية قابعة أعلى السرير. رمقتها بنظرتين، لكنّها تابعت سيرها. وقفت أمام مرآة الخزانة التي تعكس صورتها من رأسها إلى قدميها بثوبها المنزلي الذي يرسم معالم جسمها المسطّح والنحيل، ولكن المرن والأنيق. مرّرت أطراف أناملها على وجنتيها الشاحبتين حيث بدأت أولى التجاعيد ترسم خطوطًا دقيقة، يشعر بها الناظر أكثر ممّا يراها. تنهّدت أمام الصورة التي تقدّمها لها المرآة ثمّ هربت منها.

في المطبخ، تابعت السيّدتان حوارهما، متشابهتين بشعرهما الأبيض، وعيونهما الكستنائية، وثوبيهما الأسودين البسيطين في تفصيلهما. تتكلّمان بصوتين حادّين وجمل سريعة، من دون استراحة أو حتّى تعديل للطبقة. قالت الأولى:

ـ كما قلت لك، مسحوق الفحم أكثر من الفحم نفسه. يجب العودة إلى البائع ومطالبته.

فأجابت الثانية:

ـ فهمت.

سألتهما إيساورا وهي تدخل:

ـ عمّ تتكلّمان؟

أجابت إحدى السيّدتين، وكانت نظرتها أكثر حيوية من الأخرى ورأسها أكثر استقامة:

ـ عن الفحم. نوعيته رديئة ويجب تبديله.

ـ لا بأس، خالتي.

الخالة أميليا هي نوعًا ما المسؤولة عن إدارة شؤون المنزل. هي التي تطبخ، وتُجري الحسابات، وتُقسّم الحصص في الأطباق. أمّا كانديدا، والدة إيساورا وأدريانا، فتهتمّ بالأعمال البيتية، بالثياب، بأعمال التطريز الصغيرة التي تزيّن قطع الأثاث كافةً، وبآنية الأزهار وما فيها من أزهار اصطناعية تُستبدل فقط في أيّام الأعياد بأزهار طبيعية. كانديدا هي الأكبر سنًّا ومثل أميليا، أرملة. أرملتان ساهم التقدّم في العمر في تهدئتهما.

جلست إيساورا إلى ماكينة الخياطة وقبل أن تبدأ العمل، نظرت إلى النهر العريض، وضفّته الأخرى المختفية خلف الضباب، فبدا لها كأنّه المحيط. وحدها أسقف المنازل ومداخنها تتحدّى هذا الوهم ولكن مع ذلك، وبفضل جهد تبذله إيساورا لتتجاهل وجودها، يعود

المحيط إلى الظهور في هذه الكيلومترات القليلة من الماء. أمّا إلى اليسار، فتنفث مدخنة مصنع مرتفعة أعمدة من الدخان تلطّخ بعضًا من بياض السماء.

تحبّ إيساورا هذه اللحظات التي تسرح خلالها بنظرها وفكرها، قبل أن تُحني رأسها فوق الماكينة. المشهد هو دائمًا نفسه، لكنّها تجده رتيبًا فقط في أيّام الصيف بزرقتها وضوئها الثابتين، حين يبدو كلّ شيء واضحًا وأكيدًا. أمّا أيّام الضباب الصباحي مثل اليوم، مع هذا الضباب الخفيف الذي لا يحجب الرؤية، فهي تطمس بعض معالم المدينة وتغمر شوارعها بالأحلام. كانت إيساورا تتذوّق كلّ ذلك وتُطيل فترة استمتاعها. مرّ زورق على صفحة النهر أمامها بهدوء بدا معه كأنّه يعوم فوق غيمة. ومن خلال طبقات الضباب، لاح شراعه الأحمر كأنّه وردي اللون. وفجأةً حجبته غيمة أكثر كثافة تلامس الماء وعندما حان الوقت ليظهر من جديد أمام عيني إيساورا، اختفى وراء أحد المباني.

تنهّدت إيساورا للمرّة الثانية هذا الصباح. نفضت رأسها كمن يخرج من غوص طويل وشغّلت الماكينة بعصبية. القماش يركض تحت قدم الدرز والأصابع تُوجّهه بحركة أوتوماتيكية، وكأنّها جزء من آلية التشغيل. كان الصوت يصمّ أذنيها فتهيّأ لها وكأنّ هناك من يُكلّمها؛ أوقفت عجلة الماكينة فورًا فساد الصمت. أدارت رأسها:

ـ ماذا؟

أعادت الأمّ كلامها:

ـ ألا ترين أنّ الوقت مبكر؟

ـ مبكر؟ لماذا؟

ـ تعرفين... جارنا...

ـ ولكن يا أمّي ما العمل؟ ما ذنبي أنا إذا كان جارنا في الأسفل يعمل ليلاً وينام في النهار؟

ـ يمكنك على الأقلّ أن تبدئي متأخرّة. لا أحبّ أن أُثير المشاكل مع الجيران...

رفعت إيساورا كتفيها. داست الماكينة من جديد وقالت لأمّها بصوت ارتفع فوق الضجيج:

ـ تريدين أن أذهب إلى المحلّ وأطلب منهم أن ينتظروني؟

هزّت كانديدا رأسها من دون أن تفقد صبرها. هي دائمًا هكذا، مرتبكة متردّدة، خاضعة لسيطرة شقيقتها، التي تصغرها بثلاث سنوات، مدركة تمام الإدراك أنّها تعيش على نفقة ابنتيها. ترغب قبل أيّ شيء في ألّا تزعج أحدًا، أن تمرّ من دون أن يلحظها أحد، منطفئة مثل ظلّ في العتمة. أرادت أن تُجيب، لكن عندما سمعت خطوات أميليا سكتت وعادت أدراجها إلى المطبخ.

في هذه الأثناء كانت إيساورا، التي استأنفت عملها وانطلقت به، تملأ البيت ضجيجًا، وتهزّ الأرضية تحتها. شيئًا فشيئًا، تلوّنت

وجنتاها الشاحبتان وبدأت بعض قطرات العرق تلوح على جبينها. شعرت مرّة ثانية باقتراب شخص منها وخفّفت من الإيقاع.

لستِ مضطرّة إلى العمل بهذه السرعة. ستتعبين.

ـ لا تقول الخالة أميليا كلامًا بلا طائل. تكاد لا تقول إلّا الضروري منه وليس أكثر ممّا يلزم. لكنّها تقوله بطريقة تبعث السامع على تقدير قيمة إنجازه. تبدو الكلمات وكأنّها تولد على لسانها تمامًا وقت النطق بها: تصدر محمّلة بالمدلول، مثقلة بالمعنى، عذراء، ما يمنحها قدرة السيطرة والإقناع. قلّلت إيساورا من سرعتها.

بعد دقائق معدودة، رنّ جرس الباب. فتحته كانديدا، تأخّرت لحظات ثمّ عادت على عجلة وهي ترتجف، وتمتمت هامسة:

ـ ألم أقل لك؟... ألم أقل لك؟...

رفعت أميليا رأسها:

ـ ماذا قلت لها؟

ـ هذه جارتنا في الأسفل، جاءت شاكية. فهذا الضجيج... اخرجي إليها، اخرجي أنت...

تركت الأخت الأطباق التي كانت تغسلها، مسحت يديها بالفوطة لتُنشفّهما واتّجهت إلى الباب، فوجدت جارة الطابق الأسفل عند سفرة الدرج.

ـ صباح الخير، سيّدة جوستينا. تفضّلي؟

أميليا، في أيّ لحظة وتحت أيّ ظرف، هي اللياقة بعينها. ولكن يكفي تعرّض بسيط لهذه اللياقة حتّى تنقلب إلى برودة لا تهتزّ. كان بؤبؤاها الصغيران يتسمّران في الوجه الذي ينظران إليه، ويُثيران لدى صاحبه شعورًا بالانزعاج وعدم الراحة يستحيل قمعه.

الجارة تتّفق مع شقيقة أميليا وكانت على وشك أن تُفصح لها عن سبب صعودها. لكن الآن تجد نفسها أمام وجه أقلّ خجلًا ونظرة أكثر مباشرة. وكان كلّ ما تمكّنت من قوله:

- صباح الخير، سيّدة أميليا. إنّه زوجي... يعمل طوال الليل في الصحيفة كما تعلمين، وفقط في الصباح يتسنّى له أن يستريح... يتعكّر مزاجه إذا تقطّع نومه، وأنا التي أضطرّ إلى تحمّله. أكون شاكرة إذا أمكن التخفيف من ضجّة الماكينة...

- بصراحة لا أدري. ابنة شقيقتي يجب أن تعمل.

- أفهم. أنا لا يهمّني، ولا يزعجني الأمر، لكن تعرفين كيف هم الرجال...

- أعرف تمامًا. وأعرف أيضًا أنّ زوجك لا يكترث كثيرًا لراحة جيرانه عند عودته في ساعات الفجر الأولى.

- وماذا بيدي أن أفعل؟ تعبت من محاولة إقناعه بأن يصعد الدرج كأيّ آدمي.

مع هذه العبارة، بدأت الحياة تدبّ في وجه جوستينا الطويل

الشاحب، وفي عينيها أخذ يلوح بريق صغير بعيد عن البراءة. لكنّ أميليا أنهت المحادثة.

ـ سنتريّث قليلاً. اطمئنّي.

ـ شكراً جزيلاً، سيّدة أميليا.

همست أميليا بعبارة «بالإذن» جافّة ومختصرة وأغلقت الباب. جوستينا نزلت الدرج بقامتها الطويلة وثوب حدادها المغلق الذي يُضفي عليها هيئة جنائزية، وشعرها الأسود المفروق بخطّ طويل وسط رأسها، فبدت مثل دمية سيئة التركيب، أطول من أن تكون امرأة ومن دون أيّ لمحة تدلّ على الأنوثة. وحدهما العينان السوداوان، الغارقتان في جحريهما الطريّين بسبب السكّري، كانتا، وعلى العكس من باقي المشهد، جميلتين، ولكن مع نظرة جادّة متجهّمة تطرد منهما أيّ جاذبية ممكنة.

عندما وصلَت إلى سفرة الدرج توقّفت أمام الباب الذي يواجه بابها وأرهفت سمعها. لم يصدر من الداخل أيّ صوت. قامت بحركة تُعبّر عن ازدراء وابتعدت. عندما همّت بدخول شقّتها، سمعت من الطابق الأعلى صوت باب يُفتح تليه أصوات مختلفة. أخذت تعدّل في وضعية ممسحة الأرجل كذريعة كي لا تُغادر مكانها.

وصلها من الأعلى حوار يملأه الحماس، فقال صوت امرأة بدا عليه التوتّر والانزعاج:

ـ هي لا تريد أن تذهب إلى العمل.

وجاء الردّ من صوت رجولي:

ـ على كلّ حال الأمر سيّان. يجب الاهتمام بالصغيرة، فهي في سنّ حرجة. لا نعرف أيّ اتّجاه قد تأخذ الأمور.

ـ أيّ سنّ حرجة؟ ولماذا؟ أنت لا تتغيّر. تسعة عشر عامًا، سنّ حرجة؟ أحيانًا تقول كلامًا...

ارتأت جوستينا أنّ من المناسب أن تضرب الممسحة بقوّة تلفت إلى وجودها، فتوقّفت محادثة الطابق الأعلى، وتابع الرجل نزول الدرج قائلاً:

ـ لا تُجبريها على الخروج. وإذا استجدّ شيء، اتّصلي بي في المكتب، إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء، أنسيلمو.

بادرت جوستينا جارها بابتسامة تفتقر إلى التودّد. أنسيلمو مرّ أمامها محيّيًا بحركة رصينة ملامسًا طرف قبّعته، وألقى تحيّة رسمية بصوت رخيم. في الأسفل، أُغلق باب المدخل بضربة عبّرت عن قوّة شخصية رافقت خروجه. جوستينا تحوّلت بتحية جديدة نحو الأعلى.

ـ صباح الخير، سيّدة روزاليا.

ـ صباح الخير، سيّدة جوستينا.

ـ ما بها ماريا كلاوديا؟ مريضة؟

ـ كيف عرفت؟

كنت هنا، أطرق الممسحة، وسمعت زوجك. كأنّني فهمت...

ـ غنج ودلال. أنسيلمو لا يقدر على سماع ابنته تشكو. ليس بيده...تقول إنّ رأسها يؤلمها. أو هكذا تدّعي. الصداع مؤلم لدرجة أنّها عادت ونامت من جديد!

ـ من يعلم، سيّدة روزاليا؟ أنا هكذا فقدت ابنتي، رحمها الله. قيل لي إنّها لا تشكو شيئًا، لا شيء، بينما كانت في الواقع مصابة بالتهاب السحايا...

ثمّ أخرجت منديلاً ونفخت فيه عبر أنفها بقوّة وتابعت.

ـ المسكينة... كانت بعمر الثماني سنوات... لا أقدر على نسيانها... وقد مرّ عامان. هل تذكرين، سيّدة روزاليا؟

السيّدة روزاليا تذكر وها هي تذرف دمعة بالمناسبة. أرادت جوستينا المتابعة، بذكر تفاصيل صغيرة يعرفها الجميع، مستندة إلى التعاطف الواضح من قبل جارتها، غير أنّ صوتًا أجشّ قطع عليها كلماتها:

ـ جوستينا.

جمد وجه جوستينا الشاحب وصار كالحجر. وتابعت التحدّث إلى روزاليا إلى أن أتى الصوت مرّة ثانية أعلى طبقة وأكثر عنفًا:

ـ جوستينا!!!

ـ ما الأمر؟

ـ ادخلي من فضلك. لا أحبّ أحاديث الأدراج. لو كان لديك من العمل ما يرهقك مثلي، لما شعرت بهذه الرغبة في الثرثرة!

رفعت جوستينا كتفيها لامبالية وتابعت كلامها. لكنّ السيّدة الأخرى شعرت بعدم الارتياح للمشهد واستأذنتها. بعدما دخلت جوستينا، عادت روزاليا ونزلت بضع درجات وراحت تصغي. وصلتها عبر الباب عبارات قاسية وبعدها فجأةً، ساد الصمت.

هكذا كان الحال دائمًا. يتفوّه الرجل بكلام حاقد، ثمّ تردّ المرأة بكلمات قليلة غير مسموعة فيسكت. ظاهرة تستغربها روزاليا. فزوج جوستينا معروف بصلابته، كما يوحي جسمه الكبير المنفوخ وسلوكه الفظّ. لم يتمّ بعد الأربعين من عمره ويبدو أكبر سنًّا بسبب وجهه المرتخي وجيوب عينيه وشفته السفلى اللامعة والمتدلّية على الدوام. لا أحد يفهم كيف تزوّج شخصان على هذه الدرجة من الاختلاف ولماذا. ولا أحد أيضًا يذكر أنّه رآهما معًا في الشارع. وأكثر من ذلك، لا يمكن لأحد أن يفسّر كيف أنّ كائنين لم تعرف الجاذبية طريقًا إليهما (عينا جوستينا كانتا جميلتين ولكن لا علاقة لهما بسحر العيون الجميلة) أنجبا ابنة بنضارة الصغيرة ماتيلدا ورونقها وجاذبيتها. وكأنّ الطبيعة أخطأت ثمّ استدركت الواقعة لاحقًا وحاولت إصلاح الأمر باسترداد الطفلة وخطفها من هذا العالم.

ما هو أكيد أنّ كايتانو كونيا العنيف والعدائي، والذي يعمل في

صفّ الأحرف في صحيفة «الأخبار»، دائمًا على وشك الانفجار شحمًا ومستجدّات وقلّة تهذيب، لكن كان بعد ثلاثٍ من عباراته المهينة يخرّ صامتًا أمام تمتمات زوجته، جوستينا الهزيلة المصابة بداء السكّري، والتي تكفي نفخة واحدة كي توقعها.

كان هذا سرًّا لم يستطع أحد كشفه. انتظرت روزاليا قليلاً، لكنّ الصمت كان مطبقًا. لذلك رجعت إلى شقّتها وحرصت على إقفال الباب على مهل كي لا توقظ ابنتها الراقدة.

الراقدة أو التي تدّعي الرقاد. ألقت روزاليا نظرة من شقّ الباب. بدا لها كأنّ جفنَي ابنتها يهتزّان. فتحت الباب بالكامل وتقدّمت نحو السرير. ماريا كلاوديا تغمض عينيها بجهد مبالغ فيه وغير ضروري. الخطوط الصغيرة التي رسمتها هذه الحركة تدلّ على مكان تجاعيد العينين الجانبية التي ستظهر لاحقًا. الفم الممتلئ ما زال يحتفظ ببعض أحمر الشفاه من يوم البارحة. الشعر الكستنائي القصير يمنحها هيئة صبيّ أرعن تُضفي على جمالها نكهة لاسعة ومثيرة، ملتبسة بعض الشيء.

نظرت روزاليا إلى ابنتها، مرتابة من هذا النوم العميق الذي كان كلّ شيء يدلّ على زيفه. أرسلت تنهيدة خفيفة. ثمّ، بحركة تنمّ عن حنان الأمّ، أصلحت ثنية الغطاء عند عنق ابنتها. وجاء ردّ الفعل فوريًا. ماريا كلاوديا فتحت عينيها، ضحكت، أرادت أن تخفي تمثيلها لكنّها تأخّرت.

ـ أنت تدغدغينني ماما.

أثارت الخدعة غضب روزاليا، وخصوصًا لأنّ ابنتها ضبطتها متلبّسة بالحبّ الأمومي، فأجابت مستاءة:

ـ كنت نائمة إذًا؟ لم يعد رأسك يؤلمك الآن؟ أنت لا تريدين الذهاب إلى العمل، كسولة.

كما لو تعمّدت إثبات أنّ أمّها على حقّ، مطّت الفتاة أطرافها ببطء، مستمتعةً بتمدّد عضلاتها. كان قميص نومها المزيّن بالدانتيلا يفتح مع حركة الصدر عند الشهيق ويُظهر نهدين صغيرين مستديرين. من دون أن تعرف تماماً لماذا، كانت روزاليا تشعر بأنّ في هذه الحركة اللامبالية ما يهينها، ولذلك لم تخفِ انزعاجها فاعترضت قائلة:

ـ غطّي نفسك! بنات اليوم لا يعرن أيّ اهتمام للحياء حتّى أمام أمّهاتهن!

فتحت ماريا كلاوديا عينيها. كانتا زرقاوين تلمعان ببريق جميل، ولو أنّه بارد، شأنهما شأن النجوم البعيدة التي لا يصلنا منها، لبعدها، غير الضوء.

ـ لكن ما المشكلة؟... كما تريدين، غطّيت نفسي.

ـ عندما كنت في مثل سنّك، لو ظهرت بهذه الهيئة أمام أمّي، لنلت صفعة منها.

ـ تضربك لأمر بسيط كهذا...

ـ بسيط برأيك. بصراحة هذا ما تستحقّينه أنت أيضًا.

رفعت ماريا كلاوديا ذراعيها لتتمدّد خلسة عن أمّها، ثمّ تثاءبت.

ـ اختلف الزمن يا أمّي.

أجابت روزاليا وهي تفتح النافذة:

ـ صحيح اختلف، إلى الأسوأ.

ثمّ عادت صوب السرير.

ـ أخبريني. هل ستذهبين إلى العمل أم لا؟

ـ كم الساعة؟

ـ العاشرة تقريبًا.

ـ تأخّر الوقت.

ـ لم يكن متأخّرًا منذ قليل.

ـ كان رأسي يؤلمني.

الجمل، القصيرة والسريعة، تنمّ عن استياء واضح لدى الجهتين. روزاليا التي تغلي من الغضب المحبوس في داخلها، وماريا كلاوديا الممتعضة من ملاحظات أمّها ووعظاتها.

ـ كان رأسك يؤلمك، كان رأسك يؤلمك! أنت تدّعين المرض ليس أكثر...

ـ قلت لك إنّ رأسي يؤلمني، ماذا تريدين أن أفعل؟

روزاليا انفجرت:

ـ أهكذا تجيبينني؟ أنا والدتك، أتسمعين؟

لم تتأثّر الفتاة. رفعت كتفيها في دلالة على أنها لا ترى في هذه النقطة ما يستحقّ النقاش ونهضت من سريرها بقفزة واحدة. وقفت وقميص نومها الحريري يبرز تفاصيل قدّها الغضّ والمتناسق. ووقعت نضارة جمالها في وعاء غليان الغضب عند الوالدة فغارت النوبة كما يغور الماء في الرمل الجافّ. كانت فخورة بماريا كلاوديا، وبالقوام الميّاس الذي لديها، فبدر منها فورًا كلام يكشف استسلامها.

ـ يجب إشعار المكتب.

لم يبدُ على ماريا كلاوديا أنّها لاحظت تغيّر النبرة، فأجابت لا مبالية:

ـ سأنزل إلى شقّة السيّدة ليديا لأتّصل.

توتّرت روزاليا من جديد، ربّما لأنّ ابنتها لبست الآن ثوبًا منزليًا ولم يعد لديها سبب لانتقادها.

ـ تعلمين جيّدًا أنّي لا أحبّ أن تدخلي شقّة السيّدة ليديا.

أظهرت ماريا نظرة تحمل أقصى ما يمكن من البراءة وتساءلت:

ـ كيف؟ لماذا؟ لا أفهم.

لو أنّ الحديث سيستمرّ، ستجد روزاليا نفسها مضطرّة إلى التكلّم عن أمور تفضّل عليها السكوت. هي تدرك أنّ ابنتها لا تجهلها، لكنّها تعرف أيضًا أنّ بعض المواضيع لا يصحّ تناولها أمام شابّة عازبة. كانت روزاليا تحتفظ من التربية التي تلقّتها بمفهوم حدود الاحترام الواجب إقامتها بين الآباء والأبناء، وما زالت تطبّقه. تظاهرت بأنّها لم تفهم السؤال وخرجت من غرفة النوم.

ابتسمت ماريا كلاوديا التي بقيت وحدها. وأمام المرآة، حلّت أزرار الثوب وفتحت قميص نومها لتتأمّل نهديها. ارتعشت، وعلت وجنتيها حمرة خفيفة. ابتسمت من جديد ببعض التوتّر، ولكن مسرورة. ما فعلته للتوّ أثار لديها شعورًا لذيذًا، له نكهة الخطيئة. ثمّ أغلقت أزرارها، ونظرت في المرآة مرّة ثانية وغادرت الغرفة.

في المطبخ، اقتربت من أمّها، التي كانت تحمّص شرائح الخبز، وأعطتها قبلة. لا يمكن لروزاليا أن تنكر أنّ القبلة أعجبتها. وهي ولو لم تردّ بمثلها، فقد صفّق قلبها من الفرح.

ـ اذهبي واغسلي وجهك، قطع الخبز المحمّص ستكون جاهزة.

أقفلت ماريا كلاوديا الحمّام على نفسها ثمّ عادت ممتلئة بالحيوية، ببشرة مشرقة ونظيفة، وشفتين بلونهما الطبيعي وقد جمّدهما الماء البارد. لمعت عينا الأمّ وهي تنظر إليها. جلست الفتاة إلى المائدة وراحت تأكل بشهية. سألتها روزاليا:

ـ تحبّين أن تبقي في البيت من وقت لآخر، صحيح؟

ضحكت الفتاة موافقة:

ـ أترين؟ ألست محقّة؟

أحسّت روزاليا بأنّها لانت أكثر من اللازم. أرادت أن تُصلح الموقف وألّفت جملتها التالية:

ـ لا بأس، لكن يجب عدم المغالاة.

ـ لا أحد يشتكي من عملي في المكتب.

ـ ربّما سيشتكون يا ابنتي. من الضروري أن تحافظي على هذه الوظيفة، راتب والدك ليس كبيرًا كما تعلمين.

ـ اطمئنّي. أعرف كيف أتدبّر الأمور.

تودّ روزاليا لو تعرف بأيّ طريقة، لكنّها لم تشأ أن تسأل. أنهتا الفطور بصمت، ثمّ قامت ماريا كلاوديا وقالت:

ـ سأطلب من السيّدة ليديا أن تسمح لي باستخدام هاتفها.

من جديد أرادت الأمّ أن تفتح فمها للاعتراض، لكنها آثرت السكوت. فالابنة كانت أسرع من كلامها وها قد أصبحت في الممرّ:

ـ لا داعي لأن تقفلي الباب، لن تتأخّري.

سمعت روزاليا من المطبخ صوت الباب ولم تشأ التفكير في أنّ ابنتها أغلقته عمدًا لمشاكستها. ملأت حوض المجلى وشرعت تغسل أطباق الفطور المتّسخة.

لا تشارك ماريا كلاوديا أفكار أمّها بالنسبة إلى عدم لياقة العلاقة مع جارتهم في الطابق السفلي بل على العكس، كانت تجدها لطيفة جدًّا. قبل أن ترنّ جرس الباب، رفعت ياقة ثوبها ومرّرت يدها من خلال شعرها، مع بعض الأسف لأنّها لم تضع لمسة من أحمر الشفاه.

أصدر الجرس رنينًا رجع صداه على طول درج المبنى الهادئ. سمعت ماريا كلاوديا خلفها ضجّة صغيرة أكّدت لها أنّ جوستينا تراقبها من ثقب بابها. أرادت أن تلتفت لاستفزازها ولكن في اللحظة نفسها فتح الباب وبانت السيّدة ليديا.

ـ صباح الخير، سيّدة ليديا.

ـ صباح الخير، كلاوديا. أهلاً بك! ألا تريدين الدخول؟

ـ بعد إذنك...

في الممرّ قليل الإضاءة أحسّت الفتاة بأجواء العطر المكثّف تلفّها.

ـ أخبريني. كيف تسير أمورك؟

ـ جئت أزعجك مرّة أخرى سيّدة ليديا.

ـ أرجوك، أنت لا تزعجينني. تعلمين كم يسرّني أن تزوريني في بيتي.

ـ شكرًا. أودّ لو تسمحين لي بالاتّصال بالمكتب لأخبرهم أنّي لست ذاهبة إلى العمل اليوم.

ـ طبعًا، طبعًا.

قالت هذا ودفعتها على مهل نحو غرفة نومها. كلّ مرّة تدخل ماريا كلاوديا هذا المكان تشعر بالارتباك. غرفة ليديا تمتلئ بجوّ ما فيه شيء يسلب عقلها. قطع الأثاث جميلة أنيقة لم يسبق أن رأت مثلها، المرايا، الستائر، الأريكة الحمراء، السجّادة الوثيرة المفروشة على الأرض، قوارير العطر فوق منضدة الزينة، رائحة التبغ الثمين... لكن لا شيء من كلّ هذه الأشياء بحدّ ذاته هو سبب ارتباكها. ربّما هي كلّها مجتمعة، ربّما هو حضور ليديا... شيء ما مبهم يصعب تحديده، مثل غاز يعبر من خلال كلّ المصافي فيحرق ويهري. كانت في غرفة النوم تلك تفقد السيطرة على نفسها، وتحسّ بدوار كأنّها احتست الشمبانيا، تخالطه رغبة في ارتكاب الحماقات.

قالت ليديا:

ـ الهاتف هناك، تفضّلي.

واستدارت لتنسحب لكن ماريا كلاوديا استدركتها قائلة:

ـ لا داعي، سيّدة ليديا. ليس هذا بالأمر المهمّ...

قالت هذه الجملة بنبرة وابتسامة كأنّهما تعنيان وجود أمور أخرى أكثر أهمّية، وأنّ السيّدة ليديا تعي جيّدًا ما هي. كانت واقفة فسارعت ليديا تقول:

ـ اجلسي كلاوديا. نعم هنا، عند حافّة السرير.

جلست مرتجفة الساقين. وضعت يدها الطليقة على اللحاف المكسوّ بالساتان الأزرق ومن غير انتباه راحت تلامس القماش المنجّد، بشيء من الإثارة. لم تبدُ ليديا منتبهة. فتحت علبة حافظة السجائر وأشعلت سيجارة «كامل». التدخين لديها ليس عادة سيّئة أو ضرورة، لكن السيجارة ما هي إلّا جزء من مجموعة مركّبة من التصرّفات والكلمات والحركات التي ترمي كلّها إلى هدف واحد: الإبهار. وقد غدا ذلك بحدّ ذاته طبيعة ثانية لها: عندما تكون ليديا برفقة شخص آخر، كائنًا من كان، فهي تسعى لإدهاشه وترك الأثر لديه. السيجارة، وسحب عود الكبريت بكلّ تأنّ، وأوّل نفثة من الدخان، طويلة ناعسة، كلّها كانت من أوراق اللعب التي تُجيدها.

كانت ماريا كلاوديا تشرح عبر الهاتف، مع كثير من الحركات الجسدية والصوتية، عن صداعها «الرهيب». تُعبّر بجمل متقطّعة، تصدر عادةً عمّن هو مريض فعلاً. وخفيةً عنها، كانت ليديا تراقب أداءها المتقن. أخيرًا، أقفلت الفتاة السمّاعة ونهضت:

ـ انتهيت سيّدة ليديا، شكرًا جزيلاً.

ـ أهلاً بك. تعلمين أنّه دائمًا في تصرّفك.

ـ تفضّلي، سأضع هنا الخمسة سنتات كلفة المكالمة.

ـ كفّي عن هذا التصرّف السخيف. احتفظي بنقودك. متى ستتخلّين عن عادتك في دفع ثمن المكالمات؟

وابتسمت المرأتان وهما تتبادلان النظرات. فجأةً، انتاب ماريا

كلاوديا شعور بالخوف. مع أنّه ليس هناك ما يخيف، أقلّه ذلك الخوف الملموس والحاضر. كانت الفتاة تحسّ، بين لحظة وأخرى، بحضور طاغ في الغرفة. ربّما هو الجوّ، الذي كان سبب نشوتها منذ قليل، بات بغتةً سبب اختناقها.

ـ سأذهب الآن. شكرًا لك مرّة ثانية.

ـ ألا تريدين البقاء أكثر؟

ـ لديّ بعض الأشغال. وأمّي تنتظرني.

ـ لن أحتجزك إذًا.

كانت ليديا ترتدي ثوبًا من قماش التفتة بلون أحمر تشوبه انعكاسات تميل إلى الأخضر مثل أجنحة نوع من الدبابير الطنّانة، وكيفما اتّجهت، تترك خلفها رائحة نفّاذة من العطر. لدى سماع ماريا كلاوديا حفيف القماش، وخصوصًا تنشّقها ذلك الشذا الدافئ والمُسكر المنبعث ليس من عطر ليديا وحسب بل من جسدها أيضًا، شعرت ماريا كلاوديا بأنّها تكاد تفقد كامل رباطة جأشها.

بعدما خرجت كلاوديا، مكرّرة عبارات الشكر، عادت ليديا إلى غرفة النوم. وجدت السيجارة تحترق في المنفضة احتراقًا بطيئًا، فسحقت طرفها لإطفائها، ثمّ تركت نفسها تهوي على السرير. شبكت يديها خلف رقبتها واستلقت على اللحاف الطريّ الذي لامسته يد كلاوديا منذ برهة. عند ذاك رنّ جرس الهاتف فرفعت السمّاعة بحركة متثاقلة:

ـ نعم... نعم أنا... آه صحيح. (...) أريد... ما لائحة الطعام اليوم؟ (...) لا بأس. نعم. (...) لا، ليس هذا. (...) ممم... طيّب. (...) والفاكهة؟ (...) لا أحبّها. (...) لا داعي. لا أحبّها. (...) ربّما. (...) جيّد. لا تتأخّر في إرسالها. ولا تنسَ أن تُرسل فاتورة هذا الشهر أيضًا. (...) طاب نهارك.

أقفلت السمّاعة وألقت بنفسها من جديد فوق السرير. تثاءبت علنًا، بلامبالاة من يعي أنّه بمنأى عن العيون الفضولية، تثاءبت فاتحة ثغرها الذي انكشف عن غياب أضراسها الخلفية.

لم تكن ليديا جميلة. إذا نظرنا إلى كلّ من ملامحها على حدة نستنتج أنّها من النوع الذي يقف على مسافة متساوية بين الجمال والسوقية. وفي هذه اللحظة بالذات لا يأتي خلوّ وجهها من الماكياج في صالحها. بشرتها تلمع من آثار كريم الليل وشعيرات حاجبيها عند الأطراف في حاجة إلى إزالة. فعلاً، ليديا ليست رائعة الجمال، هذا بالإضافة إلى أنّ رزنامة العمر تعدّت اليوم الذي أتمّت فيه سنيّها الاثنتين والثلاثين، وأنّ الثالثة والثلاثين ليست ببعيدة. مع ذلك تنبثق منها ككلّ غوايةٌ خاطفة. العينان بلون بنّي داكن والشعر أسود. وعلى وجهها ترتسم، في لحظات التعب، خصوصًا حول الفم وعند جانبي الأنف، ملامح ذكورية قاسية، بيد أنّ ليديا تعرف كيف تحوّل هذه القساوة، بحركة واحدة، إلى إغراء ومداعبة. ليست من النساء اللواتي يعملن على جذب الآخرين بمفاتن الجسد، ومع ذلك كانت تشعّ بالإثارة من قمّة رأسها إلى أخمص قدميها. وتخوّلها مهاراتها أن

تفتعل لديها اختلاجًا يجرّد عاشقها من سلاحه، ويتركه من دون قدرة على الدفاع عن نفسه أمام ما يحسبه طبيعيًا، أي هذه الموجة الظاهرية التي يغرق فيها معتقدًا أنّها حقيقية. ليديا تعرف. وكلّ ذلك يشكّل أوراق لعبتها، ومَكمن تفوّقها: قوامها النحيل مثل عود خيزران والنابض كعصا دقيقة من الفولاذ.

تردّدت بين أن تنام أو تنهض، وأخذت تُفكّر في ماريا كلاوديا، في جمالها اليافع النضر، وللحظة ما، وبالرغم من إدراكها أنّه لا يليق بها أن تقارن نفسها بطفلة، شعرت بطرقة مباغتة في قلبها، بغيرة قطّب لها جبينها. أرادت أن تتبرّج، أن تتزيّن، أن تضع بين صبا ماريا كلاوديا وجاذبيتها كامرأة ناضجة ذات خبرة أبعد مسافة ممكنة. قامت على عجل. أشعلت السخّان: مياه الاستحمام جاهزة لاستقبالها. بحركة واحدة خلعت الثوب، ثمّ رفعت قميص النوم من جانبيه وتخلّصت منه عبر رأسها. وقفت عارية كلّيًا. فحصت حرارة الماء ونزلت في المغطس، وراحت تستحمّ على مهلها. ليديا تعرف أهمّية النظافة الشخصية بالنسبة إلى امرأة في مثل وضعها.

بنظافتها وانتعاشها، لفّت نفسها بثوب الحمّام واتّجهت إلى المطبخ. قبل أن تعود إلى غرفة النوم، أشعلت نار الغاز ووضعت عليها وعاء لتُحضّر الشاي.

في غرفتها، اختارت فستانًا أنيقًا، على بساطته، يُحدّد قوامها ويُظهرها أكثر شبابًا، أكملته ببعض لمسات الزينة على وجهها، راضيةً

عن نفسها وعن الكريم الذي تستعمله. عادت إلى المطبخ. كان الماء يغلي. رفعت الوعاء وعندما فتحت علبة الشاي لاحظت أنّها فارغة، فظهر الاستياء على محيّاها. وضعت العلبة جانبًا ورجعت إلى غرفة النوم تريد الاتّصال بالبقّالة لكن قبل أن ترفع السمّاعة، سمعت كلامًا صادرًا من الشارع ففتحت النافذة.

الضباب يتراجع والسماء تنكشف زرقاء صافية، بتلك الزرقة المائية التي تعلن قدوم الربيع. وأشعّة الشمس تصل من البعيد البعيد فلا تغيّر شيئًا من البرودة المسيطرة.

عند نافذة طابق الميزانين إلى يسار المبنى، امرأة تتكلّم وتكرّر كلامها، موكلة مهمّة التسوّق ببعض الحاجيات إلى طفل أشقر ينظر إليها من الأسفل وهو يجعّد أنفه من شدّة تركيزه على ما تقوله. تتحدّث بلكنة إسبانية وبغزارة. كان الصغير قد فهم أنّ أمّه تريد فلفلاً بعشرة سنتات وأراد أن يهمّ بالمغادرة لولا أنّها عادت وكرّرت طلبها، فقط لمتعة التكلّم مع ابنها وسماع نفسها. وعندما بدا أنّه ليس لديها غير ذلك من التوصيات تدخّلت ليديا:

ـ سيّدة كارمن، سيّدة كارمن!

فجاءها الردّ بالإسبانية:

ـ من يناديني؟ آه صباح الخير، سيّدة ليديا!

ـ صباح الخير! هل تسمحين لإنريكيتو بأن يجلب لي غرضًا من البقّالة؟ أحتاج إلى شاي...

أفهمت الصغير طلبها ورمت إليه بورقة عشرين إسكودو. بعد ذلك هبّ إنريكي راكضًا صعودًا في الشارع وكأنّه يجري أمام كلاب تطارده. شكرت ليديا السيّدة كارمن، التي أجابتها بلغتها المتلعثمة وهي تطعّم بكلمات إسبانية جملاً برتغالية تترك في لفظها آثار معركة. ليديا، التي لا تحبّ كثيرًا الظهور من النافذة، استأذنتها. وما انقضت لحظات حتّى رجع إنريكيتو، محمرّ الوجه من جريه وحاملاً علبة الشاي وبقيّة النقود. كافأته بعشرة سنتات وبقبلةٍ قبل أن يعود أدراجه.

ملأت فنجانها ووضعت الكعك إلى جانبه ومن جديد إلى سريرها. بينما هي تفطر راحت تقرأ كتابًا سحبته من خزانة صغيرة في غرفة الطعام. كانت تملأ فراغ نهاراتها بقراءة الروايات وكان لديها منها من جيّد المؤلّفين ورديئهم. في هذه الفترة هي مهتمّة بعالم شعب المايا الذي لا معنى له ولا طائل منه. كانت تحتسي شايها برشفات قصيرة وتقضم كعكتها de la reine وتقرأ الفقرة التي تفاجئ فيها ماريا إدواردا كارلوس بقولها له إنّه «بالإضافة إلى قلبه النائم، فإنّ لديه أيضًا جسدًا يبقى على الدوام باردًا، باردًا كالرخام...». أُعجبت ليديا بالعبارة وبحثت عن قلم لتُعلّمها ولم تجده، فنهضت إلى منضدة الزينة والكتاب بيدها، وبأحمر الشفاه، وضعت علامة على هامش الصفحة: سطرًا أحمر يدلّ في قصصها على مأساة أو على مهزلة.

كانت تصلها من الدرج ضجّة مكنسة يصاحبها صوت السيّدة

كارمن وهي تشدو بمقطع من أغنية حزينة، ومن خلفية أصوات الصفّ الأوّل هذه، يأتي الطنين الثاقب لماكينة خياطة، والضربات الحاسمة لمطرقة تهوي فوق نعال الأحذية.

ومع قطعة كعك معلّقة بكلّ رقّة بين أسنانها الأمامية، استأنفت ليديا قراءتها.

****

٢

دقّت ساعة الصالون التي ورثتها جوستينا بعد وفاة والديها تسع دقّات مخنوقة تلت بلبلة ميكانيكية متعَبة. يخيّم في الجوّ صمت مطبق نخال معه أنّ الشقّة هجرها ساكنوها، خصوصًا وأنّ جوستينا تنتعل أيضًا حذاء من اللبّاد وتتنقّل به من غرفة إلى أخرى بخفّة شبح. هي وهذا البيت، وكأنّهما خُلقا ليكمّلا بعضهما، لدرجة أنّ من يراهما يدرك على الفور سبب كونهما على هذا النحو وليس غيره. لا يمكن أن توجد جوستينا إلّا في هذا البيت، وهذا البيت، ببرودته وسكوته، لا يمكن أن يكون ما هو عليه من دون جوستينا. من أثاثه، من أرضيته، تنبعث أنفاس الرطوبة، وفي هوائه رائحة العفونة. النوافذ المغلقة على الدوام تُساهم في هذا الجوّ المأتمي، كما تُساهم جوستينا البطيئة والمتلكّئة في إبقاء نظافة الشقّة غير مكتملة.

الصوت الآتي من ساعة الحائط، والذي يحاول طرد الصمت، يموت في تردّدات تخفت أكثر فأكثر، تتباعد أكثر فأكثر. بعدما أطفأت جوستينا الأنوار، جلست على كرسيّ بالقرب من نافذة تطلّ على الشارع. تحبّ أن تجلس هناك، ساكنة، عاطلة عن العمل، اليدان مرتخيتان على الحضن والعينان مفتوحتان على الظلام، في انتظار شيء هي نفسها لا تعرف ما هو. عند قدميها التفّ القطّ على

نفسه، رفيقًا أوحد لسهراتها. كان حيوانًا هادئًا، ذا عينين متسائلتين ومشية متعرّجة، يبدو كأنّه فقد القدرة على المواء. تعلّم السكوت من سيّدته ومثلها، استسلم له.

يمرّ الوقت متثاقل الخطى. تكتكة الساعات تدفع الصمت، وتصرّ جاهدةً على إبعاده، لكن الصمت يعود ويواجهها بكتلته الكثيفة والثقيلة، والتي تختنق فيها كلّ الأصوات. وها هما يقاتلان بلا هوادة، كلّ من ناحيته، الصوت مواجهًا عناد اليأس ويقين الموت، والصمت مواجهًا لامبالاة الخلود.

ثمّ ظهر ضجيج أكثر حضورًا: أشخاص ينزلون درج المبنى. لو كان الوقت نهارًا، لما تأخّرت جوستينا عن النهوض لرؤيتهم، ليس بداعي الفضول وحسب، بل أيضًا لأنّه ليس لديها شيء آخر تفعله، لكن الليل كان دائمًا يسلب منها كلّ قواها ويتركها مرهقة، تحدوها رغبة غبية في البكاء والموت. إنّها متأكّدة تمامًا من أنّ الأصوات هي لروزاليا وزوجها وابنتها الذين يخرجون لمشاهدة فيلم. وهذا واضح من ضحكات ماريا كلاوديا المولعة بالسينما.

السينما... كم مضى من الزمن منذ آخر فيلم شاهدته في السينما؟ آه صحيح، منذ موت ابنتها... لكن حتّى قبل ذلك، كم كان مضى من الوقت من دون دخولها صالة سينما؟ كانت ماتيلدا تذهب مع أبيها، وتبقى هي بين جدران المنزل. لماذا؟ لا تعرف... لم تكن تذهب. لا تحبّ السير في الشارع إلى جانب زوجها، هي طويلة

نحيلة، وهو سمين مربوع القامة. يوم زفافهما ضحك أولاد الشارع كثيرًا عند رؤيتها تخرج من الكنيسة. لم تنسَ يومًا تلك الضحكات، كما لم تقدر على نسيان صورتهما الفوتوغرافية، التي ظهرا فيها وإلى جانبيهما الإشبينان والمدعوّون متراصفين على درج الكنيسة مثل جمهور يقف على الأقدام على مدرجات ملعب كرة قدم. هي شاهقة وقد علّقت باقة الزهور بيديها، بعينين سوداوين اختفى بريقهما لشدّة الارتباك، وهو، سمين مُذّاك، محشور في بدلته الرسمية وقبّعته المرتفعة المستعارة. كانت جوستينا قد دفنت تلك الصورة في عمق أحد الأدراج ولم تشأ مطلقًا أن تنظر إليها لاحقًا.

انقطع حوار ساعة الحائط والصمت مرّة ثانية. فقد انبعث من الشارع صوت أصمّ صادر عن تماسّ عجلات سيّارة بالطريق غير المستوي. توقّفت السيّارة متبوعة بخليط من الأصوات علا في جوف الليل: نابض مكبح اليد، الصرير المميّز لباب المبنى الخارجي عندما يُفتح، وسكوته السريع بضربة واحدة تغلقه، صليل علّاقة مفاتيح... ليست جوستينا مضطرّة إلى النهوض لمعرفة من القادم. السيّدة ليديا ستستقبل زائرًا، زائرها، الرجل الذي يأتي لزيارتها ثلاث مرّات في الأسبوع ويغادر كلّ مرّة عند الثانية صباحًا. لا يمضي أبدًا الليل بطوله عندها. كان مبرمجًا، دقيقًا، منتظمًا. جوستينا لا تحبّ جارتها المقيمة تجاهها. تحمل لها الضغينة لأنّها جميلة، وخصوصًا لأنّها من أولئك النسوة اللواتي يعشن على نفقة غيرهن، وأيضًا لأنّ لديها بيتًا مرتّبًا، ومالًا يمكنها أن تنفق منه على خادمة تنظّف لها شقّتها

أو لطلب الوجبات من المطاعم، ومجوهرات تخرج مزدانة بها في الشارع، وعطور تفوح منها. بيد أنّها شاكرة لها أن منحتها الذريعة كي تقطع نهائيًا علاقتها الحميمة بزوجها. فبفضل ليديا، استطاعت أن تضمّ إلى ألف سبب وسبب، سببها الأكبر.

بمجهود بطيء ومضنٍ، كما لو أنّ الجسم يستعصي على الحركة، قامت وأشعلت النور. غرفة الطعام، حيث هي الآن، كبيرة، والمصباح الذي يضيئها ضعيف يترك في زواياها ظلالًا من العتمة. الجدران عارية، الكراسي مرتفعة الظهر صلبة ومُنفرة، الأثاث يفتقر إلى اللمعان وكأنّه مقشور، وجوستينا وحيدة وسط هذا الصقيع، نحيلة طويلة، بفستانها الأسود، وعينيها السوداوين، الغائرتين والصامتتين.

أطلقت ساعة الحائط حركتين اثنتين وأصدرت طنينًا خجولًا. التاسعة والربع. تثاءبت جوستينا على مهل ثمّ أطفأت النور ودخلت غرفة النوم. فوق خزانة البياضات، كانت صورة ابنتها تشعّ بابتسامة فرحة هي الإشراقة الحيّة الوحيدة في تلك الغرفة المظلمة والرطبة. تنهّدت جوستينا بتحفّظ واستلقت للنوم.

كان نومها رديئًا دائمًا. تمضي الليل تجرجر أحلامها، منامات مبهمة توقظها مرهقة مرتبكة. وبالرغم من مجهود الذاكرة الذي تقوم به، كانت تصعب عليها إعادة تشكيلها. الأمر الوحيد الذي لا تستطيع نسيانه، وكأنّه حدس ما أو ذكرى حدس ما أكثر من كونه يقينًا

أكيدًا، هو وجود شخص وراء باب تعجز كلّ قوى العالم مجتمعة عن فتحه. قبل النوم كانت تستحضر ذكرى وجه ماتيلدا، وطبقات صوتها، وحركاتها، وضحكاتها، وحتّى وجهها الميت، متمنّية لو أنّ في مقدور كلّ هذا، في المنام، دفع ذلك الباب الموصد على الدوام. ولكن لا جدوى. ما إن تغمض جفنيها حتّى تختبئ ماتيلدا، تختبئ في مكان خفيّ قصيّ بحيث تعود جوستينا وتجدها فقط، من دون أيّ لغز، عندما تستيقظ في اليوم التالي.

لكن إيجادها من دون أيّ لغز يعني فقدانها. رؤيتها كأنّها حيّة تعني تجاهلها.

أغمض الجفنان على مهل مع ثقل الظلال والصمت. ورويدًا رويدًا، عبَر الصمت والظلال إلى فكر جوستينا، وكانت على وشك البدء ببلبلة أحلامها، باستعادة الوجود الغريب والمقلق وراء الباب المقفل على الأسرار. فجأةً، ومن البعيد، ينطلق أنين أخرس ويائس، ويرتجف الليل من شدّة الغموض. تفتح عينا جوستينا الغائمتان على بحر العتمة. يجول الأنين جبالًا وسهولًا، ويوقظ الصدى في كهوف مظلمة وأجواف الأشجار القديمة، ويطلق في قلب الليل ألف رنّة مأساوية، ويقترب متحوّلًا إلى نحيب ودموع تسقط كلّ منها مثل قبضة يد مغلقة، وبقوّة قبضة يد مغلقة.

تحاول عينا جوستينا مقاومة القلق الناجم عن هذه الأصوات المزدحمة في أذنيها. تشعر كأنّ هناك من يسحبها نحو هاوية سوداء

وعميقة وتُصارع كي لا تغرق في لجّتها. لكن خلال سقوطها، تلوح لها ابتسامة ماتيلدا المضيئة فتتمسّك بها يائسة وتُبحر في النوم.

وتبقى موسيقى تخترق الجدران وترتفع حتّى النجوم، إنّها الحركة البطيئة للسمفونية الثالثة «إرويكا» باكيةً الألم، باكيةً انعدام العدالة في موضوع موت الإنسان.

****

٣

سقطت الإيقاعات الأخيرة من «المسيرة الجنائزية» مثل أزهار البنفسج فوق لحد البطل. وبعد ذلك، وقفة. دمعة تنزلق وتموت. ثمّ على الفور، حيوية حركة «الشيرزو» البطولية، مشوبة بعض الشيء بظلام العالم السفلي، ثمّ مستدركةً بهجة الحياة والانتصار مستفيدةً منها.

مرّت رعشة عبر الرؤوس المنحنية. دائرة الضوء المسلّط من سقف الصالة تجمع النساء الأربع في حلقة انبهار واحد، ويظهر على وجوههن الجادّة تعبير متشنّج كمن يحضر احتفالية طقوس سرّية لا يمكن اختراقها. الموسيقى، بقدرتها المخدّرة، ترفع الحواجز في نفوس أولئك النسوة وهن مكبّات بأبصارهن على أعمالهن، التي يكفيها حضور الأيدي، من دون أن تنظر إحداهنّ إلى الأخرى.

تجري الموسيقى بحرّية عبر السكون ويستقبلها السكون في شفتيه المطبقتين. يمرّ الوقت والسمفونية تنتهي في عمق الصمت، مثل نهر ينحدر من الجبل فيملأ السهل ويدخل في بحر من السكوت.

مدّت أدريانا ذراعها وأطفأت الراديو بطرقة حاسمة كصوت باب يُقفل. لقد أنهى السحر فعله.

رفعت الخالة أميليا نظرها. عدستا عينيها، الجامدتان عادةً، تلمعان ببريق مائي. همست كانديدا:

ـ كم كانت حلوة...

لم تكن كانديدا الخجولة والمتعثّرة فصيحة اللسان، لكن شفتيها المتشقّقتين ترتجفان، كما ترتجف شفاه صبيّة مراهقة عند تلقّيها أوّل قبلة حبّ. لا تبدو الخالة أميليا راضية عن التصنيف:

ـ حلوة؟ هذا وصف توصف به أغنية من الأغاني العادية. هذا...، هذا...

تردّدت. الكلمة التي تبحث عنها على رأس لسانها، لكن يتراءى لها أنّها قد تسيء احترام الموقف إن هي لفظتها. في اللغة كلمات تقرّر الانسحاب، ترفض الظهور، لأنّ معناها أكبر من أن تدركه آذاننا المتعبة من كثرة الكلام. بدت أميليا هنا كأنّها تخسر من بعض الحسم المعتاد في نطقها، لكن أنقذتها أدريانا التي قالت، بصوت مرتجف كأنّه يبوح بسرّ ما:

ـ إنّها رائعة الجمال، خالتي.

ـ نعم أدريانا، تمامًا.

ثمّ شخصت أدريانا ببصرها إلى الجوارب التي ترتقها. مهمّة بمنتهى العادية، كمهمّة إيساورا التي تخيط العرى في قميص بين يديها، أو مهمّة أمّها التي تعدّ النقاط في قطعة الكروشيه، أو مهمّة

الخالة أميليا التي تحسب نفقات النهار. أعمال نساء دميمات منطفئات، أعمال حياة صغيرة، من دون نوافذ على الأفق. الموسيقى مرّت من هنا، الموسيقى رفيقة سهراتهن، الزائرة اليومية لبيتهن، التي تأتي مواسية ومحفّزة. مرّت، والآن يمكن التحدّث عن الجمال. ابتسمت إيساورا وسألت:

ـ لِمَ يصعب إلى هذه الدرجة قول كلمة «رائع»؟

أجابت شقيقتها:

ـ لا أدري، لكنّه من الصعب فعلاً. مع أنّها في الواقع مثل غيرها من الكلمات. أربعة أحرفٍ سهلة اللفظ... أنا مثلك لا أفهم.

الخالة أميليا، التي لا تزال تحت وطأة المفاجأة من عدم تفاعلها قبل لحظات، عقّبت قائلة:

ـ أنا أفهم. إنّها مثل كلمة «الله» بالنسبة إلى المؤمنين. كلمة مقدّسة.

نعم. الخالة أميليا تقول دائمًا الكلمة اللازمة، وتضع بذلك حدًّا للنقاش. بعد قصور الكلام إذًا، حلّ الصمت، صمت من دون موسيقى يُثقل الجوّ. سألت كانديدا:

ـ ألم يعد هناك شيء آخر؟

أجابتها إيساورا:

ـ لا. بقيّة البرنامج ليست مهمّة.

كانت أدريانا سارحة، وقد نسيت الجورب في حضنها. كانت تتذكّر بأسى قناع بتهوفن الذي شاهدته ذات مرّة، منذ سنوات انقضت، في واجهة محلّ للموسيقى. لا يزال يقبع في خيالها ذلك الوجه العريض والقويّ، والذي تظهر عليه ملامح العبقرية، حتّى في قالب من الجبس. تذكر أنّها بكت يومًا كاملاً لأنّها لم تكن تملك ما يكفي من نقود لشرائه. كان ذلك قليلاً قبل وفاة والدها. ثمّ حدث أن مات، وتقلّصت الموارد المادّية، ولاحت ضرورة الانتقال من المنزل القديم... قناع بتهوفن اليوم يبدو أكثر من أيّ وقت مضى حلمًا مستحيلاً.

سألتها أختها:

ـ فيمَ تفكّرين، أدريانا؟

ابتسمت أدريانا ورفعت كتفيها:

ـ تفاهات.

ـ كان يومك شاقًّا؟

ـ لا. مثل كلّ يوم: تَسَلُّمُ فواتير، دفع فواتير، حسابات صادرة وواردة لمال ليس لنا...

وضحكت الشقيقتان. الخالة أميليا، التي كانت تُنهي حساباتها هي، رمت السؤال:

ـ أما من كلام في المكتب عن زيادات ممكنة؟

رفعت أدريانا كتفيها للمرّة الثانية. لا تحبّ أن يُطرح عليها هذا السؤال الذي تستشفّ منه أنّ الآخرين لا يجدون ما تكسبه كافيًا، وهذا يزعجها. ردّت بنبرة جافّة:

ـ يقولون إنّه طالما ليست هناك مشاريع...

ـ تبقى الحكاية نفسها. مال كثير للبعض، قليل للبعض، ولا شيء للبعض الآخر. متى سيتعلّم هؤلاء الناس أن يدفعوا لنا ما نستحقّه للعيش؟

تنهّدت أدريانا. ليس هناك من مجال للنقاش مع الخالة أميليا في مسألة النقود، أو أرباب العمل، أو الموظّفين. ليس لأنّها حسودة، ولكن يشقّ عليها أن ترى كم يهدر العالم من أموال بينما يعاني ملايين الأشخاص جوعًا وبؤسًا. وليس بؤسًا ما يعشنه في هذا البيت، فعلى المائدة يتوفّر الطعام في جميع الوجبات، غير أنّه مع ذلك يخيّم ظلّ التقشّف، مستبعدًا كلّ ما هو كمالي، حتّى الكمالي الضروري، أي الذي من دونه ينخفض مستوى حياة الإنسان ليصبح حيوانيًا. أصرّت الخالة أميليا:

ـ يجب أن تتكلّمي، أدريانا. مضى عامان على وجودك في الشركة والراتب يكادُ لا يكفيك لمصروف التنقّل بالترام.

ـ لكن، خالتي، ماذا يسعني أن أفعل؟

ـ ماذا يسعك أن تفعلي؟ أن تكفّي عن النظر إليّ هكذا، بعينيك الخائفتين!

هذه الجملة أصابت الفتاة مثل لكمة مسدّدة آلمتها. عندئذٍ نظرت إيساورا إلى الخالة نظرة قاسية:

ـ خالتي!

التفتت أميليا إليها، ثمّ دارت نحو أدريانا وقالت:

ـ أعتذر.

نهضت وغادرت الصالة، وأدريانا أيضًا نهضت، لكن أمّها استبقتها فجلست مجدّدًا.

ـ لا تهتمّي يا ابنتي. تعرفين أنّها هي التي تتسوّق. تبذل جهدًا كبيرًا لتحافظ على النقود والنقود تتبخّر. أنتما تكسبان، تعملان، لكن المسكينة هي التي تعاني، وحدي أعرف إلى أيّ مدى تعاني.

الخالة أميليا بانت مجدّدًا عند الباب. تبدو متأثّرة ولكنّ هذا لم يمنع أن تُحافظ على الحزم في صوتها، أو ربّما لهذا بالذات أصرّت على إبقائه حازمًا.

ـ هل ترغبن في فنجان قهوة؟

(كما في الأيّام الغابرة... فنجان قهوة... تعالي خالة أميليا، فنجان قهوتك في انتظارك. اجلسي هنا، اقتربي، بوجه قاسٍ كالحجر وقلب من شمع. اشربي فنجان القهوة وغدًا تعيدين الحسابات، وتعدّلين موازنة الدار، وتلغين نفقات، تلغين حتّى فنجان القهوة هذا، فنجان القهوة السخيف الذي لا جدوى منه).

واستؤنفت السهرة، هذه المرّة أكثر خفوتًا وأكثر سكوتًا. امرأتان متقدّمتان في العمر وأخريان تديران ظهريهما لسنّ الشباب. مع ماضٍ يتذكّرنه، وحاضر يعشنه، ومستقبل يخشينه.

تسلّل النعاس إلى الصالة مع اقتراب منتصف الليل، وتثاءبت أفواه. اقترحت كانديدا (هذا الاقتراح الذي يصدر دائمًا عنها):

ـ ما رأيكن في أن نذهب للنوم؟

نهضن يرافقهن صوت سحب الكراسي تحتهن. وكالعادة، بقيت أدريانا وحدها في انتظار أن تنام الأخريات. ثمّ أخذت ما كانت تخيطه ودخلت غرفة النوم. كانت أختها تقرأ رواية. سحبت من حقيبتها مجموعة مفاتيح وفتحت أحد أدراج الخزانة، وبمفتاح آخر أصغر حجمًا فتحت علبة أخذت منها دفترًا سميكًا. نظرت إيساورا من وراء كتابها وابتسمت:

ـ ما زلت تكتبين يومياتك! يومًا ما سأقرأ ما تدوّنين في هذا الدفتر.

أجابتها أختها بعصبية:

ـ لا يحقّ لك.

ـ ما بك؟ لا داعي للغضب...

ـ أحيانًا أشعر برغبة في إطلاعك عليه بنفسي، فقط كي لا تمضي حياتك وأنت تتحدّثين عن الشيء نفسه.

ـ هل هذا يزعجك؟

ـ لا، ولكن يمكنك أن تسكتي. أعتقد أنّه من غير اللائق أن يلوك المرء باستمرار الأقاويل والتأويلات. أم أنّه لا يحقّ لي أن أحتفظ بما يخصّني؟

من وراء عدستَي النظّارة السميكتين، كانت عينا أدريانا تلمعان من الغيظ، وكانت تواجه ابتسامة شقيقتها الساخرة وهي تضمّ الدفتر إلى صدرها. قالت إيساورا:

ـ تابعي. تابعي الكتابة. سيأتي يوم تعطينني الدفتر بكامله كي أقرأه.

أجابت أدريانا باقتضاب:

ـ إذًا ستنتظرين طويلاً.

وغادرت الغرفة. اتّخذت إيساورا وضعًا أكثر راحة تحت الأغطية، ووضعت الكتاب في زاوية مناسبة أكثر لقراءتها ونسيت أمر شقيقتها. هذه الأخيرة، وبعدما اجتازت غرفة النوم الغارقة في الظلام حيث تنام أمّها وخالتها، دخلت الحمّام وأقفلت الباب على نفسها. فقط هناك، بمعزل عن فضول العائلة وفي أمان منه، بحكم طبيعة المكان، كانت تشعر بما يكفي من الثقة للبدء بنقل مشاعر نهارها سطورًا تكتبها في دفترها. لقد شرعت في كتابة يوميّاتها قليلاً بعد بداية وظيفتها الحالية، وملأت إلى الآن عشرات الصفحات. نفضت ريشتها وانطلقت:

الأربعاء ٥٢/٣/١٩، الثانية عشرة إلّا خمس دقائق ليلاً. الخالة أميليا عدائية الطبع اليوم. أكره ما يحدّثني به الآخرون عن قلّة ما أكسبه من عملي. يجرحونني. كدت أجيبها بأنّني أجني أكثر منها. ولحسن الحظّ أنّي استدركت الأمر ولم أفتح فمي. خالتي أميليا، المسكينة... تقول أمّي إنّها تشقّ نفسها وهي تقوم بالحسابات. أصدّق. فهذا عملي أيضًا. اليوم استمعنا إلى السمفونية الثالثة من بتهوفن. قالت أمّي إنّها كانت حلوة، وأنا قلت إنّها رائعة الجمال فوافقتني خالتي أميليا. أحبّ خالتي. أحبّ أمّي. أحبّ إيساورا. لكن ما لا يعرفنه هن أنّي لم أكن أفكّر في السمفونية أو في بتهوفن، أقصد لم أكن أفكّر في ذلك وحده... فكّرت فيهما... حتّى فكّرت في قناع بتهوفن ورغبتي في امتلاكه... لكنّي أيضًا كنت أفكّر فيه هو. أنا مسرورة اليوم. كان كلامه لطيفًا. وعندما ناولني الفواتير لأتحقّق منها، لمس كتفي بيده اليمنى. أحببت ذلك كثيرًا! ارتجفت في داخلي وأحسست حتّى بأنّ أذنيّ تتلوّنان بالحمرة. كان عليّ أن أخفض رأسي كي لا يلاحظني أحد. لكن الأسوأ حصل بعد ذلك، عندما اعتقد أنّي لا أسمعه وراح يتحدّث إلى سارمنتو عن فتاة شقراء. لم أبكِ لأنّ ذلك سيؤلمني ولأنّي لا أريد أن أتعلّق به. هو تسلّى مع الفتاة لبضعة أشهر ثمّ تركها. يا إلهي! تراه سيفعل بي الشيء نفسه؟ من حظّي أنّه لا يعرف بإعجابي به، وإلّا فسيسخر منّي. أقتل نفسي لو فعل!

هنا توقّفت قليلاً تعضّ على طرف الريشة. كانت قد كتبت أنّها

مسرورة وهي الآن تلمح إلى قتل نفسها، وذلك لم يعجبها. فكّرت قليلاً وختمت بهذه العبارة:

ـ أحببت كثيرًا أنّه لمس كتفي بيده!...

هكذا أفضل. انتهى الكلام كما ينبغي له، على أمل ما، على فرحة صغيرة. هي لا تأبه كثيرًا إن أنقصت بعضًا من الحقيقة في يوميّتها، خصوصًا إذا ما أفضت بها أحداث النهار إلى الحزن والاستياء. أعادت قراءة ما كتبته وأغلقت الدفتر.

كانت قد جلبت معها من الغرفة قميص نوم أبيض، مغلقًا من دون ياقة، طويل الأكمام لأنّ الليالي لا تزال باردة. تعرّت بسرعة فانكشف جسمها، البعيد عن الأناقة، وتحرّر من قيود ملابس النهار، فتراخى وبدا أكثر ثقلاً وافتقارًا إلى التناسق. كانت الصدرية تضغط على ظهرها وعندما خلعتها، ظهر خطّ أحمر يلفّ جسمها كأثرٍ من جلدة سوط. لبست القميص، وبعدما أنهت تحضيراتها الليلية، رجعت إلى غرفة النوم.

إيساورا لا تزال ممسكة بالكتاب، تحني ذراعها الطليقة فوق رأسها بوضعية تُظهر الخطّ المسودّ تحت إبطها وطرف أحد ثدييها. كانت مأخوذة بالقراءة، ولم تحرّك ساكنًا عندما استلقت شقيقتها على سريرها وهمست:

ـ تأخّر الوقت، إيساورا. اتركي الكتاب من يدك.

فأجابت على عجل:

ـ سأنتهي. ليست مشكلتي إن كنت لا تحبّين القراءة.

رفعت أدريانا كتفيها، في حركة باتت خاصّة بها. أدارت ظهرها إلى أختها، وردّت ثنية اللحاف بطريقة تحجب الضوء عن عينيها وفي غضون لحظات استسلمت للنوم.

تابعت إيساورا القراءة. يجب أن تكمل الكتاب هذه الليلة لأنّ فترة استعارته تنتهي في اليوم التالي، وعندما وصلت إلى الخاتمة، كانت الساعة قد قاربت الواحدة. كانت عيناها تحرقانها ودماغها مضطربًا. وضعت كتابها على طاولة السرير المنخفضة وأطفأت النور. الأخت نائمة يُسمع لتنفّسها إيقاع غير منتظم يُزعجها نوعًا ما. أدريانا هي برأيها كائن من جليد، وكتابة مذكّراتها اليومية ليست سوى حركة طفولية لجعل الآخرين يعتقدون أنّها تحتفظ بأسرار في حياتها. يمسح الغرفة ضوء خافت يصل من أحد مصابيح الشارع، وفي العتمة يُسمع صوت دودة خشب تنخر في جوفه ما تيسّر لها، ومن الغرفة المجاورة تصل أصوات أفلتت خطأ: الخالة أميليا تتكلّم في منامها.

كلّ المبنى يغطّ في النوم. بعينين مفتوحتين على الليل، ويدين متشابكتين تحت رقبتها، سرحت إيساورا بأفكارها.

****

٤

همس أنسيلمو:

ـ لِم كلّ هذه الضجّة؟ تعرفان أنّكما قد توقظان الجيران.

كان يصعد الدرج متقدّمًا زوجته وابنته ويضيء الطريق بعود مشتعل من الثقاب. ولشدّة تركيزه على إسداء التوجيهات، شتّ انتباهه وأحرق أطراف أصابعه فأفلت منه صوت تأوّه دفع ماريا كلاوديا إلى كبت ضحكتها فوبّختها أمّها بصوت منخفض، بينما سحب الأب عودًا آخر.

ـ اسكتي، ما هذه التصرّفات؟

وصلوا إلى شقّتهم ودخلوها متدافعين، كاللصوص. جلست روزاليا في المطبخ على كرسيّ منخفض.

ـ كم أنا متعبة.

خلعت حذاءها وجواربها وأظهرت قدميها المتورّمتين:

ـ انظرا...

ردّ زوجها:

ـ لديك ارتفاع في نسبة الزلال في الدمّ، هذا ماتعانين منه.

ابتسمت ماريا كلاوديا وقالت:

ـ أبي! أنت لا تعرف كيف تخفّف عن الآخرين.

وأجابت الأم:

ـ إن كان أبوك يقول إنّ الزلال مرتفع عندي فلأنّها الحقيقة.

وافق أنسيلمو بحركة جادّة. ركّز نظره على قدمَي زوجته متفحّصًا وأراد أن يخلص إلى نتائج جديدة لتشخيصه.

ـ كما أقول لكِ...

عبست ماريا كلاوديا منزعجة.كان منظر قدمَي والدتها واحتمال المرض يرعبانها. في الواقع، كلّ ما هو قبيح يرعبها.

وهربًا من الحديث أكثر من الرغبة في العمل، أخذت من خزانة المطبخ ثلاثة فناجين وصبّت فيها الشاي. كانوا دومًا يتركون الترمس ممتلئًا لساعة الرجوع. هذه الدقائق الخمس المخصّصة لاستراحة قصيرة تمنحهم شعورًا مختلفًا، وكأنّها فجأةً تحملهم بعيدًا عن رداءة الحياة اليومية وترتقي بهم بضع درجات على سلّم الرفاهية الاقتصادية. يختفي المطبخ وتحلّ مكانه صالة دافئة مفروشة بالأثاث الثمين، مع لوحات تكسو الجدران وبيانو عند إحدى الزوايا. روزاليا تنسى مشكلة الزلال وماريا كلاوديا تتألّق بأحدث الأزياء. وحده أنسيلمو لا يتبدّل. هو الرجل نفسه: المميّز، طويل القامة، المتأنّق، مع انحناءة بسيطة في الظهر، الأصلع، والفخور بشاربيه الدقيقين،

وكالعادة بوجهه الجامد الخالي من التعبير، نتيجة سنوات من الجهد المركّز للسيطرة على المشاعر كضمان لفرض الاحترام.

لسوء الحظّ، لم يتعدَّ الأمر أكثر من خمس دقائق. بعد ذلك عادت قدما روزاليا الحافيتان لتحتلّا المشهد وكانت ماريا كلاوديا الأسرع في الذهاب للنوم.

في المطبخ، بدأ الزوجان حوارًا ثنائيًا ـ منفردًا كحوار أيّ اثنين مضى على زواجهما عشرون عامًا. مواضيع عادية، كلمات تُقال فقط رغبةً في الكلام، مجرّد توطئة للنوم الهادئ الذي تتّسم به سنّ الشيخوخة.

أخذت الأصوات تخفت شيئًا فشيئًا، إلى أن حلّ ذلك الصمت المترقّب الذي يسبق النوم، والذي استقرّ ليزداد بعد ذلك كثافة وحضورًا. وحدها ماريا كلاوديا بقيت مستيقظة. دائمًا تعاني من صعوبة في النوم. لقد أعجبها الفيلم، وفي صالة السينما، في وقت الاستراحة، كان هناك شابّ يراقبها، وعند خروج المشاهدين اقترب منها بما يكفي لتشعر بأنفاسه تلامس رقبتها. لكنّها لم تفهم لِمَ لم يلحق بها، ولماذا إذًا تكبّد عناء التحديق بها طوال الوقت. ثمّ نسيت أمر السينما لتتذكّر زيارتها شقّة السيّدة ليديا. كم هي جميلة السيّدة ليديا. «أجمل منّي بكثير...». أحسّت بالأسى لأنّها ليست مثل السيّدة ليديا. وفجأةً تذكّرت أنّها رأت سيّارة واقفة عند باب المبنى. ملأتها الإثارة فبعدت المسافة أكثر بينها وبين النوم. لا تعرف كم

الساعة، لكن الثانية فجرًا ليست بعيدة بحسب تقديرها. ما تعرفه، على غرار سكّان المبنى كافّة، أنّ زائر السيّدة ليديا الليلي يغادر حوالى الساعة الثانية. هكذا من أثر الفيلم، وذلك الشابّ، والزيارة المتأخّرة، تحسّ بالفضول يزدحم في داخلها، ولو أنّها تجد في هذا الفضول شيئًا ما غير لائق أو يستحقّ التوبيخ. انتظرت قليلاً، وما هي إلّا دقائق حتّى سمعت من الطابق السفلي صوت مزلاج يُرفع وباب يُفتح، وخليطًا من محادثة مبهمة وخطوات تنزل الدرج.

وكي لا توقظ والديها، انسحبت بكلّ حذر من سريرها، ومشت على رؤوس أصابعها لتقترب من النافذة وتشقّ الستار. دائمًا يترك سيّارته متوقّفة عند الرصيف المقابل. رأت كتلته الثقيلة تقطع الشارع وتتقدّم نحو المركبة وتدخلها.

دار المحرّك، وانطلقت السيّارة لتختفي بسرعة عن ناظرَي ماريا كلاوديا.

****

٥

اعتادت السيّدة كارمن على الاستمتاع بالفترة الصباحية من كلّ يوم بطريقة خاصّة بها جدًّا. ليست من النوع الذي يبقى في السرير حتّى ساعة الغداء، وهذا غير ممكن على أيّ حال لانشغالها بتحضير الطعام لزوجها والاهتمام بإنريكيتو، ولكن إيّاكم أن يحدّثها أحد عن الاغتسال أو تسريح شعرها قبل انتصاف النهار. كانت تهوى التجوال في أنحاء المنزل على مدى الصباح مبعثرة الهيئة، منسدلة الشعر، مهملة وكسولة. عادات يكرهها زوجها، تهزّ معاييره وتصدمها. وقد حاول عددًا لا يُحصى من المرّات إقناع زوجته بأن تصلح هندامها لكن الوقت كان كفيلاً بإقناعه بأنّه يضيّع وقته. وهكذا، على الرغم من أنّ مهنته كمندوب مبيعات لا تفرض عليه دوامًا محدّدًا، كان يهرب منذ الصباح الباكر فقط كي لا يتعكّر مزاجه لما بقي من النهار. ومن جهتها أيضًا، كانت كارمن تنزعج بشدّة إن هو أطال مكوثه في البيت بعد وجبة الفطور. ليس أنّها كانت تشعر باضطرارها إلى تغيير عاداتها المحبوبة بسبب وجود زوجها، لكن هذا الوجود كان يسلب منها متعة الصباح. والنتيجة أنّ النهار الذي يحصل فيه هذا الحدث كان، بالنسبة إلى الطرفين، نهارًا متعثّرًا.

هذا الصباح، وبينما هو يحضّر مجموعة نماذجه قبل الخروج، لاحظ إميليو فونسيكا أنّ هناك من عبث بها وقلّب في الأسعار والنماذج. العقود بعيدة عن أماكنها، متشابكة مع الأساور والبروشات، وكلّ هذا في تداخل مع السلاسل والنظّارات الشمسية. وما من مسؤول عن هذا الفعل غير ابنه. فكّر في استجوابه ثمّ تراجع عن الفكرة، فالأمر لا يستحقّ العناء. إذا ما أنكر الولد، سيظهر عليه الشكّ في أنّه يكذب، وهذا سيّئ. وإذا ما اعترف، سيكون عليه أن يضربه أو يعاقبه، وذلك أسوأ. هذا ناهيك بتدخُّل زوجته الفوري، ككتلة من الغضب، كي ينتهي المشهد على جلبة وخناقة لا جدوى منهما، هو الذي سئم الخناقات بل امتلأ منها سأمًا. لذلك وضع حقيبته فوق مائدة غرفة الطعام، ومن دونِ أيّ كلمة، حاول إعادة الترتيب إلى كلّ تلك الفوضى.

إميليو فونسيكا رجل ضئيل القامة وجافّ. لا ليس نحيلاً، بل هو جافّ، وفي سنّ تجاوزت الثلاثين بقليل. أشقر، ولكن اشقراره شاحبٌ وبعيدٌ عن القلب، خفيف الشعر وعالي الجبين. كان في ما مضى يفخر بجبهته العريضة هذه، ولكن مع توسّعها شيئًا فشيئًا بحكم صلعه المبتدئ، يفضّل الآن لو أنّها كانت أضيق. مع ذلك تعلّم كيف يتعامل مع ما لا يمكن تفاديه. وما لا يمكن تفاديه لا يتوقّف على انحسار الشعر، بل هناك أيضًا اضطراره إلى ترتيب حقيبته بصفة مستمرّة. تعلّم كيف يحافظ على هدوئه خلال ثماني سنوات من زواجه الفاشل. واليوم، يشقّ فمه الجامد منحرفًا بعض الشيء لينمّ

عن شعور تغلبه المرارة، ويتقوّس قليلاً عندما يبتسم فيمنحه هيئة ساخرة لا يدحضها كلامه.

إنريكيتو، مضطربًا مثل المذنب الذي يعود إلى مسرح جريمته، اقترب ليتفرّج على ما يفعله أبوه. كان ملائكي الوجه، أشقر الشعر مثل والده، ولكن بلون محبّب أكثر. لم يلتفت إميليو إليه فالأب والابن ليسا متحابّين، لا قليلاً ولا كثيرًا: فقط كانا يريان بعضهما كلّ يوم.

وصل من الممرّ صوت طرقات حذاء كارمن على الأرضية، طرقات عدائية، أكثر فصاحة من أيّ خطاب. أطلّت كارمن من باب غرفة الطعام لتحسب الوقت المتبقّي لزوجها قبل خروجه. يبدو لها أنّه تأخّر أكثر ممّا ينبغي. وفي هذه اللحظة رنّ جرس الشقّة. عقدت كارمن حاجبيها، فهي لا تنتظر أحدًا في هذه الساعة. بائعا الخبز والحليب مرّا وذهبا، والوقت مبكر على ساعي البريد. رنّ الجرس مرّة ثانية. صرخت قائلة إنّها آتية واتّجهت إلى الباب، وابنها في أعقابها. ظهرت لها امرأة تلتفّ بشال وتحمل صحيفة بيدها. نظرت كارمن إليها بارتياب وسألتها بالإسبانية:

ـ ماذا تريدين؟

ـ هناك لحظات يستحيل فيها أن تتكلّم البرتغالية ولو كان الثمن حياتها...

ابتسمت المرأة ابتسامة متواضعة:

ـ صباح الخير سيّدتي. قرأت أنّ لديكم غرفة للإيجار. هل هذا صحيح؟ هل أستطيع رؤيتها؟

وقفت كارمن فاغرة الفم:

ـ غرفة للإيجار؟ لاتوجد هنا غرفة للإيجار.

ـ لكن يوجد في الصحيفة إعلان...

ـ إعلان؟ دعيني أَرَ لو سمحت.

كان صوتها يرتجف من انفعال تكادُ لا تستطيع السيطرة عليه. أخذت نفسًا عميقًا لتهدأ. أشارت المرأة إلى الإعلان بإصبع متورّمة مع احمرار حول الظفر. إنّه موجود فعلاً، في العمود الذي يقول «غرف للإيجار». لا شكّ في ذلك. وكلّ شيء صحيح: اسم الشارع، رقم المبنى، والإشارة الواضحة إلى الشقّة اليسرى من طابق الميزانين. أعادت إليها الصحيفة وقالت بخشونة:

ـ لا توجد هنا غرف للإيجار.

ـ لكن الصحيفة...

ـ كما قلت لك. ثمّ إنّ الإعلان يطلب رجلاً.

ـ الغرف نادرة لدرجة أنّي...

ـ آسفة.

أغلقت الباب في وجه المرأة وعادت إلى حيث زوجها. من دونِ أن تعبر الباب سألته:

ـ هل وضعت إعلانًا في الصحيفة؟

إميليو فونسيكا نظر إليها وفي كلّ من يديه عقد من حبّات الخرز الملوّنة. رفع أحد حاجبيه وأجاب بنبرة ساخرة:

ـ إعلان؟ فقط إذا كان يجلب لي الزبائن...

ـ إعلان «غرفة للإيجار».

ـ غرفة؟ لا يا عزيزتي. تزوّجت بك ضمن نظام الممتلكات المشتركة، ولا أجرؤ على عرض غرفة بلا استشارتك.

ـ دعك من المزاح. (بالإسبانية)

ـ أنا لا أمزح. من يجرؤ على المزاح معك أنت؟

كارمن لم تردّ. دائمًا يضعها نقص معرفتها باللغة البرتغالية في موقع الضعف في هذا النوع من المواجهات. وفضّلت أن توضّح، بصوت هادئ يحمل تلميحات خفيّة:

ـ كانت امرأة. تحمل الصحيفة التي ظهر فيها الإعلان. يشير إلى شقّتنا، من دون أيّ مجال للشكّ (بالإسبانية). وبما أنّها كانت امرأة، تصوّرت أنّك ربّما أنت وضعت الإعلان... أغلق إميليو فونسيكا الحقيبة بضربة واحدة. مع أنّ جملة زوجته لم تكن بما يكفي من الوضوح، وصله القصد منها. رفع عينيه الفاتحتي اللون والباردتين، وأجاب:

ـ ولو أنّ الإعلان يطلب رجلاً، هل عليّ أن أتصوّر أنّك أنت التي وضعته؟

شعرت كارمن بالمهانة واحمرّ وجهها من الغضب:

ـ بلا تهذيب!

إنريكيتو، الذي كان يستمع إلى النقاش من دون أن يرفّ له جفن، نظر إلى الأب ليرى كيف سيكون ردّ فعله. لكن إميليو رفع كتفيه على مهل وقال بصوت خافت:

ـ أنت على حقّ. أعتذر.

أجابت كارمن وقد تملّكها الغضب، دائمًا بعبارات تختلط فيها الأسبانية بالبرتغالية:

ـ لا أريد أن تعتذر. عندما تعتذر منّي فهذا يعني أنّك تهزأ بي. أفضّل أن تضربني!

ـ لم أضربك في حياتي.

ـ إيّاك أن تجرؤ.

ـ اطمئنّي. أنت أطول قامة منّي وأقوى بنية. دعيني أحتفظ بوهم أنّي أنتمي إلى الجنس القويّ. فهو آخر وهم تبقّى لي. ولننهِ هذا الجدل.

ـ وإذا كنت أريد أن أجادل؟

ـ تُخطئين. أنا دائمًا أحتفظ بالكلمة الأخيرة. أعتمر قبّعتي وأخرج. وأعود فقط قبيل الليل. أو لا أعود...

ذهبت كارمن إلى المطبخ باحثة عن محفظتها. أعطت ابنها نقودًا ليشتري بها حبّات حلوى. أراد إنريكيتو المقاومة، لكن إغراء الحلوى كان أقوى من فضوله وشجاعته التي يحتاج إليها ليقف إلى صفّ أمّه. عندما أغلق الباب رجعت كارمن إلى غرفة الطعام. كان زوجها يجلس عند طرف الطاولة ويشعل سيجارته. دخلت المرأة مباشرة في قلب النقاش:

ـ لا تعود، هه؟ كنت أعرف. لديك مكان تبيت فيه، صح؟، كنت أعرف، كنت أشكّ في ذلك. أنت العاقل البريء، طبعًا... وأنا هنا، المخدوعة، الخادمة، أعمل طوال النهار كي أستقبل سعادتك عندما تريد العودة إلى المنزل.

إميليو ابتسم، فتأجّجت المرأة غضبًا.

ـ لا تضحك.

ـ أضحك، طبعًا أضحك. ولِمَ لا أضحك؟ كلّ ما تقولينه باطل. المدينة ممتلئة بالفنادق. من يمنعني من أن أنزل في أحدها؟

ـ أنا.

ـأنت؟ دعك من السخافات! لديّ عمل كثير. لنكفّ عن هذه التفاهات.

ـ إميليو!

وقفت كارمن في دربه، مرتجفة. بقامة أطول منه بقليل، ووجه

مربّع تتقدّمه عظمة الذقن، وخطّين ينطلقان من طرفي أنفها إلى زاويتي فمها، ما زالت تلوح عليها آثار جمال شبه متلاشية، ذكرى بشرة مضيئة ودافئة، وعينين بنظرة صافية مخملية، ذكرى شباب مضى. للحظات فقط، رآها إميليو كما كانت منذ ثماني سنوات. وكانت ومضة قصيرة فقط تبدّدت بعدها الذكرى.

ـ إميليو، أنت تخونني!

ـ هذا افتراء غبيّ. لا أخونك. ويمكنني أن أقسم لك، إذا شئت... لكن، لو كنت أخونك، فبِمَ يهمّك ذلك؟ لقد فات الأوان على هذا النوع من الأسى. مضى على زواجنا ثماني سنوات، كم يوماً منها يمكن اعتبارها سعيدةً؟ شهر العسل ربّما، وربّما هو أيضًا لا... لقد أخطأنا كارمن. عبثنا مع الحياة وها نحن ندفع ثمن عبثنا. لا يصحّ العبث مع الحياة، ألا تعتقدين؟ ما رأيك بهذا كارمن؟

جلست المرأة، باكية. وأفلتت من بين دموعها (وبالإسبانية) العبارة:

ـ يا لي من بائسة.

أخذ إميليو حقيبته. بيده الطليقة راح يلامس رأس زوجته بحنان منسيّ، وهمس:

ـ نحن الاثنين بائسان. كلّ بطريقته، لكن كوني أكيدة من أنّ كلينا بائسان. وعلى الأرجح أنّني أنا الأكثر بؤسًا. أنت على الأقلّ لديك إنريكي...

هنا قسا صوته الحنون فجأةً لينتهي إلى

ـ ربّما لن أعود للغداء، ولكنّي سأعود وقت العشاء، على الأكيد. إلى اللقاء.

في الممرّ، التفت وأضاف، بقليل من السخرية في صوته:

ـ وبالنسبة إلى موضوع الإعلان، لا بدّ من أنّ هناك خطأ. لا شكّ في أنّه للشقّة المقابلة.

فتح الباب وخرج، والحقيبة معلّقة بيده اليمنى، وكتفه من الجهة نفسها ينخفض قليلاً من أثر الثقل. ركّز قبّعته بحركة آلية، قبّعة رمادية اللون، عريضة الحافة، تزيد من صغر وجهه وجسمه وترمي ظلّاً فوق عينيه الشاحبتين والبعيدتين.

****

٦

أغلقت السيّدة كارمن الباب في وجه مرشّحين آخرين لاستئجار الغرفة قبل أن تقرّر التحقّق من صحّة فكرة زوجها. وعندما قامت بذلك، محتدّة بسبب مشادّتها الزوجية الطازجة واشتباكها مع طارقي بابها المتعاقبين، لم تكن لطيفة مع سيلفستري. لكن هذا الأخير، الذي فهم في نهاية المطاف سبب بقاء غرفته شاغرة في انتظار طالبيها والذي لم يكن وجد له تفسيرًا، أجابها بنبرة مثل نبرتها، واضطرت كارمن إلى الانسحاب عندما تراءى لها، من خلف السكّاف، الحجم المستدير لزوجته ماريانا التي اقتربت، مشمّرة عن ساعديها ويداها على خاصرتيها. ولتفادي خناقات أكبر حجمًا، اقترح سيلفستري تعليق ورقة على باب كارمن ترسل كلّ مهتمّ بالغرفة إلى شقّته. لكنّ كارمن رفضت بذريعة أنّها لا تريد أوراقًا معلّقة على بابها، فردّ السكّاف بأنّ عليها إذًا أن تتحمّل تبعات ذلك وعناء إجابة كلّ من يظهر عند هذا الباب، فانتهت إلى القبول على مضض، وخطّ سيلفستري الإعلان على نصف ورقة من تلك المخصّصة لكتابة الرسائل. لم تقبل كارمن أن يعلّق هو الورقة، بل ثبّتتهابالصمغ هي بنفسها. وأسوأ ما حصل أنّها اضطرّت في ما بعد مرّة أخرى، لأنّ المهتمّ بالغرفة لا يجيد القراءة، إلى مواجهة السؤال نفسه ورؤية الصحيفة ذاتها. والحقيقة

أنّ ما يدور في خلدها عن سيلفستري وزوجته بعيد جدًّا عمّا قالته، ولكن أيضًا ما قالته مجحف جدًّا في حقّهما. ولو أنّ سيلفستري إنسان يهوى المشاكل، لكان الأمر أدّى إلى مواجهة دولية تشعلها ماريانا التي كانت تغلي من الغضب. لكنّ زوجها خفّف من حدّة أمر كاد يفضي إلى معركة تاريخية لا تُحمد عقباها.

عاد السكّاف إلى نافذته يقلّب المسألة باحثًا في ما يمكن أن يكون سبب الالتباس. هو يعرف جيّدًا أنّ خطّ يده ليس مثاليًا لكن بالنسبة إلى سكّاف، لا بأس به مقارنةً بخطوط بعض الأطبّاء. ورأى التفسير الوحيد في أنّ الخطأ لا بدّ من أنّه صادر عن الصحيفة، وليس عنه هو. فقد كان متأكّدًا وكأنّه يرى بأمّ عينيه القسيمة التي ملأها وحدّد فيها الشقّة اليمنى من طابق الميزانين. بينما هو يفكّر، بقي واعيًا لعمله من دون أن ينسى أن يلقي بنظره، بين حين وحين، إلى الشارع علّه يحزر مَن بين القلّة من المارّة سيأتي ساعيًا لاستئجار الغرفة. وتكمن فائدة هذه المراقبة للوجوه في أنّه حين تأتي لحظة مقابلته السائل سيكون في حوزته مسبقًا جواب حاضر. ذلك أنّ سيلفستري يعتبر نفسه موهوبًا في الفراسة، وقد اعتاد في شبابه أن ينظر إلى الآخرين مواجهة كي يعرف من هم وكيف يفكّرون، في فترة كانت الثقة في الآخرين أو عدمها مسألة حياة أو موت. هذه الأفكار، التي أرجعته إلى الوراء، إلى درب قديمة كان قد سلكها في حياته، ألهَته عن مراقبته.

كانت الصبيحة تولّي ورائحة إعداد الغداء تملأ البيت، ولم

يظهر بعد أحد يناسبه. ثمّ ندم سيلفستري على كونه متطلّبًا إلى هذا الحدّ. فهو أنفق المال على الإعلان، وأساء علاقته بجارته في الشقّة المقابلة (والتي لم تكن لحسن حظّه من زبائنه)، وهو الآن ما زال من دون مستأجر.

كان قد بدأ بتثبيت بعض الدعم في فردة حذاء عال عندما شاهد على الرصيف المقابل رجلاً يسير كأنّه لا يلوي على شيء، رافعًا رأسه وناظرًا إلى الأبنية ووجوه الناس الذين يمرّ بهم. لم يكن يحمل الصحيفة بيده ولا حتّى، على ما يظهر، في جيبه. وقف مقابل نافذة سيلفستري مراقبًا المبنى، طبقة طبقة. ادّعى السكّاف أنّه غارق في عمله وأخذ يرمقه بنظرات مختلسة. كان متوسّط القامة، أسمر، ولا يبدو أنّه تجاوز الثلاثين من عمره. لباسه يدلّ بوضوح على أنّه من الأشخاص الذين يقفون في منتصف المسافة الفاصلة بين الفقر والوسط من العيش. بدلته تفتقر إلى الاعتناء، ولو أنّها من قماش ذي نوعية جيّدة، والبنطلون، الذي اضمحلّت ثنيته، ليس من النوع الذي قد يعجب ماريانا. كان يلبس أيضًا كنزة عالية الياقة ويغطّي رأسه بقبّعة. يبدو راضيًا عن نتيجة بحثه، لكنّه لم يتقدّم ولو خطوة.

بدأ سيلفستري يقلق. فهو ما عاد لديه ما يُخيفه، ولم يحصل ما يسبّب ارتباكه منذ...، منذ الزمن الذي ابتعد فيه عن تلك الشؤون ليستسلم للشيخوخة، لكنّ جمود الرجل وفي الوقت عينه إرادته الظاهرة تحيّرانه. زوجته في مطبخها تدندن أغنية بصوتها الذي، على نشازه، يُبهج سيلفستري ويعطيه دومًا سببًا لممازحتها. تجاوز

الوقت طاقة السكّاف على الانتظار فرفع رأسه ونظر إلى وجه الغريب مباشرةً. وهذا الأخير بدوره، وبعدما انتهى من فحص المبنى، وصل بعينيه في هذه اللحظة إلى نافذة سيلفستري. بقي الاثنان يراقبان بعضهما، السكّاف بشيء من الارتياب، والآخر بتعبير لا يخلو من فضول. وحده الشارع يفصل بينهما، وبين نظرتيهما المتبادلتين الثابتتين. ثمّ أشاح سيلفستري بوجهه كي لا يبدو كأنّه يستفزّه، فابتسم الرجل وعبر إلى الجانب الآخر بخطى بطيئة ولكن حازمة. أرهف سيلفستري سمعه للجرس الذي لم يرنّ بالسرعة التي توقّعها. لا بدّ من أنّ الرجل يقرأ الورقة الملصقة على الباب المقابل. وأخيرًا أتى الرنين ليقطع أغنية ماريانا وسط خروجها المريع عن الإيقاع. خفق قلب سيلفستري بدقّات متسارعة لدرجة أنّه راح يمازح نفسه كيف تخيّل للحظة أنّ الرجل قدم لأسباب لا علاقة لها باستئجار الغرفة بل تعود إلى أحداث بعيدة في الزمن الذي... أنّت الأرضية الخشبية تحت وطأة سير ماريانا التي اقتربت منه. فتح سيلفستري الستار:

ـ ما الأمر؟

ـ هناك شخص يسأل عن إعلان إيجار الغرفة. هل ستذهب إليه؟

ما أحسّ به سيلفستري لم يكن بالتحديد شعورًا بالارتياح. وتنهّده القصير كان تنهّد المتأسّف، كما لو أنّ وهمًا جميلاً وأخيرًا مضى إلى غير رجعة، ولم يبقَ لديه أيّ شكّ من أنّه كان مجرّد افتراض من قِبله...

وصل إلى الباب يخالجه ذلك الشعور بأنّه كهل مضت أيّامه.

كانت زوجته قد أخبرت السائل عن قيمة الإيجار ولكن بما أنّه طلب رؤية الغرفة، تدخّل سيلفستري. عندما رأى الشابّ السكّاف ابتسم، ولكن بابتسامة خفيفة كادت لا تتعدّى العينين. وكانت عيناه صغيرتين لامعتين، شديدتي السواد، تحت حاجبين كثيفين ومرسومين بإتقان. السحنة سمراء، تمامًا كما بدت لسيلفستري، محدّدة الملامح، بعيدة عن النعومة، ولكن أيضًا من دون قساوة مفرطة. سحنة ذكورية، تكاد لا تخفّف من خشونتها خطوط الفم المنحنية بشيء من الأنوثة. والنتيجة أنّ الوجه الذي يراه سيلفستري أمامه، قد راق له.

ـ قيل لي إنّك تريد أن ترى الغرفة.

ـ إذا لم يكن هناك من إزعاج. السعر أعجبني، ويبقى أن أعرف ما إذا كانت الغرفة ستعجبني كذلك.

ـ تفضّل بالدخول.

الفتى (كما اعتبره سيلفستري) دخل من دون شكليات. ألقى نظرة على الجدران والأرضية، فحبست ماريانا النشيطة أنفاسها، خائفة كالعادة من أن يكشف الآخرون لها أيّ تقصير في النظافة. للغرفة نافذة تطلّ على الحديقة الصغيرة التي يزرعها سيلفستري في أوقات فراغه ببعض شتلات الملفوف الهزيلة ويضع فيها قفصًا للطيور. نظر الشابّ حوله ودار نحو سيلفستري.

ـ الغرفة تعجبني، لكنّي لا أستطيع الإقامة فيها.

استغرب السكّاف وسأله:

ـ لماذا؟ هل تجد الثمن مرتفعًا؟

ـ لا، الثمن يعجبني كما قلت لك. المشكلة أنّها ليست مفروشة.

ـ آه، تريدها مفروشة؟

نظر سيلفستري ناحية زوجته، فأعطته إشارة فهمها وأضاف:

ـ لن نختلف على أمر كهذا. كان فيها سرير وخزانة بياضات بأدراج أخرجناهما لأنّنا لم نكن نفكّر في تأجيرها مفروشة... هل تفهمني؟ لا يمكن أن نعرف بأيّ طريقة سيستخدم الآخرون أغراضنا. ولكن إذا كان الأمر يهمّك...

ـ هل يبقى السعر كما هو؟

حكّ سيلفستري رأسه، وأضاف الشابّ:

ـ لا أريد أن أضايقكما.

عبارة غلبت سيلفستري. من يعرفه جيّدًا يقول بالضبط هذه الكلمات ليحصل على الغرفة مفروشة بذات القيمة الأساسية. قرّر سيلفستري:

ـ طبعًا. مع أثاث أو من دونه، السعر ذاته. ففي الواقع، هذا يناسبنا. لسنا في حاجة إلى مكان مزدحم بالأثاث. أليس كذلك، ماريانا؟

لو كان بإمكانماريانا أن تقول ما يجول في خاطرها، لقالت بالتحديد: «لا، ليس كذلك». لكنّها لم تقل أيّ كلمة. اكتفت برفع كتفيها لامبالية، مجعّدة أنفها دليل عدم القبول. لاحظ الشابّ هذه الحركة وصوّب الوضع:

ـ لا، لن أقبل. سأدفع لكما خمسين إسكودو إضافية. ما رأيكما؟

ماريانا طارت فرحًا وبدأت تُعجب بالشابّ هي أيضًا. أمّا سيلفستري فكان يقفز من البهجة في داخله، ليس بسبب الصفقة، بل لتأكّده من أنّ إحساسه لم يخطئ، فمن الواضح الآن أنّ هذا النزيل شخص مستقيم. أطلّ الشابّ من النافذة ومرّر نظره على الحديقة، وابتسم عندما رأى الفراخ تنقر الأرض غير المزروعة وقال:

ـ أنتما لا تعرفان من أنا... اسمي أبيل... أبيل نوغيرا. يمكنكما الاستعلام عنّي في مكان عملي وفي المنزل الذي سأتركه الآن. إليكما العنوانين.

وضع ورقة على حافة النافذة، كتَب عليها العنوانين وأعطاها لسيلفستري الذي ردّ بحركة ليرفضها لثقته بأنّه لن يقوم بأيّ خطوة «للاستقصاء عنه»، ثمّ عاد وقبل الورقة. وسط الغرفة العارية الآن من الأثاث، راح الشابّ يراقب العجوزين والعجوزان يراقبان الشابّ. بدا الثلاثة راضين مسرورين، وفي أعينهم تلك الابتسامة التي تفوق قيمةً كلّ الابتسامات التي تفترّ عنها الشفاه.

ـ إذًا سأتسلَّم الغرفة اليوم، وسأجلب متاعي هذا المساء. وبالمناسبة، أرجو أن أتفاهم معكِ، سيّدتي، بالنسبة إلى الملابس...

أجابته ماريانا:

ـ أنا أيضًا أرجو ذلك: لا داعي لأن تغسلها خارج المنزل.

ـ طبعًا. هل تحتاجان إلى مساعدة في حمل قطع الأثاث؟

أجاب سيلفستري بسرعة:

ـ لا سيّدي، لا داعي لذلك. فهي ليست ثقيلة...

ـ إلى اللقاء إذًا.

رافقاه إلى الباب وهما يبتسمان. عند سفرة الدرج، تذكّر الشابّ أنّه سيكون في حاجة إلى مفتاح. وعده سيلفستري بأنّه سيطلب صنع نسخة له في عصر النهار ذاته فانسحب. عاد العجوزان إلى الغرفة وفي يد سيلفستري الورقة التي دوّن فيها المستأجر العنوانين. وضعها في جيبه وسأل زوجته:

ـ ماذا؟ ما رأيك بالرجل؟

ـ بالنسبة إليّ، أراه جيّدًا. ولكن بصراحة في مجال الأعمال والصفقات، يمكن اعتبارك ملاكًا...

ابتسم سيلفستري:

ـ على كلّ حال، ما كنّا لنصبح أكثر فقرًا...

ـ بلى، ولكن كسبنا الآن خمسين إسكودو أكثر. لا أعرف كم سآخذ منه مقابل غسل الثياب...

لم يعرها السكّاف سمعًا. كان قد ارتسم على وجهه تعبير انزعاج جعل أنفه يبدو أكثر عرضًا، فسألته زوجته:

ـ ما بك؟

ـ ما بي؟ وكأنّنا نائمان. قال لنا الشابّ اسمه وبقينا ساكتين، حان وقت الغداء ولم ندعُه... هذا ما بي.

لم ترَ ماريانا مبرّرًا لكلّ هذا الاستياء. فالأسماء، يمكن دومًا إيجاد الوقت لقولها، وبالنسبة إلى الطعام، لا شكّ في أنّ سيلفستري يعرف أنّها أعدّته لشخصين، وربّما لن يكفي لثالث. أدرك سيلفستري من خلال وجه زوجته أنّها لا تجد للموضوع أيّ أهمّية وحوّل مسار الحديث:

ـ هيّا بنا ننقل الأثاث.

ـ هيّا. تأخّرنا عن موعد الأكل على كلّ حال.

وبسرعة تمّ النقل. السرير، والطاولة المنخفضة التي بجانبه، وخزانة البياضات، وكرسيّ. وضعت ماريانا أغطية سرير نظيفة وأضافت لمستها الأخيرة. ثمّ وقفت هي وزوجها عند أحد جوانب الغرفة ينظران. ليسا راضيين، فالغرفة لا تزال تبدو فارغة. ليس أنّ المساحة الفارغة كبيرة بل على العكس، فبين السرير وخزانة البياضات

مثلاً، كان يجب المرور جانبيًا. ولكن كان يُلحظ غياب شيء ما يضفي البهجة على المكان ويجعله لائقًا بمعيشة كائن حيّ. خرجت ماريانا وعادت بعد لحظات تحمل غطاء من القماش وإناء للأزهار. أثنى سيلفستري على اختيارها بحركة من رأسه. هكذا انتعش الأثاث الذي كان يبدو منذ قليل محبِطًا من الملل. بعد ذلك جاءت سجّادة غطّت الأرضية بجانب السرير وخفّفت من عرائها. وبلمسة من هنا، وأخرى من هناك، اتّخذت الغرفة هيئة تدلّ على رفاهية متواضعة. نظر سيلفستري وماريانا إلى بعضهما مبتسمين، كمن يهنّئ نفسه على نجاح عمل قام به.

ثمّ انصرفا لتناول الغداء.

****

٧

كلّ يوم بعد الظهر، وفور انتهائها من الغداء، تحبّ ليديا أن تتمدّد للقيلولة. كانت تشكو من ميل إلى النحول وتحمي نفسها منه باستراحة كلّ يوم لمدّة ساعتين. تستلقي فوق سريرها العريض والوثير بعدما ترخي حزام ثوبها وتترك يديها تقعان بجانبي جسمها، وتسمّر نظرتها في السقف، فتسترخي عضلاتها وأعصابها بينما تستسلم هي لمرور الوقت استسلامًا تامًّا. هكذا كان ينشأ في رأس ليديا وفي غرفة النوم نوع من الفراغ، كأنّما الوقت ينزلق بخلسة وبالخفوت الحريري للرمل وهو ينساب في القالب الزجاجي في ساعة رملية.

عينا ليديا نصف المغلقتين تتبعان إيقاع تفكيرها المبهم والمتردّد. ينقطع الخيط، فتحلّ ظلال متداخلة مثل الغيوم، ثمّ يظهر جليًّا واضحًا ليعود ويغيب بين الغلال، ثمّ يظهر في مكان أبعد. تمامًا مثل طير جريح يسحب نفسه، يُرفرف، يظهر ثمّ يختفي تباعًا إلى أن يخرّ ميتًا. عندها تضعف قدرة ليديا على حمل تفكيرها إلى ما فوق السحب التي تغلّفه، وتدخل في النوم.

استيقظت على صوت جرس الباب يرنّ بقوّة. جلست في سريرها مشوّشة والنوم ما زال يغشوْ عينيها. عاد رنين الجرس حاضرًا مرّة

ثانية. نهضت، انتعلت خفّيها، واتّجهت إلى الممرّ. نظرت بحذر من خلال ثقب الباب، فبدا عليها الانزعاج قبل أن تفتح:

ـ ادخلي أمّي.

ـ مساء الخير، ليديا. هل يمكنني الدخول؟

ـ ادخلي، قلت لك.

ودخلت الأمّ، بينما سارت ليديا نحو المطبخ.

ـ يبدو أنّني أزعجتك.

ـ أنا؟ من أين لك هذه الفكرة؟ اجلسي.

وجلست الأمّ على كرسيّ منخفض. كانت امرأة فوق الستّين بقليل، رمادية الشعر تغطّيه بمنديل أسود شفّاف، بسواد الفستان الذي ترتديه. بشرة وجهها طريّة، مع قليل جدًّا من التجاعيد، بلون العاج الداكن بعض الشيء، والعينان منطفئتان قلّما تتحرّكان، تكادان لا يحميهما جفنان عاريان تقريبًا من الرموش. أمّا الحاجبان فرقيقان صغيران، مرسومان على شكل زاوية حادّة. الوجه كلّه بشكل عامّ يملك ذلك التعبير البارد، البعيد، والغائب. قالت ليديا:

ـ لم أتوقّع زيارتك اليوم.

فأجابت الأمّ:

ـ أعرف. ليس يوم زيارتي، ولا آتي عادةً في هذه الساعة. هل أنت بخير؟

ـ كالعادة. وأنت؟

ـ لا بأس. لولا الروماتيزم...

ـ حاولت ليديا إبداء اهتمام بروماتيزم والدتها، ولكن من دون أيّ قناعة صادقة، فآثرت أن تُغيّر الموضوع:

ـ كنت نائمة عندما قرع الجرس. روّعتني بهذه المفاجأة وأيقظتني.

لاحظت الأمّ:

ـ تبدين متعبة.

ـ صحيح؟ من النوم ولا شكّ.

ـ ربّما. النوم أكثر من اللزوم أيضًا يضرّ.

لم تكن أيّ منهما مخدوعة بهذا التبادل الفاتر للعادي من الكلام. ليديا تعرف أمّها تمام المعرفة، ولذا تعرف أيضًا أنّها لم تأتِ فقط لتطمئنّ إلى حالتها وما إذا كانت متعبة أم لا. والأمّ بدورها، إن كانت بدأت المحادثة بهذه الطريقة فببساطة كي لا تدخل فورًا في الموضوع الذي جاءت من أجله. لكن ليديا تذكّرت، في هذه اللحظة بالذات، أنّها الرابعة تقريبًا وأنّ عليها أن تخرج.

ـ إذًا، ما الذي أتى بك اليوم؟

بدأت الأمّ تملّس ثنية في تنّورة فستانها. كانت تصبّ على هذا العمل تركيزًا كاملاً لدرجة بدت كأنّها لم تسمع السؤال. ولكن تمتمت أخيرًا قائلة:

ـ أنا في حاجة إلى نقود.

ليديا لم تُفاجأ، فهذا ما كانت تتوقّعه. غير أنّها لم تستطع منع نفسها من الاستياء.

ـ كلّ شهر القصّة ذاتها قبل...

ـ تعرفين كم أنّ الحياة صعبة...

ـ أعرف، ولكن أظنّ أنّ عليك أن تقتصدي في مصروفك.

ـ أقتصد، ولكنّ المال يختفي بسرعة.

تكلّمت الأمّ بصوت هادئ، كالواثق من أنّه سينال ما يرغب فيه. نظرت ليديا إليها ورأتها تحافظ على نظرتها المنخفضة، المثبّتة على ثنية التنّورة، مرافقة حركة اليد. وبمجرّد أن خرجت ليديا من المطبخ، تركت الأمّ التنّورة ورفعت رأسها. ظهر على محيّاها سرور من يبحث ويعثر. وعندما سمعت خطوات ابنتها تقترب، عادت واتّخذت جلستها المتواضعة.

ـ خذي.

قالتها ليديا وهي تناولها ورقتَي المئة إسكودو.

ـ لا يسعني إعطاؤك أكثر الآن.

أخذت الأمّ المال ووضعته في محفظة نقودها التي عادت ودفنتها في عمق حقيبة يدها:

ـ شكرًا. ستخرجين الآن؟

ـ سأذهب إلى السوق في لا بايشا. سئمت البقاء في المنزل. سأتناول وجبة خفيفة وأجول على واجهات المحلّات.

لم تفارقها عينا الأم الصغيرتان، العنيدتان والثابتتان مثل عيني حيوان على طاولة التشريح.

ـ في رأيي المتواضع، يجب ألّا تخرجي كثيرًا.

ـ لا أخرج كثيرًا. أخرج عندما يحلو لي.

ـ أجل. لكنّ ذلك ربّما لن يعجب السيّد مورايس.

ليديا، التي اهتزّ جانبا أنفها في هذه اللحظة، أخذت وقتها لتتلفّظ بالعبارة الساخرة التالية:

ـ يبدو أنّك تهتمّين أكثر منّي بما يفكّر السيّد مورايس...

ـ لصالحك. الآن بما أنّك في هذا الوضع...

ـ أشكر اهتمامك، لكنّي اليوم أكبر سنًّا من أن أحتاج إلى نصائح. أخرج متى أريد وأفعل ما أريد. وما أفعله من جيّد أو عاطل شأني وحدي.

ـ أقول ذلك لأنّي أمّك وأريد راحتك...

ارتسمت على وجه ليديا ابتسامة مفاجئة تنمّ عن انزعاج:

ـ راحتي!... فقط منذ ثلاث سنوات تهمّك راحتي. لم تسألي عنها قبل ذلك.

أجابت الأم، التي عادت تركّز من جديد على ثنية التّنورة:

ـ ما تقولينه غير منصف. أنا لطالما اهتممت بك.

ـ صحيح، لكنّك الآن تهتمّين أكثر بكثير... اطمئنّي، ليس في نيّتي أن أعود إلى حياتي السابقة، ذلك الزمن عندما لم يكن أمري يهمّك... أقصد، عندما لم يكن يهمّك مثل الآن...

نهضت الأم. حصلت على ما جاءت طامحة إليه والحوار بدأ يأخذ منحى غير محبّب: من الأفضل الانسحاب. ليديا أيضًا لم تستبقِها. كانت تشعر بالغضب في داخلها بسبب هذا الاستغلال الصغير الذي ترى نفسها ضحيّته ولأنّ أمّها تسمح لنفسها بإسداء النصائح لها. كم تودّ لو تأخذها إلى زاوية تحشرها فيها ولا تدعها تخرج قبل أن تقول لها كلّ ما يجول في خاطرها. كلّ هذه الإجراءات الاحتياطية، هذا الحذر، هذا الخوف من إثارة غضب السيّد موررايس ليست ناجمة عن حبّ لابنتها، بل حرصًا على الحصّة الشهرية التي تتسلّمها منها.

عادت ليديا إلى غرفتها لتبدّل ثيابها وتضع بعض الماكياج وشفتاها لا تزالان ترتجفان من الغضب. ستخرج لتناول وجبة خفيفة، والتجوّل في سوق لا بايشا كما قالت لأمّها. مجرّد جولة بريئة. لكن، بعد الملاحظات والتلميحات التي سمعتها منها لتوّها، تكاد ترغب في العودة إلى القيام بما قامت به طوال سنوات: أن تلتقي رجلاً ما في غرفة ما مفروشة من غرف المدينة، غرفة مؤقّتة، مستعارة، مع سرير يفرض وجوده، وجدار حاجب يفرض وجوده،

وقطع أثاث فارغة الأدراج تفرض وجودها. بينما هي تضع الكريم على بشرتها، تذكّرت ما كان يحدث في تلك الأمسيات والليالي في تلك الغرف. والذكرى أحزنتها. لا، هي لا تريد العودة إلى ذلك الزمن. ليس لأنّ باولينو مورايس يعجبها، فإذا ما خانته لن تشعر ولو بنتفة من تأنيب الضمير، غير أنّها لا تفعل ذلك بالتحديد كي لا تخسر الأمان الذي تعيش فيه. هي تعرف الرجال معرفة حقّة تحميها من الوقوع في حبّهم. لكن العودة... لا. كم مرّة خرجت بحثًا عن إشباع كان ينتهي دائمًا بالارتداد عليها؟ بالطبع كانت تذهب سعيًا وراء النقود، وتحصل عليها عن جدارة واستحقاق... لكن كم من المرّات أيضًا كانت ترجع قلقة، مُهانة، مُستخدمة. كم من المرّات تكرّر ذلك: الغرفة، الرجل، وعدم الاكتفاء. لاحقًا قد يختلف الرجل وتتغيّر الغرفة، لكن الخيبة لا تختفي، أو حتّى تنقص.

كان المجلّد الثاني من كتاب «المايا» ملقًى على الغطاء الرخامي لمنضدة الزينة، بين القوارير وعلب المساحيق، بجانب صورة باولينو مورايس. تصفّحته، بحثت عن المقطع الذي كانت أشارت إليه بأحمر الشفاه وأعادت قراءته. ثمّ تركت الكتاب يقع على مهل، وبعينين مثبّتتين على المرآة رأت على وجهها تعبيرًا ناجمًا عن خوف يذكّرها بوجه أمّها، واستعادت في ثوان قطار حياتها: ضوء وظلمة، مهزلة ومأساة، خيبة وإنجاز.

كانت الساعة الرابعة والنصف تقريبًا عندما انتهت من تحضير نفسها. بدت جميلة. فهيَ صاحبة ذوق رفيع في ارتدائها الملابس،

من دون أيّ مبالغة. اليوم ارتدت طقمًا رماديّ اللون، يفصّل قوامها ويمنحه استدارات متناوبة تُظهر أبهى مفاتنه. قوام يُجبر الرجال المارّين بها في الشارع على الالتفات إلى الخلف. كأنّما تجتمع لمسات مصمّمة أزياء إلى غريزة امرأة تستثمر جسدها وسيلةً في طلب رزقها.

نزلت على الدرج بخطوتها الخفيفة التي تحسن تفادي طرق الحذاء. هناك بعض الأشخاص أمام باب سيلفستري. مصراعا الباب مفتوحان والسكّاف يساعد شابًّا على إدخال حقيبة كبيرة، بينما تقف ماريانا على سفرة الدرج وتحمل حقيبة أخرى أصغر حجمًا. رمت ليديا التحية:

ـ مساء الخير.

ردّت ماريانا بتحية مثلها، وتوقّف سيلفستري واستدار ليردّ المجاملة. مرّت نظرة ليديا من فوقه وحطّت بفضول على وجه الشابّ. أبيل أيضًا نظر إليها. لاحظ السكّاف تعبير التساؤل البادي على وجه المستأجر الجديد، فابتسم وغمزه بعينه. وفهم أبيل.

****

٨

أخذ ضوء النهار ينحسر تدريجيًا والليل يتقدّم عليه رويدًا رويدًا في سكون المغيب الذي تعجز عن إلغائه كلّ الأصوات التي تضجّ بها المدينة. في هذه اللحظة ظهرت أدريانا عند زاوية الشارع، مسرعة الخطى. دخلت جريًا إلى المبنى وصعدت الدرجات اثنتين اثنتين بالرغم من اعتراض القلب على الجهد المفروض عليه. قرعت جرس الباب بإلحاح، تنتظر بفارغ الصبر من يفتحه لها بلا تأخير. ظهرت أمّها فحيّتها بسرعة وسألتها وهي تقبّلها:

ـ مساء الخير أمّي. هل ابتدأ البرنامج؟

ـ لا تستعجلي يا ابنتي، اهدئي... لم يبدأ بعد. ألهذا تأتين راكضة؟

ـ كنت أخشى أن يفوتني. أخّروني في المكتب بعدد من الرسائل العاجلة.

دخلتا المطبخ. كانت المصابيح مضاءة وجهاز الراديو يرسل صوتًا منخفضًا. إيساورا عند الشرفة الناتئة تخيط قميصًا وردية اللون، منحنية. قبّلت أدريانا أختها وخالتها ثمّ جلست تستريح.

ـ أوف! أنا منهكة. إيساورا ما هذه البشاعة التي تعملين عليها؟...

رفعت الأخت رأسها وابتسمت قائلة:

ـ الرجل الذي سيلبس هذه القميص هو الحمق بعينه. أتصوّره واقفًا في المحلّ وعيناه مأخوذتان بها، مستعدًّا لسلخ جلده للحصول عليها.

وضحكت الاثنتان، فعلّقت كانديدا:

ـ ألن تكفّا عن التحدّث بالسوء عن الناس؟

لكن أميليا انحازت إلى ابنتي شقيقتها:

ـ وهل ترين أنّ من سيلبس هذه القميص يتمتّع بذوق رفيع؟

فتجرّأت كانديدا وأجابت:

ـ كلّ إنسان يلبس كما يريد.

ـ حقًّا؟ هذا ليس رأيًا.

قاطعتهما إيساورا:

ـ شش! اسمعا.

كان المذيع يعلن عن مقطوعة موسيقية. قالت أدريانا:

ـ لا لم يبدأ برنامجنا بعد.

إلى جانب الراديو رزمة يدلّ شكلها وحجمها على أنّها كتاب. حملته أدريانا وسألت:

ـ ما هذا؟ كتاب آخر؟

أجابتها أختها:

ـ نعم.

ـ ما عنوانه؟

ـ «المتديّنة».

ـ ومن المؤلّف؟

ـ ديدرو. لم يسبق أن قرأت له.

وضعت أدريانا الكتاب وفي غضون لحظات نسيت أمره. لا تهوى الكتب كثيرًا، ولكن مثل أختها وأمّها وخالتها، تعشق الموسيقى. لا، لا تستسيغ الكتب. فكي يروي قصّة واحدة، يملأ الكاتب صفحات وصفحات وبالنهاية، كلّ القصص تمكن روايتها ببضع كلمات. لا تفهم كيف تهدر إيساورا ساعات في القراءة، مسترسلةً أحيانًا حتّى الفجر. أمّا الموسيقى، فبلى. وهي مستعدّة لقضاء ليلة كاملة في الاستماع إليها، دونما كلل أو ملل. ومن حسن الحظّ أنّ كلّهن يحببنها، وإلّا كانت المشادّات لا تنتهي. قالت إيساورا:

ـ الآن. إرفعي الصوت.

أدارت أدريانا مفتاح مستوى الصوت، فامتلأ المنزل بصوت المذيع:

ـ ... «رقصة الأموات» من هونيغر. النصّ لبول كلوديل، والأداء لجان-لوي بارّو. نتمنّى لكم وقتًا ممتعًا.

كان يصل من المطبخ صفير غلّاية القهوة، ولذا قامت الخالة أميليا وسحبتها عن النار. الآن، يُسمع من الراديو صوت احتكاك رأس إبرة الحاكي بالأسطوانة، يليه صوت جان-لوي بارّو الدرامي والنابض والذي تخفق له قلوب النساء الأربع. لم تأتِ أيّ منهن بأيّ حركة. كنّ ينظرن إلى العين المضيئة في واجهة جهاز الراديو كما لو أنّ الموسيقى تصدر منها. في الاستراحة بين الأسطوانتين الأولى والثانية، يصل إلى مسامعهن من الغرفة المجاورة صليل معدني لمعزوفة راجتايم تصمّ الآذان. رفعت الخالة أميليا حاجبيها وتنهّدت كانديدا، بينما راحت إيساورا ترشّ الماء فوق القميص بقوّة وعصبية، وأدريانا تصوّب في اتّجاه الجدار الفاصل نظرات قاتلة.

قالت أميليا:

- ارفعي صوت الراديو.

فرفعته أدريانا وانطلق صوت جان-لوي بارّو من جديد بالفرنسية قائلًا: «أنا موجود!»، وعادت الموسيقى تغزل في مقطوعة «السهل الواسع» بينما تتسلّل نوتات الراجتايم الوقحة وتختلط مهرطِقة برقصة «سور لو بون دافنيون» أو «على جسر أفنيون».

- أعلى!

بألف صرخة يأس وأسى، يعلن كورال الأموات ألمه وندمه، ومعزوفة «غضب الرب» تختنق بهجة كلارنيت صاخبة وتقضي عليها.

لقد نجح هونيغر، محلّقًا بأصوات كوراله العالية، في قهر الراجتايم الذي لا يُعرف لمؤلّفه أصل أو فصل. ربّما تعبت ماريا كلاوديا من برنامج الرقص المفضّل لديها، أو ربّما من غضب الربّ الذي تحمله الموسيقى. وهكذا عندما تلاشت في الهواء آخر نوتات «رقصة الأموات»، انصرفت أميليا إلى تحضير العشاء، معترضة. وابتعدت كانديدا من درب العاصفة، ولكن أيضًا مستنكرة مثل شقيقتها. بينما الأختان الشابّتان، اللتان ما زالتا تحت تأثير الموسيقى، تغليان من الغضب. أخيرًا قالت أميليا:

ـ غير معقول. لا أريد أن أبدو أفضل من الآخرين، ولكن لا أصدّق أنّ هناك من تعجبه موسيقى المجانين هذه.

فردّت أدريانا:

ـ نعم هناك من تعجبه، خالتي.

ـ هذا ما ألاحظه. نعم.

وأضافت إيساورا:

ـ لم يتلقّ كلّ الناس مثل تربيتنا وتعليمنا.

أعرف هذا أيضًا. لكن أرى أنّ على الجميع أن يعرف كيف يميّز بين القمح والزؤان. الرديء من جهة، والحسن من الجهة الثانية.

كانديدا، التي كانت تسحب بعض الأطباق من الخزانة، تجرّأت من جديد وتدخّلت:

ـ لا أعتقد. الجيّد والرديء، الباطل والصالح يختلطان أحيانًا. لا يوجد ما هو جيّد تمامًا أو سيّئ تمامًا.

وأضافت بخجل:

ـ هذا ما أظنّه.

التفتت أميليا إلى أختها، وفي قبضتها الملعقة التي تحرّك بها الحساء:

ـ ماذا تقولين؟ تعنين أنّك لست متأكّدة من أنّ ما يعجبك جيّد؟

ـ لا، لست متأكّدة.

ـ إذًا، لِمَ يعجبك؟

ـ يعجبني لأنّي أحسبه جيّدًا، لكنّي لا أعرف ما إذا كان جيّدًا.

لوت أميليا شفتيها كما تفعل عندما لا يروق لها أمر ما. فميل أختها إلى عدم امتلاك رأي ثابت في أيّ شيء، وفي تحليل كلّ شيء، يعاكس حسّها العملي، هي التي اعتادت تقسيم الحياة عموديًا. سكتت كانديدا، نادمة لكونها تكلّمت كلّ هذا القدر. فهذا الأسلوب الدقيق في التفكير ليس من طبعها، بل هي اكتسبته من حياتها المشتركة مع زوجها، وما كان يبدو لديه متشابكًا كان يُختصر بالبساطة التي لديها أصلاً. أصرّت أميليا على متابعة الحديث:

ـ كلّ هذا جميل جدًّا، لكن من يعرف ماذا يحبّ وماذا يملك قد يخاطر بفقدان ما يملكه ويخطئ في ما يمكن أن يحبّ.

ابتسمت كانديدا وقالت:

- كم هذا معقّد!

ولاحظت أختها أنّ الغموض بالفعل يلفّ ما قالته، ممّا أثار عصبيتها أكثر:

- ليس معقّدًا، إنّها الحقيقة. هناك موسيقى جيّدة وموسيقى رديئة، أشخاص صالحون وأشخاص سيّئون. هناك الخير وهناك الشرّ. ولكلّ منّا حرّية الاختيار...

- ليت الأمور كانت هكذا. أحيانًا كثيرة لا نعرف كيف نختار، لم نتعلّم حسن الاختيار...

- تقصدين أنّ هناك أشخاصًا يمكنهم فقط اختيار ما هو سيّئ لأنّهم غير أسوياء بطبيعتهم.

قلّصت كانديدا ملامح وجهها وكأنّها أحسّت بألم ما، ثمّ أجابت:

- لا تعرفين ماذا تقولين. هذا يحصل فقط عندما يكون الأشخاص مرضى في أرواحهم. لكنّنا نتكلّم عن الأشخاص الذين، كما تقولين، يمكنهم الاختيار... المصاب بالمرض الذي أعنيه لا يمكنه الاختيار!

- تتعمّدين تشويشي، لكنّك لن تنجحي. لنتكلّم إذًا عن الأصحّاء. أنا أستطيع الاختيار بين الجيّد والسيّئ، بين الموسيقى الجميلة والموسيقى الرديئة.

رفعت كانديدا يديها، كما لو أنّها تهمّ ببدء خطاب طويل، ثمّ عادت وأخفضتهما، مع ابتسامة متعبة:

ـ لندع الموسيقى جانبًا، ففي طرحها كمثل في الحالة التي نناقشها إعاقة لنا. أخبريني إن كنت تعرفين، ما هو الجيّد وما هو الرديء؟ أين ينتهي الأوّل وأين يبدأ الآخر؟

ـ هذا ما لا أعرفه، ولا هو سؤال يُطرح. ما أعرفه أنّي أميّز بين الجيّد والرديء أينما وجدا...

ـ وفقًا لما تظنّين بهما...

ـ لا يمكن أن يكون غير ذلك. فأنا لا أطلق أحكامي وفقًا لأفكار الآخرين.

ـ هنا بالذات تكمن الصعوبة. أنت تنسين أنّ للآخرين أيضًا أفكارهم حول الصالح والسيّئ. وأنّها ربّما بذات القدر من صحّة افكارك...

ـ لو كان كلّ الناس يُفكّرون مثلك، ما كان لأحد أن يفهم أحدًا. هناك قواعد معروفة، قوانين ضرورية.

ـ ومن يسنّها؟ ومتى؟ ولأيّ غاية؟

سكتت للحظة موجزة، لتسأل بابتسامة تحمل من البراءة قدر ما تحمل من المكر:

ـ ثمّ هل تفكّرين أَنْتِ بحسب أفكارك، أم بحسب القوانين التي لم تضعيها؟...

ـ لم يكن لدى أميليا تجاه هذه الأسئلة من جواب...

فأدارت ظهرها لأختها وخلصت إلى النتيجة التالية:

ـ على كلّ حال. كان يجب أن أعرف أنّ التحدّث إليك مستحيل.

ابتسمت إيساورا وأدريانا. هذا النقاش لم يكن سوى واحد من عشرات مثله سبق أن سمعتاها. فاليوم وقد باتت اهتمامات العجوزين المسكينتين تقتصر على الأعمال المنزلية، يتّضح كيف تبتعدان عن زمن ولّى كانت لهما فيه اهتمامات أوسع أفقًا وأكثر حيوية سمحت بها الرفاهية الاقتصادية الغابرة. اليوم، ها هما مجعّدتان ومنحنيتان، مبيضّتا الشعر ومرتجفتان، مع بقايا نار عتيقة تطلق آخر شراراتها، في محاولة يائسة لمقاومة الرماد المتراكم. تبادلت إيساورا وأدريانا النظرات وابتسمتا يحدوهما الشعور بأنّهما شابّتان، تنبضان بحيوية ورنين كالذي يصدر عن وتر بيانو مشدود، مقارنةً بهذه الشيخوخة المتدحرجة أمامهما.

ثمّ حان وقت العشاء وتجمّعت النساء الأربع حول المائدة. بخار يتصاعد من الأطباق الساخنة، بياض غطاء الطاولة، واحتفالية تقديم الطعام. وهناك أيضًا، أو بالأحرى هنالك، في ما يتعدّى أصواتًا سطحية لا يمكن تجنّبها، صمت عميق كثيف الحضور، صمت فضولي يأتي من ماضٍ يتأمّلنا، وصمت ساخر يأتي من مستقبل ينتظرنا.

****

٩

ـ لا تبدو بخير، أنسيلمو...

وحاول أنسيلمو الابتسام بجهد يستحقّ أن يحقّق نتيجة أفضل. لكنّ همّه كان أكبر من أن يخضع لمجموعة العضلات التي تتحكّم بالابتسام. وما ظهر كان حركة في الوجه تكاد تكون مضحكة لولا الأسى الواضح الكامن في عينيه، اللتين لا يصلهما تأثير عضلات الفم.

كانا في المطبخ، يتناولان الغداء، وعلى المائدة ساعة أنسيلمو مشيرة إلى الوقت الذي تبقّى له. صوت دقّاتها يختلط بالصمت الذي ساد بعد عبارة روزاليا الحاسمة.

وروزاليا أكملت مصرّة:

ـ ما بك؟

ـ لا شيء... ترّهات.

عند وجوده وحيدًا برفقة زوجته، ليس من طبع أنسيلمو إطالة الكلام والحوار، ولا يخطر له أنّها قد تشكو من ذلك. وروزاليا، والحقّ يقال، ليست من النوع الشاكي.

ـ لكن، أيّ نوع من الترّهات؟

ـ لم يقبلوا قسيمتي. وما زال أمامنا عشرة أيّام حتّى نهاية الشهر.

ـ هذا صحيح، كما أنّي بتّ بلا نقود. اليوم في البقّالة ادّعيت أنّي نسيت محفظتي في المنزل.

أفلت أنسيلمو الشوكة من يده بقوّة، مصفوعًا بعبارة زوجته الأخيرة، وقال:

ـ أودّ أن أعرف أين يذهب المال.

ـ أرجو ألّا تعتقد أنّي أهدره. تعلّمتُ من أمّي كيف أكون اقتصادية ولا أظنّ أنّ هناك امرأة مثلي.

ـ لا أحد يقول إنّك لست اقتصادية، لكن مع شخصين في البيت يعملان ويكسبان، يجب أن يكون مستوى معيشتنا أفضل.

ـ ما تكسبه كلاوديا يكاد لا يكفيها. وأنا لا أريد أن تخرج ابنتي كيفما كان.

ـ أنت لا تقولين هذا الكلام في وجودها...

ـ إذا طمّعتها بإطرائي، فلن يمكنني ضبطها... أم تحسب أنّي لا أعرف ماذا أفعل؟

مضغ أنسيلمو لقمته الأخيرة وعدّل في جلسته، ثمّ أرخى حزامه ومدّ رجليه. كان يدخل عبر زجاج الشرفة الناتئة ضوء النهار الممطر والرمادي فيرمي الظلال في جوانب المطبخ. روزاليا تابعت

غداءها خافضة رأسها. وعند طرف الطاولة، كان طبق ماريا كلاوديا ينتظرها.

عينا أنسيلمو اللتان تنظران إلى البعيد، وعلامات الجدّ الظاهرة على وجهه، تدلّ دلالة دامغة على أنّه سارح في تأمّلات عميقة. تحت صلعته اللامعة، المائلة قليلاً إلى الاحمرار بسبب بدء عملية الهضم، كان دماغه يُقلّب الأفكار، وكلّها تصبّ في هدف واحد: إيجاد ما يكفي من المال حتّى نهاية الشهر. لكن دماغ أنسيلمو لم يُنتج أيّ فكرة ذات قيمة، ربّما بالتحديد بسبب عمليّة الهضم التي تبلّده.

أحسّت به روزاليا وشجّعته:

ـ لا تفكّر كثيرًا. كلّ مشكلة ولها حلّها.

بالرغم من أنّ زوجها لم يكن ينتظر سوى هذه الجملة كي يكفّ عن التفكير في مسألة لا تريحه، فقد نظر إليها ساخطًا:

ـ إذا أنا لم أفكر، فمن يفكّر؟

ـ لكن هذا القلق يضرّ بك، الآن مباشرةً بعد الطعام...

أدّى أنسيلمو حركة مسرحية يائسة وهزّ رأسه، كمن لا يستطيع الهرب من قدر محتوم.

ـ النساء لا يحلمن حتّى بما يدور في رأس الرجل...

إذا ما فسحت روزاليا له المجال الآن، سيدخل أنسيلمو في

مناجاة لا تنتهي يتناول خلالها، مرّة جديدة، أفكاره الجازمة المتعلّقة بوضع الإنسان على العموم وموظّفي الشركات بشكل خاصّ. هذه الأفكار ليست كثيرة، ولكنّها كما ذكرنا جازمة. والفكرة الأهمّ بينها، التي تتبعها بقيّة الأفكار وتُعتبر نتائج تدور في فلكها، تكمن في القناعة العميقة أنّ المال هو (بلسان أنسيلمو نفسه) جوهر الحياة، وللحصول عليه، تصلح كلّ الطرق، شرط ألّا تؤثّر في الكرامة. وهذا الشرط الأخير ضروري جدًّا بالنسبة إليه، ذلك أنّ أنسيلمو من دعاة الكرامة البشرية وقلّما يدافع عنها أحد مثله.

لم تفسح له المجال روزاليا، ليس لأنّها تعبت من النظريات التي يستعرضها زوجها مرّة بعد مرّة، بل لأنّها كانت مأخوذة تمامًا في تأمّل وجهه، هذا الوجه الذي يبدو، عند النظر إليه جانبيًا، كما الآن، أشبه بوجه امبراطور روماني. وهكذا عوّضت هذه النظرة المبجّلة وشعور أنسيلمو بأنّ هناك من يتأمّله عن الانزعاج البسيط من حرمانه فرصة الكلام والإفاضة فيه. أنسيلمو يعتبر زوجته أقلّ قدرًا منه، لكن إعجابها المفرط فيه يرضي غروره، لدرجة أنّه لا يرى حاجة إلى الكلام والاستمتاع ببرهنة تفوّقه عليها عندما يرى كلّ هذا التقدير وهذه الخشية في عيني روزاليا.

سُمع صوت تنهيدة: إنّها روزاليا التي وصلت إلى النشوة، معلنةً نهاية تلك الوصلة الشاعرية. ومن أعلى قمم التبجيل، نزلت إلى الواقع المسطّح:

ـ هل تعرف من أجّر غرفة في شقّته؟

بالنسبةِ إلى أنسيلمو، لم تنتهِ الكوميديا بعد. تظاهر بأنّه تفاجأ وسأل:

ـ ماذا؟

ـ سألتك إن كنت تعرف من أجّر غرفة في شقّته.

بابتسامة طيّبة كالتي كانت للكائنات الأولمبية عندما تقبل بالنزول من عليائها إلى السهول المنبسطة، سأل أنسيلمو:

ـ من؟

ـ صانع الأحذية. هذه المرّة لرجل شابّ. من دون أيّ لياقة في مظهره...

ـ الطيور على أشكالها تقع.

كانت هذه من تعابير أنسيلمو المفضّلة. وتعني بالنسبة إليه أنّه لا يستغرب أن يعيش رجل نكرة مع نكرة مثله. لكنّ العبارة التي تلتها توشي بقلق يتأكّله:

ـ فكرة الإيجار تناسبنا نحن أيضًا.

ـ لو كان هناك مجال في بيتنا...

وبما أنّه لم يكن هناك مجال في بيتهم، أمكن أنسيلمو القول:

ـ ولا أنا أريد الاختلاط. كان هذا مجرّد كلام...

عندئذٍ قرع الجرس ثلاث مرّات سريعة، وقال أنسيلمو:

ـ إنّها الصغيرة.

نظر إلى ساعته وأضاف:

ـ تصل متأخّرة.

عندما دخلت ماريا كلاوديا، خرجت ظلال العتمة من المطبخ. هذه الشابّة تذكّر بغلافات المجلّات الأميركية، تلك التي تُظهر للعالم أنّه في الولايات المتّحدة لا يجري تصوير أيّ شخص أو شيء من دون تحضيره مسبقًا تزيينًا وتلوينًا. ولماريا كلاوديا ذوق لا يُخطئ في انتقاء الألوان التي تُبرز شبابها. من دون أيّ تردّد، كما لو بالفطرة، هي تختار بين لونين متقاربين ذاك الذي يليق بها أكثر، والنتيجة دائمًا مُبهرة. ولا يسع أنسيلمو وروزاليا الباهتين، ذوي البشرة الشاحبة والملابس الداكنة، إلّا أن يتأثّرا بهذا الجمال النضر. وإذا ما كان يستحيل عليهما مجاراته، فهما على الأقلّ يقدّرانه.

مثل ممثّلة صاعدة بارعة، وقفت الفتاة أمام والديها ما يكفي من الوقت لإغرائهما برقّتها. تعرف أنّها وصلت متأخّرة ولا تريد أن تقدّم التفسيرات. وفي اللحظة المناسبة والمدروسة، كرجت برشاقة عصفور نحو أبيها وقبّلته على وجنته، ثمّ استدارت ورمت نفسها بين ذراعي أمّها. كلّ شيء بدا طبيعيًا لدرجة ألّا أَحَدَ من هؤلاء الثلاثة، الممثّلين في هذه الكوميديا التي هي حياتهم، أبدى أيّ استغراب.

قالت ماريا كلاوديا:

ـ أشعر بجوع رهيب.

ومن دون انتظار، ركضت إلى غرفتها وهي لا تزال ترتدي معطفها الواقي من المطر. قالت أمّها:

ـ انزعيه هنا كلاوديا، ستبلّلين كلّ شيء في الداخل.

لم تنل جوابًا، ولم تكن في انتظاره. اعتادت أن تعترض وتبدي الملاحظات من دون أمل ولو ضئيلاً في أن تشهد تنفيذها، ولكن مجرّد طرحها يمنحها وهم الاحتفاظ بسلطة الامّ، المتوافقة مع مبادئ نشأت عليها. وهمٌ لم تفلح كلّ الإخفاقات المتلاحقة لهذه السلطة في قهره.

فجأةً أظلم وجه أنسيلمو الذي كانت تبدو عليه أمارات الرضا منذ قليل، ولاح في عينيه بريق ارتياب، فقال لزوجته بلهجة آمرة:

ـ اذهبي وانظري ماذا تفعل في الداخل.

وذهبت روزاليا لتفاجئ ابنتها وهي تسترق النظر عبر النافذة، من بين الستائر. عندما أحسّت ماريا كلاوديا باقتراب خطوات والدتها، استدارت نحوها بابتسامة نصف جريئة، نصف خائفة.

ـ ماذا تفعلين عند النافذة؟ لِمَ لا تغيّرين ثيابك؟

اقتربت روزاليا من النافذة وفتحتها، ورأت عند الرصيف المقابل في الشارع شابًّا يقف تحت المطر، فأغلقتها بضربة قويّة وهمّت

بتوبيخ ابنتها، لكنّها اصطدمت بعينيها المثبّتتين عليها بنظرة باردة تشوبها ضغينة مُربكة. ارتعبت. وعلى مهل، راحت ماريا كلاوديا تخلع معطفها الذي كانت بعض قطراته بلّلت السجّادة.

ـ ألم أقل لك أن تخلعي معطفك؟ انظري إلى الأرض كيف أصبحت!

بان أنسيلمو عند الباب، وعندما شعرت الأمّ بوجوده المطمْئن، أفضت بما كان يربض فوق صدرها:

ـ كانت ابنتك تطلّ من النافذة لتنظر إلى فتى يقف في الجهة المقابلة. لاشكّ في أنّهما أتيا معًا، ولهذا وصلت متأخّرة...

حدّق أنسيلمو في أرض الغرفة كأنّه يقيسها، كأنّه على خشبة المسرح ينتظر توجيهات المخرج، ثمّ اقترب من ابنته. كانت كلاوديا خافضة العينين، لكن لا شيء لديها يشي بارتباك، وهدوء وجهها يكاد يكون مستفِزًّا. ركّز أنسيلمو تركيزًا شديدًا على ما يريد قوله ليُصلح ما فسد من تصرّف ابنته وبدأ كلامه:

ـ لكن كلاوديا تعرفين تمامًا أنّ هذا ليس جيّدًا، وأنّ فتاة شابّة مثلك لا يجوز أن يُرافقها أيّ كان. ماذا سيقول الجيران؟ هؤلاء الناس متى تكلّموا ينفثون سمًّا. كما أنّ هذه الصداقات لا تؤدّي إلى نتيجة حميدة، بل على العكس من ذلك. من هو هذا الشابّ؟

بقيت ماريا كلاوديا صامتة. كانت روزاليا تغلي من الغضب، ولكن بقيت أيضًا ساكتة، بينما كان أنسيلمو متأكّدًا من أنّ للحركة

التي سيقوم بها بالغ الأثر الدرامي. هكذا وضع يده على كتف ابنته وتابع بصوت تعتريه رجفة بسيطة:

- تعرفين أنّنا نحبّك كثيرًا ونريد أن نراك دائمًا بخير. يجب ألّا تعيري اهتمامك لأيّ شابّ من الشارع. هذا ليس مستقبلاً، أتفهمين؟

قرّرت الفتاة أن ترفع عينيها. قامت بحركة لتحرّر كتفها وأجابت:

- نعم أبي.

دخلت البهجة قلب أنسيلمو، فطريقته في التربية لا تخطئ.

وبهذه القناعة خرج من البيت، محميًّا من المطر الذي يزداد غزارة ومستعدًّا للمضيّ في الرهان. فهذا ما يفرضه الوضع الاقتصادي المتعثّر للأسرة، وتستحقّه مزاياه الاستثنائية كزوج وكوالد.

****

من فوق مخدّتين يستند إليهما، مشوّشًا بعض الشيء لاستيقاظه فقط منذ لحظات، كان كايتانو كونيا ينتظر الغداء. ينتشر من جانبه ضوء مصباح طاولة السرير الجانبية ليدع نصف وجهه في الظلّ ويُبرز احمرار النصف المضاء. كان يغرس سيجارة عند طرف فمه ويغمض العين التي تعلو هذا الطرف نصف إغماضة بسبب الدخان المتصاعد، ما يجعله يبدو مثل شرّير من أحد أفلام رجال العصابات نسيه كاتب السيناريو في غرفة داخلية في منزل معتم. وإلى يمينه، فوق خزانة منخفضة، توجد صورة طفلة تبتسم له، شاخصةً إليه بنظرة محدّقة وجامدة تُثير الارتباك.

لم يكن كايتانو ينظر إلى الصورة، وعندما ابتسم، لم يكن بتأثير من بسمة ابنته، ولا كانت بسمة الصورة تشبه بسمته. الأولى صادقة فرحة، وإذا كانت مُربكة ففقط بجمودها. أمّا ابتسامة كايتانو فكانت زَلِقة، تُثير بعض الاشمئزاز. حيث يبتسم الكبار بهذا الأسلوب يجب أن تغيب بسمات الأطفال، بما فيها تلك التي في الصور.

عند خروجه من الصحيفة، عاش كايتانو واحدة من مغامراته، مغامرة دنيئة، أي من نوع المغامرات المفضّل لديه. لهذا كان يبتسم،

فهو يحسن تقدير الأمور التي تعجبه، ويستمتع بها مرّتين: الأولى عندما يعيشها، والثانية عندما يتذكّرها.

في هذه اللحظة، وصلت جوستينا لتُفسد عليه المتعة الثانية. دخلت حاملةً صينية الغداء ووضعتها عند ركبتَي زوجها. نظر إليها كايتانو بعينه الواقعة تحت الضوء نظرة عنيفة بسخريتها. وبما أنّ ضوء المصباح كان أحمر اللون، بدت المريضة المسكينة وكأنّها مدمّاة، ما كان يزيد من رعونة نظرته وخبثها.

لم تشعر المرأة بالنظرة، ولا هي شعرت بجمود ابتسامة ابنتها، وذلك لاعتيادها على الاثنتين. عادت إلى المطبخ حيث ينتظرها طبق المصابين بالسكّري، خفيف المحتوى عديم النكهة. كانت تأكل وحدها. فساعة العشاء الزوج غائب، ما عدا يوم الثلاثاء يوم إجازته، وعند الظهيرة يأكلان منفصلين: هو في السرير، وهي في المطبخ.

قفز القطّ عن وسادته بجانب المدخنة، حيث كان يجترّ أحلامه. قوّس ظهره ودنا مستقيم الذيل يمسح جسمه برجلَي جوستينا. ناداه كايتانو، فصعد القطّ إلى السرير وبقي ينظر إلى سيّده وهو يهزّ بذنبه. تُحدّق عيناه الخضراوان اللتان يعجز احمرار المصباح عن تبديل لونهما في الأطباق على الصينية، في انتظار مكافأة لقاء طاعته. هو يعرف تمامًا أنّ يدَي كايتانو لا تناوله غير الضرب، لكنّه ثابر مترقّبًا. ربّما في دماغه البهيمي فضول ما، فضول أن يعرف متى سيملّ سيّده

ضربه. لكنّ كايتانو لم يملّ بعد: رفع فردة حذاء عن الأرض وقذف بها. كان القطّ أسرع منه فتفادى الضربة بقفزة واحدة، وقهقه كايتانو بضحكة مدوّية.

انهار الصمت الذي كان يملأ البيت من سقفه حتّى أرضيته مثل كتلة صلدة أمام هذه الضحكة دفعة واحدة. وبدت قطع الأثاث غير المعتادة على ضجّة من هذا النوع كأنّها تتقلّص في أمكنتها. أمّا القطّ ففقد ذكرى الجوع مرتعبًا من صخب القهقهة وعاد إلى الغرق في الأحلام وفي النسيان. وحدها جوستينا، وكما لو أنّ شيئًا لم يحصل، تحافظ على سكونها. في البيت، تكاد هي لا تفتح فمها لتقول الكلمات الضرورية، ولم ترَ الآن ضرورة أن تنحاز إلى الحيوان. كانت تعيش في داخلها، وكأنّها تحلم حلمًا لا بداية له ولا نهاية، حلمًا من دون موضوع لا تريد أن تفيق منه، حلمًا مصوغًا من سحب تمرّ صامتة وتغطّي سماءً لم تعد تذكر كيف كان شكلها.

****

١١

أصاب المرض ابن كارمن ليزعج صباحاتها العذبة الكسولة. فإنريكيتو في السرير منذ يومين بسبب التهاب في الحلق. ولو كان الأمر يعود إلى الأمّ لعرضته على الطبيب، لكنّ إميليو حسب النفقة المترتّبة وقرّر أنّ الوضع لا يستحقّ العناء، وأنّ مرض إنريكي ليس ذا أهمّية. ببعض الرعاية، والمضمضة بالمركوروكروم، وجرعة إضافية من الحنان، سيقوم الولد بخير. وجدت المرأة في ذلك ذريعة أخرى كي تتّهم زوجها بعدم الاكتراث لابنه. وبطريقها لجمع الاتّهامات، ارتأت أن تفرغ ما في جعبتها من شكاوى لا تنتهي. إميليو استمع إليها طيلة السهرة ولم ينبس ببنت شفة للإجابة. وأخيرًا، كي يمنع المسألة من أن تتّسع وتزداد تأزّمًا وتمتدّ حتّى ساعة متأخّرة من الليل، وافق على فكرة زوجته. قبل زمن الشجارات، لم تكن موافقته تحفّز رغبة كارمن الدائمة في المشاكسة، لكن القبول بها الآن سيمنعها من التنفيس عمّا في صدرها. لذلك ما إن سمعت زوجها حتّى عدّلت في جلستها، وانتقلت إلى مرحلة الهجوم، بحماس مماثل للذي كانت تدافع عن نفسها به، أو بأكثر منه. لكنّ إميليو المُنهك والمستاء تخلّى عن الصراع وترك لزوجته أن تكون صاحبة القرار وسيّدته. وبهذا أحرجها من غير قصد. فمن جهة، هي تريد تنفيذ إرادتها الأولى،

ومن جهة ثانية، لا تستطيع مقاومة رغبتها في العمل بعكس إرادة الزوج، وتعرف الآن أنّ ما يساعدها في هذا المجال هو عدم اتّصاله بالطبيب. أمّا إنريكيتو، البعيد عن كلّ هذا الخلاف، فحلّ المشكلة بالطريقة الأسهل: بدأ يتعافى. كأمّ حنونة، طبعًا فرحت كارمن، ولو أنّها في داخلها ما كان ليزعجها أن تزيد حالة ابنها سوءاً (طالما لا تبلغ مرحلة الخطر الحقيقي) كي يدرك زوجها كم هي امرأة عقلانية ودائمًا على حقّ.

في جميع الأحوال، وطالما كان إنريكيتو ممدّدًا في فراشه، وداعًا لكسل الصباح. صار على كارمن أن تتسوّق قبل خروج زوجها، ولا يسعها أن تتقاعس كي لا تؤخّره في عمله، وتؤثّر سلبًا في مدخول المنزل، وإلّا لما تردّدت لحظة في إغاظته. لكن الحياة معقّدة بما يكفي وليست في حاجة إلى أن تزيد سوءًا لمجرّد الرغبة في انتقام تافه. حتّى في هذا التفكير، كانت كارمن ترى نفسها امرأة عقلانية. وكانت عندما يتسنّى لها، تبكي وحدها، وتطلق إحساسها باليأس، وتأسى لكون زوجها لا يعي مزاياها، هو الذي ليس لديه سوى العيوب: مبذّر، مستهتر، لا تهمّه أسرته ولا ابنه، مخلوق لا يحتمل، بأدائه المستمرّ لدور الضحيّة، شخص في غير محلّه وغير مرغوب فيه. مرّات كثيرة كانت كارمن، وخصوصًا في بداية زواجهما، تسأل نفسها أين تكمن أسباب الخلاف مع زوجها. عاشا فترة خطوبة مثل كلّ الناس. كانا يتبادلان الحبّ وفجأةً انتهى كلّ شيء. بدأت المشادّات والمجادلات، والكلام الساخر القاسي. وضمن كلّ الأسباب، كان

دور الضحيّة الذي يتّخذه أكثر ما يثير حفيظتها. تفترض أحيانًا أنّ لديه عشيقة، أو صديقة، فهي ممّن يعتقدون أنّ كلّ الخلافات الزوجية تحصل بسبب وجود الصديقات... وما أشبه الرجل بالديك، الذي يبدأ من فوق دجاجته باختيار تلك التي ستليها.

هذا الصباح، خرجت كارمن للتسوّق، والمطر يزيد من تعكّر مزاجها. البيت هادئ، معزول بسبب سكون الجيران وصوت المطر، الهادئ هو الآخر. كان المبنى يعيش واحدة من تلك الساعات الباهرة التي يملأها السلام والسكينة، كما لو أنّ ليس فيه مخلوقات من لحم وعظم، بل مجرّد أشياء، أشياء لا تسكنها أيّ حركة.

لكنّ إميليو فونسيكا لم يجد في السكينة والسلام المحيطين به مايهدّئ أعصابه. كان يشعر بالضغط، كما لو أنّ الهواء أصبح كثيفًا خانقًا. تروق له هذه الاستراحة، في غياب زوجته وسكوت ابنه. لكن يزعجه اليقين بأنّها مجرّد استراحة مؤقّتة، وسلام مؤقّت قد يطول ولكن لا يدوم. كان متّكئًا إلى النافذة التي تطلّ على الشارع، وينظر إلى المطر يهطل باستسلام وديع، ويدخّن، وينسى أكثر الأحيان سيجارته مشتعلة بين أصابعه المتوتّرة.

ناداه ابنه من الغرفة المجاورة. ترك السيجارة في المنفضة وذهب للاهتمام به.

ـ ماذا تريد؟

ـ أنا عطشان...

يوجد على طاولة السرير الجانبية كوب ماء سبق غليانه. ساعد إميليو ابنه على النهوض وأعطاه الكوب ليشرب. كان إنريكي يبلع بصعوبة ويقلّص وجهه من الألم. بدا هزيلاً جدًّا، نحيلاً بسبب الصوم الذي فرض نفسه عليه، لدرجة أحسّ معها إميليو بقلبه ينقبض بفعل قلق مفاجئ. وسأل نفسه «ما ذنب هذا الصغير؟ وما ذنبي أنا؟». بعد ارتوائه، عاد الصبي وتمدّد في السرير شاكرًا أباه بابتسامة. لم يعد إميليو إلى النافذة، بل بقي جالسًا عند حافة السرير، صامتًا، ينظر إلى ابنه. في البداية، بادله إنريكي النظرة وبدا مسرورًا بوجوده هنا. ولكن بعد قليل، أدرك إميليو أنّ الموقف مصطنع فحوّل عينيه وهمّ بحركة للنهوض. في هذه اللحظة، استوقفه شيء ما، وحلّت في دماغه فكرة جديدة. (هل هي فعلاً جديدة؟ ألم يستبعدها ألف مرّة لكونها غير مقبولة؟) لِمَ يشعر بعدم الارتياح بجانب ابنه؟ ولِمَ لا يبدو الولد، حتمًا لا يبدو مرتاحًا معه؟ ما الذي يفصل بينهما؟ سحب علبة السجائر من جيبه، ثمّ أعادها مدركاً أنّ الدخان سيضرّ بإنريكي. يمكنه الذهاب للتدخين في مكان آخر من المنزل، لكنّه آثر ألّا يغادر الغرفة.

نظر إلى الصبي من جديد، وسأله فجأةً:

ـ هل تحبّني إنريكي؟

كان السؤال غريبًا أجاب عليه الصغير من دون قناعة:

ـ أحبّك...

ـ كثيرًا؟

ـ كثيرًا.

«مجرّد كلام»، فكّر إميليو في سريرته. «كلّ هذا مجرّد كلام. لو أموت الآن، فلن يتذكّرني بعد انقضاء سنة واحدة».

رفع إنريكي أغطية السرير بقدميه، فضغط عليهما إميليو بحركة حنونة ولكن سارحة. وجدها الطفل طريفة وضحك، ضحكة حذرة كي لا يجرح حلقه. ازداد الضغط على قدميه، وبما أنّ الأب بدا مسرورًا، لم يعترض إنريكي، لكنّه أحسّ بالارتياح عندما سحب إميليو يده.

ـ لو أنا رحلت، ستشعر بغيابي؟

فهمس الابن، محتارًا:

ـ سأشعر...

ـ ثمّ تنساني...

ـ لا أعرف.

أيّ جواب غير هذا يتوقّع؟ من الطبيعي ألّا يعرف الصبي إن كان سينسى أم لا. لا أحد يعرف إن كان سينسى قبل أن ينسى، ولو كان من الممكن أن يُعرف ذلك قبل أوانه، لسهُلت أمور كثيرة هي صعبة الحلّ. عادت يدا إميليو من جديد إلى الجيب الذي يضمّ سجائره، غير أنّهما تراجعتا في منتصف الحركة، وتاهتا كما لو أنّهما نسيتا

ماذا تريدان أن تفعلا. ولم تكن اليدان وحدهما تعبّران عن ارتباك، فالوجه أيضًا كان مثل وجه من يصل إلى تقاطع طرق ليست فيه أيّ إشارة للاتّجاهات، أو أنّ أسماء الأماكن مكتوبة بحروف لغة غير معروفة، وحولها الصحراء، وما من مرشد يقول «من هنا».

نظر إنريكي إلى أبيه بفضول. لم يره يومًا كما اليوم. لم يسمع منه يومًا مثل هذه الأسئلة.

ارتفعت يدا إميليو على مهل، حازمتين حاسمتين، مفتوحتين وباطنا الكفّين إلى أعلى لتؤكّدا ما بدأ الفم لفظه:

ـ ستنساني، أنا متأكّد...

توقّف للحظة، لكنّ إرادة للكلام لا تُقاوم طردت التردّد. لم يكن واثقًا من أنّ ابنه يفهمه، ولا كان هذا يهمّه. حتّى أنّه يتمنّى لو لم يفهمه، ولم يختر كلامًا يقع ضمن طاقة الولد على الاستيعاب. كلّ ما كان يريد هو التكلّم وكفى، التكلّم إلى أن يقول كلّ شيء أو لا يعود يعرف ماذا يقول:

ـ ستنسى، نعم. أنا متأكّد. من الآن إلى ما بعد مرور سنة واحدة لن تتذكّرني. أو ربّما قبل ذلك. بعد ثلاثمئة وخمسة وستّين يومًا من الغياب سيغدو وجهي بالنسبة إليك شيئًا من الماضي. في ما بعد، وحتّى في الصورة، لن تتذكّر وجهي. ومع مرور الوقت، لن تتعرّف إليّ ولو عبرت أمامي. لا شيء سيدلّ على أنّي والدك. أنا الآن بالنسبة إليك رجل تراه كلّ يوم، يناولك الماء عندما تكون مريضًا

وتشعر بالعطش، رجل تحدّثه أمّك من دون تكلّف، رجل تنام أمّك إلى جانبه. أنت تحبّني لأنّك تراني كلّ يوم. لا تحبّني لما أنا عليه، بل تحبّني وفقًا لما أفعل أو لا أفعل. لا تعرف من أنا. لو بدّلوني برجل آخر ساعة ولادتك لما انتبهت ولكنت أحببته كما تحبّني. ولو أنّي عدت من جديد، ستحتاج إلى وقت طويل كي تعتاد عليّ. أو ربّما، وبالرغم من كوني أباك، ستُفضّل شخصًا آخر. هو أيضًا ستراه كلّ يوم، هو أيضًا سيأخذك إلى السينما...

كان إميليو يتكلّم من دون استراحة، وعيناه مبتعدتان عن وجه ابنه. الآن لم يعد بمقدوره الإفلات من رغبته في التدخين، فأشعل سيجارة. رمقه بنظرة جانبية، فرأى وجهه المنقبض وتألّم لألمه. لكنّه لم ينتهِ بعد:

ـ لا تعرف من أكون ولن تعرف أبدًا. لا أحد يعرف... ولا أنا أعرف من تكون أنت. لا يعرف أحدنا الآخر... ولو أنّي رحلت الآن، كلّ ما ستفقد هو الخبز الذي أكسبه.

ليس هذا ما كان يريد قوله بالنهاية. أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته وتابع كلامه. بينما هو ينطق الكلمات، كان الدخان يتصاعد من فمه مختلطًا بها، على دفعات، بحسب ما يتلفّظ إميليو بها. إنريكي تابع باهتمام خروج الدخان، غريبًا كلّيًا عمّا يقوله أبوه:

ـ عندما تكبر ستريد أن تكون سعيدًا. أنت الآن لا تفكّر في الأمر ولهذا بالذات أنت سعيد. عندما ستفكّر، عندما تريد أن تكون

سعيدًا، ستكفّ عن البقاء سعيدًا. إلى الأبد. ربّما إلى الأبد... هل تسمعني؟ إلى الأبد. وكلّما كانت رغبتك في السعادة أقوى، ستكون أكثر تعاسة. السعادة ليست أمرًا نكسبه. هم يقولون لك هذا. لاتصدّقهم. إمّا أن يكون المرء سعيدًا أو لا يكون.

هذا أيضًا أبعده عن غايته الحقيقية من الكلام. عاد ونظر إلى ابنه. كان جفناه مغلقين، ووجهه ساكنًا، وتنفّسه على إيقاع واحد وهادئ. كان نائمًا. عندئذٍ، بصوت منخفض، وبعينين تحدّقان في وجه الصغير، همس إميليو:

ـ أنا تعيس إنريكي، في غاية التعاسة. وسأرحل في أحد الأيّام. لا أعرف متى، لكنّي أعرف أنّي سأرحل. السعادة لا تُكتسب، لكنّي أريد أن أكتسبها. لم أعد أحتمل البقاء هنا. كلّ شيء مات... حياتي أخفقت. وأعيش في هذا البيت مثل غريب. أحبّك، وربّما أحبّ أمّك، ولكن ينقصني شيء. أعيش كما لو كنت في سجن. ثمّ كلّ هذه الشجارات، هذه... كلّ ذلك... يومًا ما سأرحل...

إنريكي يغطّ في نوم عميق، تغطّي جبينه خصلة من شعره الأشقر، ويظهر عبر فمه نصف المفتوح بريق أسنانه الصغيرة البيضاء، وعلى كامل وجهه يلوح ظلّ ابتسامة.

فجأةً شعر إميليو بعينيه تفيضان دمعًا ولم يعرف سبب بكائه. ثمّ ألهته عن تفكيره السيجارة التي كادت تحرق أصابعه. رجع إلى النافذة. المطر مستمرّ في الهطول رتيبًا هادئًا. عندما فكّر في ما

قاله أحسّ بنفسه مضحكًا، ومتهوّرًا، أيضًا. ربّما يكون ابنه فهم كلّ شيء، وقد يقول لأمّه. هو ليس خائفًا طبعًا لكنّه غير راغب في الشجار. المزيد من الشجار يعني المزيد من الدموع والمزيد من التذمّر والشكوى... لا. إنّه متعب. متعب. هل تسمعين يا كارمن؟

حينذاك رأى إميليو زوجته تعبر في الشارع تحت النافذة، والمظلّة تكاد لا تقي جسمها السمين من المطر. فكرّر بصوت أعلى:

ـ متعب. هل تسمعين يا كارمن؟

ذهب إلى غرفة الطعام ليأخذ حقيبته. دخلت كارمن وتبادلا عبارات وداع باردة. بدا لها أنّ زوجها يغادر بسرعة تُثير الارتياب. وارتابت. لا شيء في غرفة ابنها أثار انتباهها. دخلت الغرفة الأخرى وعلى الفور اكتشفت ما تبحث عنه. فوق منضدة الزينة، إلى جانب المنفضة، رأت عقب سيجارة، وحين رفعت الرماد كشفت عن بقعة سوداء في الخشب المتفحّم. ثار غضبها بشدّة وتصاعدت من فمها كلمات عنيفة. كان الاشمئزاز يتجاوز قدرتها على التحمّل. أسفت على قطعة الأثاث، على نصيبها، على حياتها المتفحّمة. عبّرت عن كلّ هذه المشاعر بتمتمات تكاد لا تُسمع بين نواحها ونحيبها. نظرت حولها خاشيةً أن ترى المزيد من الضرر، ثمّ ألقت على منضدة الزينة نظرة حنان وخيبة، وعادت إلى المطبخ.

بينما هي تعدّ الطعام للغداء راحت تنسج في بالها العبارات التي ستقولها لزوجها. لا، يجب ألّا يحسب أنّ المشكلة ستمرّ هكذا.

بل سيسمع منها ما لم يسمعه إبليس نفسه. إذا كان يريد أن يخرّب، فليخرّب ما يملكه هو، وليس أثاث غرفة النوم الذي اشتراه أبوها. أهكذا يردّ الجميل هذا الجاحد؟...

وتابعت متمتمة وهي تتنقّل من المدخنة إلى الطاولة ومن الطاولة إلى المدخنة.

ـ يخرّب ويخرّب. يخرّب كلّ شيء... هذا كلّ ما يحسن فعله!

سيعود السيّد إميليو فونسيكا، بلسانه السليط... كم كان والدها محقًّا عندما رفض لهذا الزواج أن يتمّ. لِمَ لم تتزوّج بنسيبها مانولو، صاحب مصنع الفراشي في فيغو؟ كانت ستغدو اليوم سيّدة، مالكة المصنعِ، والخدم رهن إشارتها!... غبيّة، غبيّة! ملعونة تلك الساعة التي فكّرت فيها في أن تأتي إلى البرتغال لقضاء بضعة أيّام في بيت الخالة ميكاييلا. آنذاك حقّقت شعبية كبيرة في ذلك الحيّ، وكان الجميع يترقّبون من سيفوز بقلب الصبية الإسبانية. وفاز به ذاك الذي خسرها في ما بعد. كانت مأخوذة بكونها محطّ الأنظار، مطلوبة أكثر ممّا كانت في بلادها، وها هي اليوم تحمل وزر انعدام بصيرتها. كم نصحها والدها: «كارمن، هذا ليس برجل صالح!...» وكم صمّت أذنيها لنصائحه، كم تجاهلتها. رفضت قريبها مانولو، ورفضت مصنع الفراشي...

وقفت في وسط المطبخ لتمسح دمعة. هي لم ترَ قريبها مانولو منذ ستّ سنوات. شعرت بالحنين وبكت على ما فقدته. لكانت

اليوم صاحبة المصنع: مانولو دائمًا أحبّها، كثيرًا. «آخ كم أنا بائسة، بائسة!...».

ناداها إنريكي من غرفته بعدما استيقظ فجأةً فركضت كارمن إليه:

ـ ما بك؟ ما بك؟

ـ هل ذهب بابا؟

ـ نعم.

بدأت شفتا إنريكي ترتجفان وانطلق هو في بكاء بطيء وعميق أمام عيني أمّه المروعة، الغاضبة واليائسة في الوقت نفسه.

****

١٢

على الكرسيّ المنخفض حذاء فاغر الفم ينتظر التصليح، لكن سيلفستري غضّ بصره وتناول الصحيفة. قرأها من أوّلها إلى آخرها، من المقالة الافتتاحية حتّى صفحة الحوادث المتفرّقة. كان متابعًا مثابرًا للمجريات الدولية، يراقب تحوّلاتها ويتوقّع تطوّراتها. وعندما لا يُصيب، عندما يتوقّع الأبيض ويحصل الأسود، يلقي لائمته على الصحيفة، ويقول إنّها لا تنشر ما هو مهمّ فعلاً، وتغيّر في الأخبار أو تنساها، وما من أحد يدري بأيّ نيّة. اليوم ليست الصحيفة بأفضل أو بأسوأ من العادة، لكن صدر سيلفستري لا يتّسع لها. كان ينظر إلى الساعة بين الحين والحين، بفارغ الصبر. ضحك من نفسه ثمّ عاد إلى الصحيفة. حاول الاهتمام بالوضع السياسي في فرنسا وحرب الهند الصينية، لكنّ عينيه تنزلقان بين الأسطر المطبوعة ولا تلتقط دماغه معنى الكلمات. برمية واحدة وضع الصحيفة جانبًا ونادى زوجته.

ظهرت ماريانا عند الباب تكاد تسدّه بحجمها الكبير. أتت وهي تجفّف يديها بعدما غسلت الأطباق، فسألها زوجها:

ـ هل هذه الساعة صحيحة؟

ببطء مدروس، راقبت ماريانا وضع العقربين وقالت:

ـ أظنّ ذلك...

ـ اممم...

لم ترَ المرأة أيّ معنى ظاهر في سؤال سيلفستري وانتظرت أن يقول شيئًا آخر. لكنّ سيلفستري عاد وأمسك بالصحيفة، هذه المرّة بشيء من الغضب. أحسّ بأنّه مراقَب وأقرّ بأنّ في قلقه بعض السخافة، أو على الأقلّ، من الصبيانية. ابتسمت ماريانا وقالت:

ـ اهدأ، لا بدّ من يأتي الرجل...

رفع سيلفستري رأسه فجأة:

ـ أيّ رجل؟ عمّ تتكلّمين؟ الرجل هو آخر ما يهمّني...

ـ إذًا، لِمَ أنت متوتّر؟

ـ أنا متوتّر؟ ماذا تقولين؟

عندئذٍ ازدادت ابتسامة ماريانا اتّساعًا ومرحًا. فأدرك سيلفستري حقيقة الوضع، وأقرّ بأنّه بالغ بتوتّره من دون أيّ مبرّر، وبدوره ابتسم:

ـ يا له من شابّ... كأنّه سحرني.

ـ سحرك؟... الواقع أنّه عرف موطن ضعفك، لعبة الداما... اعترِف.

قالتها وعادت إلى المطبخ لكيّ الثياب.

رفع السكّاف كتفيه وقد صفا مزاجه، نظر مرّة أخرى إلى الساعة ولفّ سيجارة ليُخفّف من ملل الانتظار. مرّت نصف ساعة. اقترب الوقت من العاشرة، وعندما لم يرَ سيلفستري خيارًا أمامه سوى الاهتمام بالحذاء، قُرع الجرس. كان يجلس في غرفة الطعام التي يفتح بابها على الممرّ. فتح الصحيفة وألبس وجهه تعبير من يركّز في قراءته، وادّعى أنّه غير منتبه لمن يدخل. ولكن في سريرة نفسه كان يبتسم فرحًا. مرّ أبيل عبر المدخل:

ـ مساء الخير، سيّد سيلفستري.

وتابع الطريق إلى غرفته. أجابه سيلفستري:

ـ مساء الخير، سيّد أبيل.

وعلى الفور ترك صحيفته المتعبة وركض يحضّر لوح الدامة العتيق.

دخل أبيل غرفته راغبًا في أن يشعر بالراحة، فلبس بنطلونًا قديمًا واستبدل حذاءه بخفّ منزلي وخلع سترته. فتح الحقيبة التي يحتفظ فيها بكتبه، اختار كتابًا وضعه على السرير واستعدّ للعمل. أيّ شخص آخر ما كان ليسمّي ذلك عملاً ولكنّ أبيل يعتبره كذلك. أمامه المجلّد الثاني من كتاب «الإخوة كارامازوف» في ترجمته الفرنسية، والذي يُعيد قراءته لتوضيح بعض النقاط التي بقيت مبهمة بعد قراءته الأولى. قبل أن يجلس بحث عن سجائره ولم يجدها. كان قد دخّنها كلّها ونسي أن يشتري علبة جديدة. خرج من الغرفة

مفضّلاً أن يتبلّل من جديد بالمطر على أن يبقى بلا تبغ. عندما مرّ أمام باب غرفة الطعام سمع سؤال سيلفستري:

ـ هل ستخرج، سيّد أبيل؟

ـ فرغت من السجائر. سأذهب إلى الحانة وأسأل إن كان لديهم تبغ.

ـ لديّ تبغ هنا، لكن لا أعرف إن كان يعجبك. إنّه من الصنف الذي يُلفّ...

أبيل ليس من النوع المتطلّب:

ـ أيّ صنف ينفع معي، فأنا معتاد على كلّ شيء.

قال سيلفستري وهو يناوله التبغ والأوراق:

ـ تفضّل، تفضّل.

مع هذه الحركة، تركه يرى لوح الدامة الذي كان قد خبّأه إلى الآن.

ألقى أبيل نظرة سريعة على السكّاف ولاحظ في عينيه حيرة فاجأته. لفّ سيجارة بسرعة على مرأى من سيلفستري المتفحّص وأشعلها. الآن، عزّة النفس لدى السكّاف دفعته إلى تخبئة لوح الدامة بجسمه من جديد. انتبه أبيل إلى أنّ صحن الفاكهة الزجاجي الذي يشغل عادةً وسط الطاولة أُزيح إلى أحد جوانبها وأنّه يوجد مقابل مقعد سيلفستري كرسيّ فارغ. فهم أنّ هذا الكرسيّ معدّ له فتمتم قائلاً:

ـ كنت أرغب في مباراة صغيرة من الدامة. هل لديك وقت سيّد سيلفستري؟

من شدّة حبوره، شعر السكّاف بحريق طفيف في أنفه، وتيقّن في هذه اللحظة من أنّه أصبح صديقًا لأبيل، من دون أن يعرف لماذا. فأجاب:

ـ كنت سأعرض عليك اللعب...

ذهب أبيل إلى غرفته، أعاد الكتاب إلى مكانه ورجع إلى سيلفستري.

كان السكّاف في هذه الأثناء قد صفّ الحجارة، ووضع المنفضة في مكان مناسب يُريح أبيل، حتّى أنّه رفع كلّ شيء عن الطاولة كي يقع عليها الضوء المنتشر من السقف من دون أن تعترضه حواجز قد ترمي ظلالها على لوح الدامة.

وبدأ اللعب. كان وجه سيلفستري مشرقًا. أمّا أبيل، الأكثر تحفّظًا في التعبير عن مشاعره، فكان يُقابل بهجة الرجل بمثلها، لكن من دون أن يكفّ عن مراقبته باهتمام.

أنهت ماريانا عملها وتركتهما لتذهب إلى النوم، وبقي الرجلان مستيقظين. مع انتصاف الليل، وانتهاء دور من اللعب افتقر فيه أبيل إلى المهارة اللازمة، قال:

ـ يكفي اليوم. أنت تلعب أفضل منّي. وكدرس أوّل، هذا يكفي ويزيد.

قام سيلفستري بحركة تعبّر عن خيبة أمل، لكنّه لم يذهب أبعد من ذلك. كان يعرف أنّهما لعبا مطوّلاً، وأنّ التوقّف الآن فكرة لا بأس بها. أخذ أبيل كيس التبغ، لفّ سيجارة جديدة وسأل وهو ينظر إلى جدران الغرفة حيث يجلسان:

ـ هل تُقيم هنا منذ فترة طويلة، سيّد سيلفستري؟

ـ منذ أكثر من عشرين سنة. أنا الأقدم بين سكّان المبنى.

ـ أي أنّك تعرفهم كلّهم، بالطبع...

ـ أعرفهم، أعرفهم.

ـ وهل هم أناس طيّبون؟

ـ بعضهم طيّبون، والبعض الآخر لا. كما في أيّ مكان آخر...

ـ صحيح. كما في أيّ مكان آخر.

من دون انتباه ظاهر، أخذ أبيل يكدّس حجارة اللعب في عمود، مناوبًا بين الأبيض والأسود. وعلى الفور، ترك العمود ينهار وسأل:

الرجل الذي يسكن في مواجهتكما، على ما يبدو، ليس من الأفضل بينهم.

ـ ليس رجلاً سيّئًا. لكنّه سكوت... لا يعجبني الرجال السكوتون، غير أنّه ليس سيّئًا. أمّا هي فأفعى. ومن غاليسيا أيضًا...

ـ من غاليسيا؟ وما دخل ذلك؟

ندم سيلفستري على نبرة الازدراء التي لفظ بها عبارته.

ـ مجرّد طريقة في التعبير، لكنّك تعرف ولا شكّ ما يقوله المثل: «من إسبانيا، لا أمل في ريح، ولا في زواج مريح...».

ـ حقًّا؟ تظنّ أنّهما غير متّفقين؟

ـ بل أنا متأكّد. هو لا يَكادُ يُسمع له صوت، فيما هي تنعق مثل غر... أقصد، تتكلّم بصوت مرتفع جدًّا...

ابتسم الشابّ لشعور سيلفستري بالحرج ودقّته في اختيار مفرداته:

ـ والآخرون؟

ـ في الطابق الأوّل إلى اليسار يعيش شخصان لا أفهمهما. هو يعمل في صحيفة «الأخبار» ويبدو لي كالبهائم. أعتذر، لكنّه هكذا فعلاً. وهي مسكينة، منذ عرفتها تبدو كأنّها تحتضر. يزيد نحولها يومًا بعد يوم...

ـ هل هي مريضة؟

ـ بالسكّري. هذا ما قالته لماريانا. لكن إمّا أنّي مخطئ للغاية، أو هي مصابة بالسلّ في مرحلة متقدّمة جدًّا. طفلتهما ماتت بالتهاب في السحايا. منذ ذلك الحين وكأنّ الأمّ هرمت ثلاثين سنة. إنّها برأيي من المعذّبين في هذا العالم. هي... أمّا هو، فإنّه كما قلتُ لك بهيمة. أُصلح له حذاءه لأنّي مضطرّ إلى كسب رزقي، ولكن ما إذا كانت هذه إرادتي...

ـ وبجانبهما؟

ابتسم سيلفستري ابتسامة ماكرة: لقد فهم أنّ اهتمام مستأجره بالجيران ما هو إلّا ذريعة ليعرف «أمورًا» عن الجارة في الطابق الأعلى. ثمّ احتار عندما سمعه يتابع:

ـ لا عليك، هذه أعرف عنها. وماذا عن الطابق الأخير؟

بدا للسكّاف أنّ هذا الفضول مبالغ فيه. غير أنّ أبيل يطرح الأسئلة ولا يبدو عليه في الواقع كبير اهتمام.

ـ في الطابق الأخير... من الجهة اليمنى يعيش رجل لا أرتاح إليه. لا يخرج منه قرش ولو فُرض عليه فرضًا. لكن من يراه يعتقد أنّه... من الرأسماليين...

ابتسم أبيل وقال:

ـ يظهر أنّك غير معجب بالرأسماليين.

دفع الحذر سيلفستري إلى إمساك نفسه. فقال على مهل:

ـ لست معجبًا أو غير معجب. إنّها مجرّد صيغة في التعبير...

لم يبدُ أنّ أبيل أعار انتباهًا:

ـ وباقي أفراد العائلة؟

ـ الزوجة حمقاء. لا ترى في الدنيا غير زوجها أنسيلمو... ولدى الابنة، بقدر معرفتي المتواضعة، جعبة مليئة بالمشاكل التي تزعج بها أبويها يوميًا. وكونهما مفتونين بها يزيد الأمور سوءًا...

ـ كم عمرها؟

ـ حوالى العشرين.في المبنى يسمّونها كلاوديا. أرجو أن أكون مخطئًا بشأنها...

ـ وفي الشقّة المقابلة؟

ـ الشقّة المقابلة تقيم فيها أربع نساء. محترمات جدًّا. يبدو أنّ مستوى حياتهن كان أرقى، قبل أن يتغيّر قدرهن... هنّ أيضًا على مستوى علمي جيّد. لا يمضين وقتهن في التسكّع على سُفر الدرج والتحدّث عن الآخرين، وهذا أمر يستحقّ التقدير. إنهنّ منطويات جدًّا أيضًا.

الآن، يتسلّى أبيل بصفّ الحجارة في مربّعات. وعندما سكت السكّاف، رفع نظره، منتظرًا. لكن سيلفستري لم يكن مستعدًّا للتكلّم أكثر. شعر بوجود نيّة خفيّة وراء أسئلة ضيفه. وبالرغم من أنّ حديثه خلا من أيّ شبهة، ندم على كونه أفضى بكلّ هذا القدر من الكلام. عادت إلى ذاكرته شكوكه وتحفّظاته القديمة ولجأ إلى تطبيق الرقابة الذاتية، خصوصًا وقد بدت ملاحظة أبيل بشأن الرأسماليين مواربة مفخّخة.

الصمت لا يريح سيلفستري، لا بل حتّى يربكه، ولا سيّما أنَّ المستأجر يُظهر وعلى العكس منه ارتياحًا تامًّا. الحجارة الآن متراصفة على طول الطاولة، مثل الحصى بمحاذاة مجرى النهر، وهذه الطريقة الصبيانية في التسلية تزعج سيلفستري. عندما لم

يعد الصمت محمولاً، جمع أبيل الحجارة على اللوح بدقّة مثيرة للأعصاب ثمّ طرح سؤالاً مفاجئًا:

ـ لِمَ لم تذهب وتستعلم عنّي؟

وقع هذا السؤال بعكس تيّار أفكار سيلفستري فأبقاه لثوانٍ مصدومًا عاجزًا عن الإجابة. وكي يكسب وقتًا، لم يجد أفضل من أن يسحب كأسين وزجاجة من الخزانة ويسأل:

ـ هل تحبّ مشروب الكرز الحامض؟

ـ نعم أحبّه.

ـ مع حبّات الكرز أم من دونها؟

ـ مع حبّات الكرز.

بينما سيلفستري يزن جوابه، راح يملأ الكأسين، ولكن بما أنّ سحب حبّات الكرز تطلّب منه انتباهًا، وصل إلى الشفة من دون أن يعرف بمَ يجيب. تنشّق أبيل رائحة المشروب وقال بكلّ براءة:

ـ لم تجبني بعد عن سؤالي...

ـ آه! سؤالك...

كان ارتباك سيلفستري باديًا:

ـ لم أذهب للاستعلام عنك لأنّي اعتقدت...، لأنّي رأيت أنّ هذا غير ضروري...

وأعطى كلماته هذه نبرة معيّنة يفهم من يجيد الإصغاء إليها أنّه يلمّح إلى شكّ ما.

فأجاب أبيل:

ـ وهل مازلت عند رأيك؟

شعر سيلفستري كأنّه يُحشر في زاوية فحاول الانتقال إلى الهجوم:

ـ كأنّك تقرأ في أفكار الآخرين...

ـ أنا معتاد على سماع كلّ كلمة تقال لي والانتباه إلى الطريقة التي تقال بها. ليس بالأمر الصعب... قل لي: أصحيح أنّك لا تثق بي أم لا؟

ـ لكن، لِمَ لا أثق بك؟

ـ ليتك تخبرني. أعطيتك فرصة أن تعرف من أكون، ولم تشأ الاستفادة منها...

ارتشف المشروب مصدرًا صوتًا بتماسّ لسانه بسقف حلقه ونظر إلى سيلفستري بعينين مضيئتين وسأله:

ـ أم أنّك تفضّل أن أقول لك بنفسي؟

استيقظ فضول مفاجئ لدى سيلفستري، ولم يستطع أن يخفي حركة كشفته. وبطريقته المراوغة ذاتها، طرح أبيل سؤالاً جديدًا:

ـ لكن من يضمن لك أنّي لن أخدعك؟

ـ أحسّ السكّاف بنفسه مثل جرذ بين رجلي القطّ، وشعر برغبة في أن «يضع الشابّ في مكانه» لكنّه أخفق ولم يجد ما يقوله. وكما لو أنّ أبيل لم يكن في انتظار إجابة عن سؤاليه تسلَّم هو دفّة الكلام:

ـ أنت تروق لي سيّد سيلفستري. يعجبني بيتك وأقدّر زوجتك، وأشعر بالراحة هنا. ربّما لن أبقى وقتًا طويلاً ولكن عندما أرحل، أودّ أن أحمل معي ذكريات جميلة. لاحظت منذ اليوم الأوّل يا صديقي... هل يزعجك أن أناديك هكذا؟

سيلفستري الذي كان منشغلاً بعصر حبّة كرز بين لسانه وأسنانه، نفى بهزّ الرأس. فأكمل أبيل:

ـ شكرًا. لاحظت لديك نوعًا من الحذر والارتياب، خصوصًا في نظرتك. ومهما يكن السبب، أرى من المناسب أن أقول لك من أنا. ولا شكّ في أنّه إلى جانب هذا الارتياب، يوجد لديك... كيف أقول لك؟ مودّة تؤثّر فيّ. وفي هذه اللحظة بالذات، أنا أرى كلا الأمرين: المودّة والارتياب...

تحوّلت ملامح وجه سيلفستري، تبدّلت من المودّة إلى الارتياب من دون مرحلة انتقالية، ثمّ عادت إلى وضعها الأوّل. قابل أبيل هذه السيرورة في لبس الأقنعة ونزعها بابتسامة لاهية:

ـ كما أقول لك. أرى كليهما... وعندما أنتهي من رواية قصّتي، أرجو ألّا أرى غير المودّة. سأبدأ الحكاية. هل يزعجك أن أدخّن المزيد من تبغك؟

لم تعد حبّة الكرز في فم سيلفستري، لكنّه لم يجد من الضرورة أن يجيب. أحسّ بنفسه أصغر قدرًا أمام شفافية الشابّ وخشي أن يتحوّل إلى العدوانية إن هو أجابه. أشعل أبيل سيجارته واستأنف الكلام:

ـ الحكاية طويلة نوعًا ما لكنّي سأختصرها. الوقت متأخّر ولا أريد استغلال صبرك... أنا في الثامنة والعشرين من عمري ولم أؤدّ خدمتي العسكرية. ليس لديّ مهنة محدّدة وسترى لماذا. أنا حرّ ووحيد، أعرف مخاطر الحرّية والوحدة وفوائدهما وأنا على وفاق معهما. أعيش هكذا منذ اثنتي عشرة سنة، أي منذ كان عمري ستّة عشر. ذكريات طفولتي لا تهمّ، خصوصًا وأنّي لست كبير السنّ بما يكفي لأستمتع بالحديث عنها، ولن تساهم في تعزيز ارتيابك، ولا في كسب مودّتك. كنت تلميذًا جدّيًا في المدرسة الابتدائية وفي المعهد. واستطعت كسب تقدير زملائي وأساتذتي على السواء، في إنجاز لا يتكرّر حدوثه، وأؤكّد لك أنّه لم يكن عن تصوّر وتصميم منّي: لم أعتد مدح المعلّمين ولا الخضوع للرفاق. هكذا وصل بي العمر إلى سنواتي الستّ عشرة عندما... لم أقل لك بعد إنّي كنت ابنًا وحيدًا وأعيش مع والديّ. الآن افترض ما تشاء: افترض أنّهما توفّيا بحادث، أو انفصلا لعدم قدرة أيّ منهما على متابعة العيش مع الآخر. اختر، ففي أيّ حال، النتيجة هي نفسها: أكملت مشوار الحياة وحيدًا. قد تقول لي، فيما لو اخترتَ الطرح الثاني، إنّه كان في إمكاني العيش مع أحدهما. هنا، مع الأخذ بهذا الاحتمال، أدعوك

إلى الافتراض من جديد أنّي لم أشأ البقاء مع أيّ منهما. ربّما لأنّي لم أكن أحبّهما. أو ربّما لأنّي كنت أحبّ الطرفين بالدرجة نفسها ولم أستطع تفضيل أحدهما على الآخر. فكّر كما تريد لأنّ النهاية واحدة: بقيت وحيدًا. في عمر الستّة عشر (هل تذكر؟)، في عمر الستّة عشر الحياة رائعة، أقلّه بالنسبة إلى بعض الناس. أرى من تعبير وجهك أنّه لم يكن لحياتك في ذلك العمر شيء من الروعة. أنا بلى، لسوء الحظّ، وأقول لسوء الحظّ لأنّ ذلك لم يساعدني. تركت المعهد ورحت أبحث عن عمل. كان لي أقرباء في مدن أخرى أرادوا أن أذهب للعيش معهم. رفضت. كنت قد قضمت بلذّة ثمرة الحرّية والوحدة ولم أعد مستعدًّا لقبول أن ينتزعها منّي أحد. لم أكن أدري بعد، في ذاك الوقت، أنّ لهذه الثمرة أيضًا قضمات مرّة الطعم... هل أضجرك؟

كتّف سيلفستري ذراعيه المفتولتين فوق صدره وأجاب:

ـ لا، تعرف جيّدًا أنّك لا تضجرني.

ابتسم أبيل.

ـ نعم أعرف. لنتابع. بالنسبة إلى شابّ لا يعرف شيئًا في سنّ الستّة عشر، أو أنّ ما يعرفه لا يعادل شيئًا، ومستعدّ للعيش وحده، لم يكن إيجاد عمل بالأمر السهل، حتّى ولو لم يكن متطلّبًا في اختياره. وأنا فعلاً لم أتطلّب، قبلت بأوّل فرصة لاحت لي، وأوّل ما لاح لي إعلان يطلب موظّفًا في محلّ للحلويات. كان هناك الكثير من

المرشّحين كما عرفت في ما بعد، لكنّ صاحب المتجر اختارني أنا. أسعفني الحظّ. أو ربّما أثّرت بدلتي النظيفة وتصرّفاتي اللائقة في قراره. اختبرت الأمر في مرّة لاحقة عندما أردت إيجاد عمل جديد. تقدّمت متّسخًا ومبتعدًا عن التهذيب... فطردوني رفسًا إلى الشارع، كما يقال بلغة الشارع. لم ينظروا حتّى إليّ. كان راتبي يكفي، على أكثر تقدير، كي لا أموت من الجوع. كما كان لديّ نقود مقتصدة من ستّة عشر عامًا من حياتي في أسرة ميسورة، فتحمّلت. وعندما انتهت المدّخرات، لم أجد حلًّا غير أن أكمل وجباتي بحلويات ربّ العمل. اليوم لا أستطيع أن أنظر إلى قطعة حلوى من دون أن أشعر بالغثيان. هل تسكب لي المزيد من مشروب الكرز الحامض؟

ملأ سيلفستري الكأس، فبلّل أبيل شفتيه وتابع:

ـ من الواضح أنّ الليلة لن تكفي إذا أنا أكملت بكلّ هذا التفصيل. مضى أكثر من ساعة ومازلت في أوّل وظيفة لي. تنقّلت كثيرًا في العمل، ما يفسّر ما قلته لك عن أنّه ليس لديّ مهنة محدّدة. أنا اليوم مسؤول عن ورشة، في منطقة الأريرو، وغدًا لا أعرف ما سأكون. قد أصبح عاطلاً عن العمل، ولن تكون المرّة الأولى... أجهل ما إذا كنت تعرف معنى البقاء بلا عمل، بلا نقود، وبلا مسكن. أنا أعرف. حصل لي ذلك مرّة خلال التفتيش للخدمة العسكرية، وكانت حالتي الصحّية معدومة لدرجة أنّهم رفضوني. كنت واحدًا ممّن لا يريدهم الوطن... ولم يهمّني، أقول هذا بصراحة، بالرغم من أنّ الطعام والمنام كانا سيتوفّران لي. بعد ذلك بوقت قصير وجدت

لي مجالاً ستستغرب لو عرفت أين. صرت أبيع شايًا عجيبًا يشفي كلّ الأمراض... ألا يضحكك ذلك؟ كنت ستضحك حتمًا لو سمعتني أنادي على مزاياه. لم أكذب قطّ في حياتي كما في تلك الفترة ولا تظنّ أنّهم كثيرون من يصدّقون تلك الأكاذيب. لكنّي جلت في جزء كبير من البلاد أبيع شايي السحري لمن يصدّقني. ولم أندم يومًا، فالشاي لم يكن يضرّ، أؤكّد لك، وكان كلامي يعطي الأمل لمن يشتريه. حتّى أنّ بعض الناس كانوا مستعدّين لدفع المزيد من المال، لأنّه ما من مال يكفي لشراء أمل...

هزّ سيلفستري رأسه موافقًا.

ـ أنت توافقني الرأي، صحيح؟ كما أقول لك، ولن يجدي نفعًا أن أخبرك أكثر عن حياتي. عرفت الجوع والبرد مرّات. امتلكت كلّ شيء مرّات، وحُرمت كلّ شيء مرّات. أكلت مثل ذئب لا يعرف إن كان سيصطاد في اليوم التالي، وصمتُ كما لو عاهدت نفسي على الموت من الجوع. وها أنا اليوم، بعدما أقمت في كلّ أحياء المدينة، ونمت في غرف جماعية يجتاحها البقّ والبراغيث بالآلاف، وعشت أوهام الإقامة مع فتيات طيّبات تجدهن بالمئات هنا في لشبونة. وباستثناء قطع الحلوى من ربّ عملي الأوّل، لم أسرق شيئًا آخر إلّا مرّة واحدة. كان ذلك في حديقة النجمة وكنت جائعًا. ويمكنني القول، أنا الخبير في شؤون الجوع، إنّي لم أكن وصلت يومًا إلى تلك الدرجة. آنذاك اقتربت منّي بنت لم أر أجمل منها في حياتي. لا، ليس ما تفكّر فيه. كانت طفلة في الرابعة من عمرها، ليس أكثر.

وإن كنت أصف جمالها، ربّما فقط تعويضًا عن سرقتي. كانت تحمل شريحة خبز ممسوحة بالزبدة لم تُمسّ تقريبًا. لا شكّ في أنّ الوالدين أو المربّية كانوا قريبين من المكان. لكنّني لم أفكّر حتّى في ذلك. هي لم تصرخ، لم تبكِ، وبعد مرور لحظات وجدتُ نفسي خلف الكنيسة أقضم شريحتي من الخبز بالزبدة.

لاح بريق دموع في عيني سيلفستري.

ـ كما أنّي لم أكفّ يومًا عن دفع بدل الغرف التي أستأجرها. أقول هذا لأطمئنك...

رفع السكّاف كتفيه، لامباليًا. كان يرغب في أن يتابع أبيل كلامه، لأنّه يستمتع بسماعه ولكن خصوصًا لأنّه لا يعرف ماذا يجيب. في باله، طبعًا، بعض الأسئلة، لكنّه يخشى أن يكون الوقت مبكرًا عليها. استبقه أبيل:

ـ إنّها المرّة الثانية التي أخبر فيها أحدًا كلّ ذلك. المرّة الأولى كانت لامرأة. تصوّرت أنّها ستفهم، لكنّ النساء لا يفهمن شيئًا من هذا. أخطأتُ. كانت تريد استقرارًا نهائيًا في منزل وعائلة، واعتقدَت أنّي علقت في شباكها. أخطأَت. والآن أخبرك أنت، لا أعرف لماذا. ربّما لأنّي أرتاح لرؤية وجهك، أو ربّما لأنّ بضع سنوات انقضت منذ أوّل مرّة تكلّمت فيها عن الموضوع وأشعر بحاجة إلى إفراغ ما يختلجني. أو ربّما لأيّ سبب آخر... لا أدري...

أجاب سيلفستري:

ـ تخبرني لكي أكفّ عن الارتياب بك.

ـ آه لا! كثيرون ارتابوا بي واستمرّوا كذلك من دون أن يعرفوا حقيقتي... ربّما هي الساعة، ومباراة الدامة، والكتاب الذي كنت سأقرأه لو لم آتِ إليك، لا أدري... في جميع الأحوال، أنت الآن تعرف.

مرّر سيلفستري أصابع يديه الاثنتين في شعره الأشعث، ثمّ ملأ الكأس وابتلعها جرعة واحدة. مسح فمه بظاهر يده وسأل:

ـ لِمَ تعيش هكذا؟ اعذرني إن بدوت لك فضوليًا...

ـ لا، لستَ فضوليًا. أعيش هكذا لأنّ هذا ما أريد. أعيش هكذا لأنّي لا أريد طريقة أخرى لحياتي. الحياة كما يفهمها الآخرون لا قيمة لها عندي. لا أحبّ أن يلتقطني شيء، والحياة أخطبوط كثير الأذرع. ذراع واحدة تكفي لحبس إنسان. عندما أشعر بالضغط، أقطع الذراع. هذا مؤلم أحيانًا، لكن لا يبقى لي غير هذا الحلّ. أتفهمني؟

ـ أفهمك تمامًا. لكنّ هذا لا يؤدّي إلى أيّ فائدة.

ـ الفائدة لا تهمّني.

ـ لا شكّ في أنّك تسبّبت بإزعاج البعض...

ـ عملت كلّ ما في جهدي كي لا يحصل ذلك. لكن عندما كان يحصل، لم أتردّد.

ـ أنت إنسان قاسٍ.

ـ قاسٍ؟ لا، أنا هشّ، صدّقني. ويقيني بهذه الهشاشة يدفعني إلى الهرب من القيود. إذا استسلمت، إذا تركت نفسي مقيّدًا، أضيع.

ـ إلى أن يأتي يوم... أنا كبرتُ في السنّ، ولديّ خبرة.

ـ أنا أيضًا.

ـ لكن خبرتي تنتج من عدد السنين...

ـ وماذا تقول لك هذه الخبرة؟

ـ إنّ للحياة أذرعًا عديدة، كما قلت لك منذ لحظات. ومهما قطعنا منها، تبقى واحدة تنجح في حبسنا.

ـ لم أتوقّع أن تكون هكذا... كيف أقول لك؟...

ـ فيلسوف؟ لدى كلّ سكّاف شيء من الفلاسفة. هكذا قال أحدهم...

ابتسم الرجلان، ونظر أبيل إلى الساعة:

ـ صارت الثانية، سيّد سيلفستري. إنّه وقت النوم لكن أريد قبل ذلك أن أقول لك شيئًا آخر. بدأت العيش بهذه الطريقة عن نزوة، واستمررت بها عن اقتناع، ولا أزال فيها عن فضول.

ـ لا أفهمك.

ـ ستفهم. أشعر وكأنّ الحياة تقف لنا مختبئة خلف ستارة،

وتطلق ضحكاتها على الجهد الذي نبذله كي نعرفها. وأنا أريد أن أعرفها.

لاحت على وجه سيلفستري ابتسامة وادعة، يشوبها طرف من خيبة.

ـ هناك الكثير من الأمور التي يجب فعلها في هذه الناحية من الستارة يا صديقي... ولو عشت ألف سنة واكتسبت تجارب الناس كلّهم، لن تتوصّل إلى معرفة الحياة...

ـ يحتمل أن تكون على حقّ، لكن لا يزال الوقت مبكرًا على استسلامي...

ثمّ نهض وشدّ على يد سيلفستري:

ـ إلى الغد.

ـ إلى الغد... يا صديقي.

بقي سيلفستري وحده. لفّ من دون تركيز سيجارة أخرى. كانت على شفتيه الابتسامة الوادعة والمتعبة ذاتها. أمّا العينان فمثبّتتان على سطح الطاولة، وكأنّما تتحرّك عليه وجوه من ماضٍ بعيد.

****

١٣

من مفكّرة أدريانا:

الأحد، ٥٢/٣/٢٣، الساعة العاشرة والنصف ليلاً. لقد هطل المطر طوال اليوم، كما لو أنّنا لسنا في فصل الربيع. عندما كنت صغيرة، أذكر أنّ أيّام الربيع كانت جميلة، وتبدأ بأن تكون جميلة يوم ٢١ نفسه. نحن اليوم في ٢٣ ولا شيء غير المطر. لا أعرف إن كان الطقس هو السبب، لكنّي لا أشعر أنّي بخير. لم أغادر البيت اليوم. ذهبت أمّي وخالتي لزيارة قريباتنا في كامبوليدي بعد الغداء، وعادتا مبلّلتين ترشحان بالماء. دخلت خالتي غاضبة بسبب أحاديث جرت بينهن. لم أستعلم عن شيء. حملتا إلينا الحلويات لكنّي لم أتذوّقها. إيساورا أيضًا لم تشأ أن تأكل منها. كان النهار مضجرًا جدًّا. لم تفلت إيساورا من يدها الكتاب الذي تقرأه. يرافقها كيفما اتّجهت، وأحيانًا تبدو وكأنّها تخبّئه. أنا كنت أطرّز غطاء سريري. يستغرق ضمّ الدانتيل إلى القماش وقتًا طويلاً، لكنّي لست مستعجلة... لا أعرف إن كان سيأتي يوم أضعه فوق السرير. أنا حزينة. لو كنت أعرف، لذهبت معهما إلى كامبوليدي بدلاً من قضاء النهار بهذه الطريقة. حتّى أنّي أشعر برغبة في البكاء. ليس بسبب المطر، أنا متأكّدة. لم تمطر البارحة... ولا بسببه هو. في البداية كان يؤلمني

أن أمضي أيّام الأحد من دون أن أراه. الآن لا. يومًا بعد يوم يزيد اقتناعي بأنّي لا أعجبه. لو كنت أعجبه، ما كان ليتكلّم بالهاتف بهذه الطريقة. إلّا إذا كان يريد إثارة غيرتي... كم أنا غبيّة... كيف يُثير غيرتي وهو لا يدري حتّى أنّه يعجبني؟ ولماذا أعجبه أصلاً وأنا بهذه البشاعة؟ نعم، أعرف أنّي دميمة بشعة ولا داعي لأن يقولها لي أحد. عندما ينظر الآخرون إليّ، أحزر ما يفكّرون فيه. لكنّي أكثر قيمة من الأخريات. بيتهوفن أيضًا كان بشعًا، ولم يجد أيّ امرأة تحبّه، وكان بيتهوفن. لم يحتج إلى الحبّ لكي يأتي بما أتى به. كان في حاجة إلى أن يحبّ وقد أحبّ. لو أنّي عشت في زمانه، لكنت قبّلت له قدميه، وأنا متأكّدة من أنّ امرأة جميلة لا يمكن أن تفعل ذلك. برأيي أنّ النساء الجميلات لا يردن أن يحببن، بل أن يكنّ محبوبات. أعرف أنّ إيساورا تقول لي إنّي لا أفهم في هذه الأمور. ربّما لأنّي لا أقرأ الروايات مثلها. وفي الواقع هي لا تبدو أنّها تعرف أكثر ممّا أعرف، بالرغم من قراءاتها. أعتقد أنّها تقرأ أكثر من اللزوم... اليوم مثلاً، كانت عيناها حمراوين، وكأنّها بكت. وبدت عصبية، كما لم أرها يومًا. في لحظة ما لمستُ ذراعها لأقول لها شيئًا فأطلقت صرخة أرعبتني. ومرّة ثانية، كنت مقبلة من غرفة النوم، وكانت تقرأ (أظنّ أنّها كانت قد أنهت الكتاب وعادت إلى بدايته) وبدا وجهها غريبًا، لم أرَ يومًا وجهًا بهذه الغرابة. وكأنّها كانت تتألّم ولكن في الوقت ذاته بدت مسرورة. ليس أنّ السرور كان باديًا عليها. لا أعرف كيف أشرح ذلك. كانت كأنّ الألم يمنحها متعة ما، أو كأنّ المتعة تُسبّب

لها ألمًا ما. كم تشوّشني الكتابة... اليوم رأسي لا يعمل جيّدًا. كلّهن نائمات. وأنا سأنام أيضًا. يا له من يوم حزين! ليته كان الغد!

مقطع من رواية «المتديّنة»، لديدرو، قرأته إيساورا في الليلة ذاتها:

بدأ القلق يستبدّ بالأمّ الرئيسة؛ فقدت بهجتها، وبشاشة وجهها واستدارته، وراحة بالها. في الليلة التالية، وبينما الكلّ نائم، والمبنى غارق في سكون عميق، نهضت؛ وبعد تجوالها لبعض الوقت في الممرّات اقتربت من غرفتي. سمحت لي خفّة نومي بسماع خطواتها وتصوّرت أنّها هي. توقّفت. تعمّدت إسناد رأسها إلى بابي وأحدثت من الضجيج ما يكفي لإيقاظي في حال كنت نائمة. بقيتُ ساكتة؛ بدا لي أنّي سمعت أنينًا، كأنّ أحدًا يتنهّد: أصابتني أوّلاً رعشة خفيفة، ثمّ قرّرت أن أتلو صلاة «السلام عليك». بدل أن تردّ عليّ، سمعت صوت خطواتها تبتعد برشاقة. ثمّ تعود بعد لحظات؛ ليتكرّر معها الأنين والتنهيد؛ تلوتُ «السلام عليك» مرّة ثانية، فابتعدت الخطوات من جديد. هدأتُ، وعدتُ إلى النوم. وبينما أنا نائمة، كان هناك من دخل، وجلس إلى جانب سريري؛ كانت ستائري نصف مفتوحة؛ فشعرت بوجود شمعة وقع ضوؤها على وجهي، وكانت التي تحملها تنظر إليّ كيف أنام؛ هذا على الأقلّ ما أوحاه إليّ تصرّفها عندما فتحت عينيّ، ووجدت أنّ تلك المرأة كانت بالفعل الأمّ الرئيسة.

نهضتُ فجأة، فلاحظت ذعري وقالت لي: «سوزان، اطمئنّي؛ هذه أنا...» أرجعت رأسي إلى الوسادة وقلت لها: «أمّي العزيزة، ماذا تفعلين هنا في هذه الساعة؟ ما الذي أتى بك؟ ولِمَ لا تنامين؟» فأجابتني:

ـ لا أستطيع النوم؛ ولن أنام مطوّلاً لو أنا حاولت. تلاحقني الكوابيس المرعبة وتؤرّقني؛ وما إن أغلق عينيّ حتّى تزور مخيّلتي المعاناة التي مررتِ بها؛ أتصوّرك بين تلك الأيدي عديمة الرحمة، أرى خصلات شعرك المتفرّقة تغطّي وجهك، وأرى قدميك مضرّجتين بالدم، والمشعل بيدك، والحبل حول رقبتك؛ وهناك من يريد قتلك؛ أرتعد، أرتجف، يتبلّل جسمي بالعرق البارد؛ وأريد أن أنقذك، أبدأ الصراخ، وأستيقظ، وأنتظر بلا جدوى عودة النعاس. هذا ما حصل لي الليلة؛ خشيت أن تكون السماء تنذرني ببؤس يصيبك يا صديقتي؛ فنهضتُ، واقتربت من بابك، وأرهفت سمعي؛ تهيّأ لي أنّك لا تنامين؛ تكلّمتِ، فانسحبت؛ ثمّ رجعت، تكلّمتِ أيضًا، فابتعدتُ مرّة ثانية؛ وعدتُ مرّة ثالثة، وعندما اعتقدتُ أنّك تنامين، دخلت. مضى بعض الوقت منذ أن كنت إلى جانبك، خائفة أن أوقظك. تردّدت في فتح الستائر في البداية؛ وأردت أن أغادر، خشية أن أقلق راحتك؛ لكنّي لم أقاوم رغبتي في أن أرى إن كانت غاليتي سوزان بخير؛ ورحت أتأمّلك: كم أنت جميلة، حتّى وأنت نائمة!

ـ أمّي العزيزة، كم أنت طيّبة!

ـ أصابني البرد، لكنّي على الأقلّ لم أعد أخشى أن يصيب طفلتي أيّ مكروه، وأظنّ أنّي سأنام الآن. أعطيني يدك.

وأعطيتها يدي.

ـ كم هو هادئ نبضك، ومنتظم! لا شيء يعكّره.

ـ غالبًا ما يكون نومي عميقًا هادئًا.

ـ أنت محظوظة.

ـ هكذا ستبقين عرضة للبرد، أمّي العزيزة.

ـ أنت على حقّ؛ وداعًا يا صديقتي الجميلة، وداعًا، سأذهب.

غير أنّها بدلاً من أن تذهب، بقيت تنظر إليّ؛ وانهمرت دمعتان من عينيها. قلت لها: «أمّي العزيزة، ما بك؟ أنت تبكين؛ كم أنا نادمة على كوني أخبرتك بمعاناتي!...» في هذه اللحظة أغلقَت باب غرفتي، أطفأت شمعتها، وأقبلت نحوي. عانقتني؛ تمدّدت فوق الغطاء إلى جانبي؛ وجهها ملتصق بوجهي، ودموعها تبلّل وجنتي؛ كانت تتنهّد، وتقول لي بصوت شاكٍ ومتقطّع: «صديقتي الغالية، ارحميني!».

قلت لها:

ـ أمّي العزيزة، ما بك؟ هل تتألّمين؟ ماذا يجب أن أفعل؟

فأجابت:

ـ أنا أرتجف، أرتعش؛ يلفّني برد قاتل ينخر حتّى عظامي.

ـ هل تريدين أن أنهض وأدع لك سريري؟

ـ لا، لا داعي لأن تنهضي؛ فقط ارفعي الغطاء قليلاً، كي أقترب منك؛ كي أشعر بالدفء، وكي أشفى.

قلت لها:

ـ أمّي العزيزة، لكنّ هذا ممنوع. ماذا سيقال إن عُرف الأمر؟ رأيت أخوات ينلن عقابهن لأمور أدنى شأنًا. صدف ذات مرّة في دير سانت ـ ماري أن قصدت إحدى الراهبات غرفة راهبة أخرى ليلاً، وكانت صديقتها، ولا يمكنك أن تتصوّري كم أسيء الظنّ بهما. سألني المدير أكثر من مرّة إن كان أحد اقترح عليّ أن تأتي للنوم بجانبي، ونصحني جدّيًا بأن أتفادى أن يحصل لي هذا. حتّى أنّي حدّثته عن ملامساتك لي؛ أنا أجدها بريئة جدًّا، لكنّه يظنّ خلاف ذلك تمامًا؛ لا أعرف كيف نسيتُ نصائحه؛ كنت أنوي أن أكلّمك عنها.

ـ صديقتي الغالية، الكلّ نيام حولنا، ولن يعرف أحد شيئًا. أنا التي أكافئ أو أعاقب؛ ومهما يقل المدير، لا أرى سوءًا في أن تستقبلي إلى جانبك صديقة سيطر عليها القلق، فاستيقظت وجاءت، في الليل وبالرغم من قساوة الطقس، لترى إن كانت صديقتها الحبيبة في خطر. سوزان، ألم تشاركي في منزل والديك سريرك مع أيّ من شقيقاتك؟

ـ لا، أبدًا.

ـ ولو فرضت المناسبة نفسها، أما كنت استقبلتها بلا تردّد؟ لو أنّ شقيقتك، يؤرقها القلق والبرد، جاءت تطلب لها مكانًا إلى جانبك، هل كنت ترفضين؟

ـ لا أعتقد ذلك.

ـ وأنا، ألست أمّك العزيزة؟

ـ بلى، لكن هذا ممنوع.

ـ صديقتي الغالية، أنا التي أمنعه عن الأخريات، وأسمح لك به وأطلبه منك. أن أشعر بالدفء للحظة،ثمّ أذهب. اعطيني يدك...

وأعطيتها يدي، فقالت: «خذي، المسي، انظري؛ أنا أرتجف، أرتعش، مثل لوح من الرخام...» وكان هذا صحيحًا. قلت لها: «آه! أمّي العزيزة، أنت مريضة. ولكن انتظري، سأحيد إلى طرف السرير، وأنت ستقتربين إلى المكان الدافئ». وابتعدتُ إلى جانب السرير رافعةً الغطاء، فشغلت مكاني. كم كانت متعبة! ترتجف بكلّ أطرافها؛ أرادت أن تكلّمني، أن تقترب منّي؛ لكنّها وجدَت صعوبة في التلفّظ بالكلام، ولم تستطع أن تتحرّك. قالت بصوت منخفض: «سوزان، صديقتي، اقتربي قليلاً...» مدّت ذراعيها؛ كنت أدير لها ظهري؛ أخذتني برفق وجذبتني إليها، فمرّرَت ذراعها اليمنى تحت جسمي والأخرى فوقه، وقالت لي: «أنا كالجليد؛ أشعر ببرد أخاف معه أن ألمسك فأؤذيك».

ـ أمّي العزيزة، لا تخشي شيئًا.

فوضعت إحدى يديها فوق صدري والأخرى حول وسطي. كانت قدماها تحت قدميّ، أضغط عليهما لتدفئتهما؛ فقالت لي الأمّ العزيزة: «آه يا صديقتي الغالية، انظري بأيّ سرعة وصل الدفء إلى قدميّ، فما من شيء يفصلهما عن قدميك».

قلت لها:

ـ لكن ماذا يمنعك من أن تشعري كلّك بالدفء بهذه الطريقة؟

ـ لا شيء، إذا كنت تريدين.

استدرتُ وكانت خلعت ثوبها، وكنت أهمّ أيضًا بخلع ثوبي عندما طرقت الباب ضربتان قويّتان. وثبت من خوفي إلى خارج السرير من جهتي، والرئيسة من الجهة الأخرى؛ أنصتنا، وسمعنا وقع خطوات تعود أدراجها إلى الغرفة المجاورة. قلت: «إنّها الأخت سانت ـ تيريز، ربّما شاهدتك تعبرين الممرّ وتدخلين إلى غرفتي؛ وربّما أصغت إلينا، وسمعت كلامنا؛ ماذا ستقول الآن؟...» كنت ميتة أكثر ممّا أنا حيّة. قالت الرئيسة بنبرة تكشف توتّرها: «صحيح، إنّها هي، لا أشكّ في ذلك؛ لكنّي آمل أن تتذكّر جرأتها هذه مطوّلاً».

قلت لها:

ـ أمّي العزيزة، لا تؤذيها أرجوك.

وأجابت:

ـ سوزان، وداعًا، طابت ليلتك: عودي إلى سريرك، نامي جيّدًا، أنا أعفيك من الصلاة الجماعية. سأذهب إلى هذه المتهوّرة، اعطيني يدك...

مددت يدي من طرف السرير إلى آخره، فرفعَت الكمّ التي تغطّي ذراعي، وقبّلَتها على طولها متنهّدة، من أطراف الأصابع حتّى الكتف؛ وخرجت متوعّدة بأنّ تلك التي جرؤت على إزعاجها لن تنسى فعلتها. بعد خروجها اندفعتُ إلى الجانب الآخر من سريري، قرب الباب، ورحت أصغي. دخلَت إلى الأخت تيريز. راودتني نفسي بالنهوض والذهاب لأقف بينهما، في حال صار الموقف أكثر عنفًا؛ لكنّي كنت مضطربة، مرتبكة، ففضّلت البقاء في سريري، ولم أستطع النوم. فكّرت كيف ستلوكني الألسن؛ وكيف أنّ هذه المغامرة، البسيطة في حقيقتها، ستُروى مشنّعة، في ظروف أسوأ حتّى ممّا حصل في لونشان، حيث لا أدري بماذا اتُّهمت؛ وأنّ غلطتنا ستصل إلى الرؤساء الكبار، فيحقّقون مع الأمّ، وننال نحن الاثنتين عقابًا شديدًا. في هذه الأثناء أعرت سمعي إلى ما يدور، وانتظرت بفارغ الصبر أن تخرج الأمّ الرئيسة من غرفة الأخت تيريز؛ يبدو أنّ المسألة كانت صعبة وشائكة، لأنّ الأمّ أمضت معها تقريبًا الليل بطوله.

****

١٤

في صورة أنسيلمو المتماسكة كرجل محترم، والتي نسجها على مدى سنوات من الكلام القليل والحركات المدروسة، كانت لديه نقطة ضعف واحدة: الرياضة. وبالتحديد أكثر: الإحصائيات الرياضية، المقتصرة بدورها على كرة القدم. تبدأ مواسم وتنتهي أخرى من دون أن يشهد ولو مباراة واحدة من الدوري المحلّي. على أنّه، طبعًا، لا يفوّت المباريات الدولية، ووحده المرض الشديد أو حداد حديث العهد قد يمنعانه من حضور لقاء بين البرتغال وإسبانيا. كان مستعدًّا للقيام بكلّ ما يلزم للحصول على تذكرة في السوق السوداء، ولم يكن لديه مانع، إن سنحت الفرصة، من أن يدخل في المضاربات، فيبيع بخمسين ما اشتراه بعشرين. لكنّه كان شديد الحرص على ألّا يعقد الصفقات مع زملائه في المكتب. فهم يرون فيه صاحب المظهر الرصين الذي تعلو وجهه ابتسامة ساخرة إن هو استمع إلى نقاشات يوم الإثنين، من طاولة إلى طاولة. رجل لا يتطلّع إلّا إلى الجانب الجادّ من الحياة، ويعتبر الرياضة وأخبارها وسيلة يتسلّى بها المتدرّجون في العمل ونوادل المقاهي في أوقات فراغهم. من غير المجدي التحدّث إليه مثلاً عن انتقال لاعب من نادٍ إلى آخر، أو تاريخ مشهودٍ في رزنامة كرة القدم المحلّية، أو

تشكيلة فريق في الفترة ١٩٢٠-١٩٣٠. ولكنّ أحد أقربائه، بحسب ما يقول، مهووس بكرة القدم، المسكين. «إذا شئتم، وإذا ما لقيته يومًا، سأسأله وأمدّكم بإجابة لا تخطئ». كان يستمتع بترقّب زملائه وقلقهم. يدعهم ينتظرون أيّامًا بعد أيّام متذرّعًا: لم يرَ قريبه منذ وقت طويل، كانت علاقتهما متوتّرة نوعًا ما، على قريبه أن يراجع الجداول والسجلّات... أي أنّه كان يخترع حججًا يفرغ لها صبر زملائه. ومرّات عديدة كانت المراهنات تدور فوق الطاولة. يشتعل أنصار نادي بنفيكا وأنصار نادي السبورتنغ حماسًا وينتظرون من شفتي أنسيلمو الحكم المبرم. وحينذاك يجلس أنسيلمو في منزله مساءً، يراجع إحصائياته المشغولة بدقّة، في أقصوصات الصحف القيّمة، ويبحث عن التوضيح المطلوب. وفي اليوم التالي، يضع فوق أنفه النظارات التي يحتاج إليها نظره المتعب، ويرمي كما من فوق منبر عالٍ تاريخ المباراة ونتيجتها. هذا القريب المحترم يُساهم في تعزيز سمعة أنسيلمو كما في مهارته في العمل ومهنيته، وإطلالته المعتنى بها، ودقّته المثالية. لو كان هذا القريب موجودًا في الحقيقة، لكان أنسيلمو ركض إليه وعانقه، على الرغم من ميله إلى السيطرة على العواطف، لأنّه بفضله (هكذا يعتقد الجميع) استطاع أن يمدّ المدير بمعلومات مفصّلة عن المباراة الثانية بين البرتغال وإسبانيا، من عدد مشاهديها حتّى تشكيلة الفريقين وألوان قمصان لاعبيهما، وأسماء حكّام الخطّ. وبفضل هذه المعلومات، استطاع أخيراً الحصول على تصريح بالقسيمة وبالتالي أن يملأ

جيبه بأوراق النقد الثلاث وكلّ منها بقيمة مئة إسكودو، والضرورية لنفقات آخر الشهر.

الآن يجلس أنسيلمو بين زوجته وابنته، وكلاهما تخيطان ثياب العائلة، يفرد خرائطه وجداوله فوق طاولة غرفة الطعام، ويستمتع بمذاق انتصاره. أراد أن يُصلح ما اعتبره ثغرة في معلوماته عن لاعبي الاحتياط في المباراة الثالثة بين البرتغال وإيطاليا، وقرّر أن يكتب في اليوم التالي مستعلمًا إلى صحيفة رياضية تفتح مجال التفاعل أمام قرّائها.

للأسف، لم يستطع نسيان أنّ الشركة ستحسم الثلاثمئة إسكودو من راتبه لهذا الشهر، ما عكّر فرحة نجاحه. ربّما يأمل في أن يستردّوا منه القرض ضمن مهل مريحة في التسديد، لكن المشكلة أنّ أيّ حسم ومهما بلغت قيمته، لابدّ من أن يعيق الدورة الاقتصادية للأسرة.

بينما يجترّ أنسيلمو هذه الأفكار، كان الراديو يبثّ الأغنية الأكثر لوعة وألمًا من أيّ أغنية فادو أطلقتها حنجرة برتغالية. حتّى أنسيلمو الذي لم يكن عاطفيًا كما يعرف الجميع، تأثّر حتّى جوفه وهو يستمع إلى ذلك الأنين الحزين. وقد ساهم في هذا الانفعال وضعه الشخصي، والنقص الرهيب الذي سيُصيب راتبه في آخر الشهر. روزاليا أوقفت إبرتها وكبتت تنهيدتها. وماريا كلاوديا، الهادئة على ما يظهر، تابعت مردّدة بصوت منخفض أبيات الحبّ البائس التي كان يشدو بها صوت المطربة القويّ.

وما تلا آخر «آي» أطلقتها المنشدة كان جوًّا حريًّا بتراجيديا إغريقية أو، بتعبير أكثر عصرية، لحظة تشويق كما في بعض الأفلام الأميركية. نغم فادو آخر من هذا المقياس ولن يبقى من ثلاثة مخلوقات بصحّة كاملة إلّا ثلاثة من مرضى الأعصاب. لحسن الحظّ، انتهى البرنامج لتتبعه بعض الأخبار من الخارج، وملخّص برامج اليوم التالي، ومن ثمّ رفعت روزاليا الصوت لتسمع اثنتي عشرة دقّة تعلن انتصاف الليل.

احتفظ أنسيلمو بنظاراته حيث هي ومرّر يده مرّتين على صلعته وقال وهو يوضّب أوراقه في خزانة الخزفيات:

ـ إنّه منتصف الليل. حان وقت الذهاب إلى السرير، فغدًا يوم عمل.

تجاه هذه الملاحظة، نهض الجميع. وكان في ذلك مدعاة فخر لأنسيلمو الذي كان يرصد في هذه التفاصيل الصغيرة أفضل نتائج تربيته العائلية الممتازة. كان يعتزّ بأنّ لديه أسرة يمكن اعتبارها نموذجية، ويعتزّ أكثر بأنّ كلّ الفضل عائد إليه.

تركت ماريا كلاوديا على وجنتي والديها قبلتين صوتيتين واتجهت إلى غرفتها. حمل أنسيلمو صحيفة المساء بمحاذاة ساقه لقراءة سريعة قبل إطفاء الأنوار واختفى في الممرّ للذهاب إلى النوم. أمّا روزاليا فبقيت لبرهة، منشغلة بترتيب ما خاطته هي وابنتها. أعادت الكراسي إلى أماكنها حول الطاولة، أزاحت أغراضًا هنا وهناك، تأكّدت من انتظام كلّ شيء وسارت على خطى زوجها.

عندما دخلت، نظر إليها أنسيلمو من فوق النظارات وتابع قراءته. مثل أيّ مواطن برتغالي، هو يميل إلى نوادٍ رياضية أكثر من غيرها، لكنّه يقرأ من دون تعصّب أخبار كلّ النوادي، إذ جلّ ما يهمّه المادّة الإحصائية. أن يحسن أعضاء فريق معيّن اللعب أو يسيئوه هو شأنهم الخاصّ، لكن ما يهمّ فعلاً برأيه هو ما يبقى للتاريخ.

بموجب اتّفاق عرفي بين الزوجين، لا يدع أنسيلمو الصحيفة من يده بينما تغيّر روزاليا ثيابها للنوم، وإلّا فهو يعتبر في الأمر انتقاصًا للكرامة. أمّا هي فترى أنّه ربّما ليس في الأمر ما يستحقّ كلّ ذلك... لكنّها تمدّدت في الفراش من دون أن يلمح منها زوجها ولو أخمص القدمين. نعم، في الاحتشام واللياقة حفظ للكرامات...

عند إطفاء النور كان شريط ضوئي آخر يتسرّب من الغرفة المجاورة وعبر إطار الباب. رآه أنسيلمو من مكانه وقال:

ـ أطفئي النور، كلاوديا.

وانطفأ النور في ثوان. ابتسم أنسيلمو في العتمة، فكم جميل أن يعرف المرء أنّه محترم ومطاع. لكن العتمة عدوّة الابتسامات، وتعيد الفكر دومًا إلى ما يقلقه. تململ أنسيلمو، منزعجًا. إلى جانبه، كانت زوجته تلتصق به على طول جسمها، وتدع نفسها تغرق في طراوة الفراش. عندما سألته:

ـ ما بك؟

تمتم قائلاً:

ـ هذه القسيمة المشؤومة. سيحسمون قيمتها من راتبي في آخر الشهر وسأُحشر من جديد بين المطرقة والسندان.

ـ ألا يمكن أن يسحبوها منك على دفعات؟

ـ المدير لا يقبل...

أخيرًا وجدت التنهيدة التي كبتتها روزاليا في صدرها متنفّسًا لها فخرجت وملأت البيت. أنسيلمو أيضًا لم يستطع كبت تنهيدته، ولكن بحدّة أقل؛ تنهيدة رجل. اقترحت روزاليا:

ـ لو أنّهم يزيدون لك راتبك...

ـ هذا غير وارد. حتّى أنّ هناك كلامًا عن صرف بعض الموظّفين.

ـ يا إلهي! أرجو ألّا يصرفوك أنت...

ـ أنا؟

سأل أنسيلمو وكأنّه يفكّر في هذا الاحتمال لأوّل مرّة:

غير ممكن. أنا من الأقدمين في الشركة...

ـ الحالة العامّة سيّئة جدًّا. لا أسمع سوى أناس يشتكون.

فبدأ أنسيلمو:

ـ المشكلة في الأوضاع الدولية...

ـ لكنّه أمسك نفسه. أمن المناسب أن يدلي الآن بحديث عن الظروف الدولية؟ هكذا في ظلام الغرفة، ومشكلة القسيمة من دون حلّ؟

ـ حتّى إنّي خائفة من أن يصرفوا كلاوديا. أعرف أنّ الخمسمئة إسكودو التي تكسبها لا تقدّم الشيء الكثير لكنّها تساعد أحيانًا.

فتذمّر أنسيلمو:

ـ خمسمئة إسكودو... كم هذا قليل!

ـ صحيح، لكن أرجو ألّا تنقص هي أيضًا...

وسكتت فجأة، كأنّها تقلّب في رأسها فكرة ما. أرادت أن تفتح فمها لتطرحها على زوجها لكنّها فضّلت التحضير لها أكثر.

ـ ألا يمكن لأحد معارفك أن يتدبّر مكانًا آخر للصغيرة؟

شيء ما في صوت المرأة أيقظ بعض الشكوك في نفس أنسيلمو، فسألها:

ـ ماذا تقصدين؟

وتابعت هي، بكلّ طبيعية:

ـ ماذا أقصد؟ السؤال واضح جدًّا...

يرى أنسيلمو جيّداً وضوح السؤال، لكنّه يرى أيضًا أنّ زوجته تُخفي فكرة ما. فقرّر ألّا يُسهّل الأمر عليها:

ـ ألست من وجد لها وظيفتها الحالية؟

ـ لكن ألا يمكن أن نجد لها أفضل منها؟

لم يجب أنسيلمو. فالمرأة لا بدّ من أن تنتهي إلى الكشف عن فكرتها كاملة، والصمت هو أفضل وسيلة لدفعها إلى ذلك. روزاليا

غيّرت وضعيتها. أدارت وجهها نحو زوجها، وبطنها السمين بعض الشيء يلامس خاصرته. أرادت استبعاد فكرتها، واثقة من أنّ أنسيلمو سيرفضها بشدّة. لكنّ الفكرة تلحّ وترجع، وتشغل بالها. روزاليا تعرف أنّها إن لم تتكلّم فلن تغفو. تنحنحت قليلاً لتوضّح صوتها، وتجعله مسموعًا أكثر وهي تهمس بما يلي:

ـ خطر لي... أعرف أنّ هذا لن يعجبك... خطر لي أن أتكلّم مع جارتنا التي في الطابق تحت شقّتنا، السيّدة ليديا...

فهم أنسيلمو مباشرة إلى أين تريد زوجته الوصول، لكنّه فضّل أن يدّعي الغباء.

ـ لماذا؟ لم أفهم...

عندئذٍ اقتربت روزاليا منه أكثر، في محاولة للتخفيف من فورته المتوقّعة. قبل سنوات، كانت هذه الحركة لتأخذ معنى مختلفًا تمامًا.

ـ أعتقد أنّها...، وبما أنّ علاقتنا معها طيّبة، أنّها ربّما ستهتمّ...

ـ مازلت لا أفهم شيئًا.

روزاليا تعرّقت. ابتعدت قليلاً وفجأةً، من دون أن تنتقي كلماتها، خلصت إلى القول:

ـ قد تطلب من الرجل الذي يأتي لزيارتها... لا أعرف أيّ منصب مهمّ يشغل في شركة تأمين وربّما يجد مكانًا لابنتنا.

لو كانت ردّة فعل أنسيلمو صادقة، لانفجرت منذ أوّل جملة.

لكنّها خرجت هادئة معتدلة، ولا سيّما أنّ الليل يضع كاتمًا للأصوات.

ـ لا أصدّق أنّك تطرحين مثل هذه الفكرة. تريدين أن أذهب وأطلب معروفًا من تلك... من تلك المرأة؟ ليس في ذلك شيء من الكرامة. لم أكن أنتظر هذا منك.

ثمّ اشتعل أنسيلمو. لو لم يكن في أعماقه موافقًا على الاقتراح، لكان موقفه معقولاً ومقبولاً وكلّ شيء كما يرام. لم يدرك أنّه بوضع المسألة في هذا الإطار، سيجعل موافقته النهائية بعيدة عن المنطق، ويصعّب على زوجته مهمّة متابعة كلامها.

شعرت روزاليا بالإهانة وابتعدت عنه. بين الزوجين الآن مساحة تعادل أميالاً. لاحظ أنسيلمو أنّه بالغ بردّة فعله، وحلّ الصمت مُربكًا للطرفين. كلاهما يعرفان أنّ المسألة لم تُحلّ، ولكنّهما يسكتان: هي من جهتها تفكّر كيف ستتناول الموضوع مرّة ثانية؛ وهو من ناحيته يبحث عن الطريقة المناسبة كي لا يدفع ثمنًا باهظًا لاستسلامه، الذي يبدو الآن مستحيلاً بعد الكلمات التي تلفّظ بها. على أنّهما كانا يدركان أيضًا أنّهما لن يناما قبل أن ينتهيا إلى حلّ للمعضلة، وكان أنسيلمو من اتّخذ الخطوة الأولى.

ـ على كلّ حال... هذا موضوع تجب دراسته... لكنّه يشقّ عليّ...

****

١٥

أخذ باولينو موررايس كامل راحته، تمامًا كمن يجلس في بيته، ولفّ رجلاً فوق الأخرى، وأشعل سيجارة. قرّبت ليديا إليه المنفضة، فابتسم لها شاكراً، واستلقى في مقعده المصنوع من خشب القيقب الأحمر الداكن، ملكيّته الخاصّة في تلك الأمسيات. كان قد خلع سترته ويجلس الآن بالقميص. كان باولينو رجلاً سمينًا حادّ الطباع. عيناه صغيرتان بارزتان في وجهه وكأنّ جفنيه المنتفخين يدفعانهما دفعًا إلى الأمام. حاجباه كثيفان مستقيمان يتّصلان عند أعلى عظمة الأنف، لكنّ بشرته السميكة والطريّة تخفّف من عدائية مظهره. أمّا أذناه المشحمتان فتنفصلان مبتعدتين عن رأسه، يغطّيهما وبر كثير قاسٍ كشعيرات فرشاة الحلاقة. أصلع، لكنّه يسرّح شعره بإتقان متناهٍ، فيغطّي أعلى رأسه بخصلات يرفعها من جهة الصدغين، خصلات يتركها عمداً لتنمو حتّى الطول المطلوب. تبدو عليه هيئة البحبوحة الخاصّة برجل خمسيني لديه خليلة شابّة ومال قديم، وتعلو كامل وجهه، خلف سحابة العطر التي تلفّه، أمارات الغبطة، كوجه من شبع لتوّه ويهضم مأكله بلا صعوبة تذكر.

كان انتهى من رواية طرفة ظريفة وها هو ينظر إلى ابتسامة ليديا بإعجاب وشهيّة. وليس إلى الابتسامة فقط. فاليوم واحد من أيّام حسن

استعداده البدني، ما يدعوه إلى تهنئة نفسه على الفكرة الناجحة التي وجدها منذ زمن والمتعلّقة بما يحبّ أن تلبس له ليديا حين استقباله. كان الإغراق في شؤون الحياة قد أتعبه وسنون العمر أفترت همّته، فسعى باحثًا عمّا ينشّط رغبته، وثياب ليديا أحد هذه المنشّطات. سمع من أصدقائه أنّه ليس من الضرورة أن يكون المظهر مفذلكًا أو إباحيًا صرفًا، بل تكفيه البساطة والإثارة العفوية. كان يحبّ مثلاً أن تستقبله ليديا بقميص النوم المفتوح من جهة الصدر ومن دون أكمام، منسدلة الشعر. ويجب أن يكون القميص من الحرير غير الشفّاف كلّيًا بحيث يرى كلّ شيء، ولا السميك كلّيًا بحيث يحجب كلّ شيء. والنتيجة تناوب لذيذ بين ضوء وظلال يُلهب فكره في الليالي التي كان يشعر فيها برجولته «مكتملة»، أو يمتّع ناظريه في أيّام التعب.

اعترضت ليديا في البداية على هذه الملابس، ثمّ لم تجد بدًّا من القبول. لكلّ رجل أطواره الغريبة وليست هذه من الأسوأ بينها. وهكذا تنازلت، ولاسيّما بعدما جلب لها مدفأة كهربائية تبعث الدفء في الغرفة فلا تتسبّب لها الثياب الخفيفة بأدوار البرد.

هي تجلس الآن على كرسيّ منخفض منحنية صوب عشيقها وتدعه يرى، كما يحبّ، بعضًا من ثدييها المتحرّرين من الصدرية. تعرف أنّ جسمها وحده هو ما يُبقيه عندها فتحرص على إبرازه، شابًّا ومتناسقًا. وبالنسبة إليها، لا يختلف استعراض مفاتنها هنا عن عرضها على الشاطئ، الفرق الوحيد هو الرغبة التي تُثيرها وطريقة جلوسها المغرية.

عندما تقتصر السهرة على كونها عرضًا بهذه الثياب المختصرة، كانت ليديا تقبل بهذه التضحية وتجدها مبرّرة، وتُثني في قرارة نفسها على ذوق باولينو موررايس. وعندما لا تتوقّف المسألة عند هذا الحدّ، فإنّها لا تجد بدًّا من أن تتحدّى رغبتها، وتذعن وتستسلم.

هي تعيش على حسابه منذ ثلاث سنوات. تعرف اختلاجاته وميزاته وتحزر حركاته. وكان أكثر ما تخشاه من هذه كلّها عندما يفكّ حمّالتَي بنطلونه في وقت واحد، حتّى وهو جالس. كان دائمًا يفكّهما في وقت واحد، وكانت ليديا تفهم معنى حركته. هي الآن مطمئنّة: باولينو موررايس يُدخّن، وطالما السيجارة مشتعلة، ستبقى حمّالتا البنطلون مكانيهما.

أدارت ليديا رأسها نحو ساعة البورسلين الصغيرة، بحركة رشيقة تبرز جمال عنقها وكتفيها. ثمّ نهضت وقالت:

ـ حان وقت قهوتك.

وافق باولينو موررايس. كانت ماكينة القهوة تنتظر فوق رخام منضدة الزينة والبنّ في وعائها. أشعلت ليديا الفتيل ووضعت فوقه إبريق الماء، وحضّرت الفنجان والسكّرية. وبينما هي تسير من جهة إلى أخرى في الغرفة، كان باولينو موررايس يلاحقها بعينيه. كانت ساقا عشيقته ترتسمان تحت القماش الخفيف الذي يقولب خصرها بمنحنيات مثيرة. شيء ما خفق داخله، فقد شارفت السيجارة على نهايتها. سألت ليديا:

ـ أتعرف أنّ هناك من طلب منّي خدمة اليوم؟

ـ خدمة؟

ـ نعم، جيراني في الطابق العلوي.

ـ وماذا يريدون منك؟

انحنت ليديا فوق ماكينة القهوة وانتظرت صعود الماء.

ـ ليس منّي أنا، بل منك أنت.

ـ خير إذًا؟ ما الأمر ليلي؟

ارتجفت ليديا: ليلي هو اسم الدلع في ليالي الغرام. أخذ الماء يهمهم، وكما لو أنّ قوّة ما سحبته إلى فوق، ارتفع وتلوّن في الحجرة العليا من وعاء القهوة. ملأت ليديا الفنجان، حلّته بالسكّر على ذوق باولينو وقدّمته إليه. جلست من جديد على الكرسيّ المنخفض وأجابت:

ـ لا أدري إن كنت تعرف أنّ لديهم ابنة صغيرة في التاسعة عشرة من عمرها. موظّفة، لكن الأمّ تقول إنّ راتبها ضئيل. جاءتا تسألان إن كان بالإمكان أن تجد لها عملاً.

وضع باولينو الفنجان على مسند ذراع مقعده الخشبي وأشعل سيجارة أخرى.

ـ وهل يهمّكِ فعلاً أن يُلبّى طلبهم؟

ـ لو لم يكن يهمّني، لما فاتحتك به...

ـ طاقم الموظّفين مكتمل لديّ... حتّى أنّه يفيض بمن لا حاجة بي إليهم... كما أنّي لست من يقرّر...

ـ طبعًا...

ـ إنّه مجلس الإدارة.

ـ ولكن ما تريده أنت...

رفع باولينو الفنجان ثانيةً وارتشف بعض القهوة. لاحظت ليديا تلكُّؤه في إرضائها، وكيف يجلس وكأنّه لا يأخذها بعين الاعتبار. هذا أوّل طلب من هذا النوع تتقدّم إليه به ولا ترى سببًا كي يرفضه لها. من ناحية أخرى، ونظراً إلى وضعها الشاذّ الذي يجعلها محطّ أنظار الجيران المتعالية، سيكون في صالحها أن تجد عملاً لماريا كلاوديا، فتفرح روزاليا وتنشر الخبر في الجهات الأربع وتُعيد لها في المبنى بعض الاعتبار. يُزعجها هذا العزل الذي تعيش فيه، وإذا كانت في الواقع لم تُبدِ كبير اهتمام عندما تلقّت الطلب، فهي الآن وأمام تمنّع عشيقها، تودّ من كلّ قلبها أن تنتزع موافقته. زادت من انحناءتها، وكأنّها تريد أن تُلامس ما يدعه الخفّان يظهر من بشرة وردية أعلى قدميها، فانكشف لباولينو بهذه الحركة صدرها كاملاً:

ـ لم أطلب منك يومًا طلبًا كهذا. ستُفرحني جدًّا إن أنت حقّقت ما طلبوه منّي، وفي الوقت نفسه ستُرضيني وتساعد عائلة محتاجة.

كانت ليديا تُغالي باهتمامها، وبحسب ما تعلم، تُغالي أيضًا في وصف عوز جيرانها في الطابق العلوي. لكنّها مضت في صيغة المبالغة وقامت بحركة ثانية فُتن بها باولينو مورايس، لندرتها: وضعت إحدى يديها على ركبة عشيقها المستديرة، فاهتزّ لها جناحا أنفه:

ـ لا أرى داعيًا لغضبك. أنا لم أقل لك لا...

عرفت ليديا من ملامح وجهه الثمن المطلوب منها مقابل نصف قبوله هذا. لم تكن ترغب في فتح سريرها الليلة، والآن ترى مدى رغبته هو في ذلك. أرادت أن تتراجع عن الانطباع الذي أحدثته، وحتّى أن تسحب طلبها، لكن باولينو الذي اضطرب من الملامسة، تابع قائلاً:

ـ سأرى ما يمكن فعله. ماذا تعمل؟

ـ يبدو أنّها طابعة...

ووضعت ليديا في عبارة «يبدو أنّها» كلّ غصّتها. فجأة قست، وسحبت يدها من على ركبته، وبدت كأنّها ترتدي أسمك ما لديها من فساتين. لاحظ هو تحوّلها واحتار لعجزه عن أن يحزر ما يدور في خلدها. أنهى ارتشاف قهوته وسحق طرف سيجارته في المنفضة. فركت ليديا ذراعيها بيديها كما لو كانت تشعر بالبرد، ونظرت إلى ثوبها المنزلي المرمي فوق السرير مدركةً أنّها ستُعكّر صفو باولينو فيما لو لبسته. راودتها نفسها بأنّ تلتحف به لكنّها خافت. كانت متعلّقة جدًّا بالأمان الذي هي فيه ولا تريد أن تفسده بحركة تافهة كهذه. شبك باولينو أصابع يديه ببعضها فوق بطنه وقال:

ـ الأربعاء، دعي الفتاة تأتي للتحدّث إليّ.

رفعت ليديا كتفيها:

ـ لا بأس.

خرج صوتها جافًّا باردًا. نظرت بطرف عينها إلى باولينو، ورأته مقطّب الجبين. لامت نفسها على هذا النوع من الشغب الذي تُثيره. رأت أنّها تتصرّف مثل طفلة وأرادت أن تُصلح ما أفسدته. ابتسمت له، لكن ابتسامتها بقيت نحيلة جامدة، ولم يفكّ باولينو عقدة حاجبيه. بدأت تشعر بالخوف وبحاجة ملحّة إلى أن تجد وسيلة تسرّه بها. أرادت أن تتكلّم، لكنّها لم تجد ما تقول. لو أنّها تعدو نحوه الآن وتقبّله على فمه ستمرّ السحابة بسلام، لكنّها غير قادرة على ذلك. لا تريد أن تسلّم نفسها؛ تريد أن تستسلم، ولكن مع وقف التنفيذ.

ومن دون تفكير، كأنّما بالفطرة، أطفأت نور غرفة النوم واتّجهت بعد ذلك، في الظلمة، إلى منضدة الزينة فأضاءت مصباحًا عموديًا عاليًا موجودًا في إحدى الجهتين، واكتمل تحضير المشهد بخفوت الضوء. بقيت للحظة بلا حراك. تعرف أنّ كلّ قوامها، العاري تحت قميص النوم الحريري، يرتسم أمام عيني عشيقها، فاستدارت نحوه ببطء. وفي هذه اللحظة بالذات رفع باولينو موريس يديه الاثنتين وفي وقت واحد، فكّ حمّالتَي بنطلونه.

****

١٦

توقّف أبيل في سفرة الدرج ليدخّن سيجارة وفي اللحظة نفسها أضاء المكان. سمع صوت باب يُفتح تلاه حديث هامس ووقع خطوات ثقيلة أنّت لها الدرجات. سحب المفتاح من جيبه وتعمّد التأخّر في العثور على ثقب قفل الباب، ووجده فقط بعد تأكّده من اقتراب الشخص الذي ينزل السلالم. استدار وعلى الفور حزر أنّه باولينو مورايس. تمتم هذا الأخير عبارة «مساء الخير» من باب التهذيب، فردّها أبيل بالطريقة ذاتها وقد صار داخل الشقّة.

بينما هو في الممرّ سمع فوق رأسه خطوات ترافقه بالاتّجاه نفسه، وعندما دخل غرفة نومه كانت الخطوات تبتعد. أشعل النور ونظر إلى ساعة يده: إنّها الثانية وخمس دقائق فجرًا.

فتح أبيل النافذة ليُخفّف من جوّ الغرفة الخانق. كان الليل مثقلاً بغيوم تمرّ في السماء متباطئة تنعكس عليها أضواء المدينة، أمّا الحرارة فكانت قد ارتفعت وازداد الجوّ دفئًا ورطوبة. تبدو المباني المحيطة بالحدائق الخلفية الصغيرة، النائمة في هذه الساعة، وكأنّها حرس يُحيط ببئر مظلمة. وحده ضوء غرفته ينبعث من النافذة ويتساقط على الحديقة فتلوح جذوع شتلات الملفوف الباهتة عديمة الجدوى والتي، حتّى في هذه العتمة، تستعير مَظْهَرَ مَنْ أفاق من نومه بغتة.

اشتعل نور آخر أضاء الجهات الخلفية للمباني المواجهة. شاهد أبيل غسيلاً منشوراً، وآنية للشتول، وانعكاس الزجاج المتماوج بسبب الضوء. يطيب له أن ينهي تدخين سيجارته جالسًا فوق سور الحديقة، وكي لا يمرّ عبر المطبخ، قفز من النافذة، فسُمع من بيت الدجاج تململ طير أو طيرين. سار بين شتل الملفوف، وشاهد وراء زجاج الشرفة الناتئة ظلّ ليديا وهي تتّجه إلى غرفة حمّامها. ابتسم ابتسامة حزينة آسفة، ففي الساعة نفسها، تقوم مئات النساء اللواتي يشبهن ليديا بما تقوم هي به... لقد عاد متعبًا، بعدما اجتاز شوارع خلف شوارع، ورأى وجوهًا بعد وجوه، وطارد ظلالاً بعد ظلال... وها هو الآن هنا، في حديقة سيلفستري، يدخّن سيجارته غير آبه بالحياة... فكّر في نفسه: «وكأنّي روميو في حديقة آل كابوليت. لا ينقص سوى القمر. وبدلاً من جولييت البريئة، لدينا ليديا الخبيرة. وبدلاً من عذوبة الشرفة، هناك نافذة حمّام، ودرج الطوارئ عوضًا عن سلّم الحرير». أشعل سيجارة جديدة وتابع مفكّرًا: «لحظات وتقول: من أنت أيّها المتخفّي تحت أستار الليل، فأحاط بكنون أسراري؟».

ابتسم متلطّفًا لفكرة أنّه يقتبس عن شكسبير. حاول تجنّب السير على شتلات الملفوف، وتقدّم ليجلس على السور. لا يعرف لِمَ هو يشعر بالحزن. لا شكّ في أنّه الطقس المثقل الذي يُنذر بالعاصفة. نظر مرّة ثانية إلى الأعلى فرأى ليديا تخرج من حمّامها. وربّما لأنّها هي أيضًا تشعر بالحَرّ، فتحت النافذة وأطلّت منها.

فكّر أبيل: «الآن جولييت رأت روميو. ماذا سيحصل؟». نهض

عن السور وتقدّم إلى وسط الحديقة. ليديا لم تترك النافذة. «الآن يجب أن أقول بأعلى صوت: أيّ ضوء ذلك الذي يتكسّر من ذلك الشبّاك؟ إنّه الشرق، وجولييت هي الشمس!» لكنّه آثر أن يحيّي مبتسمًا.

ـ مساء الخير.

بعد برهة صمت، جاء صوت ليديا:

ـ مساء الخير.

واختفت.

سحب أبيل نفسًا من سيجارته وهمس محدّثًا نفسه بينما هو يعود إلى البيت:

ـ «لم يخطر في بال شكسبير أن يُنهي المشهد بهذه الطريقة».

****

١٧

ساءت صحّة إنريكي على نحو غير متوقّع، فلم يكن بدّ من الهرع إلى الطبيب، الذي طلب إجراء تحليل للدم يدحض الشكّ في وجود جرثومة مرض الخناق أو يثبته. لقد ارتفعت حرارة الطفل ارتفاعًا شديداً حمله على الهذيان، وألقت كارمن اليائسة بمسؤولية استفحال المرض إلى هذه الدرجة على عاتق زوجها، فاستمع إميليو إلى تذمّراتها وكالعادة، لم يجب. كان يعرف أنّ زوجته على حقّ، وأنّها من البداية اقترحت الاتّصال بالطبيب. شعر بالأسى والندم وبقي طوال يوم الأحد إلى جانب ابنه، وفي اليوم التالي ركض في الموعد المحدّد ليجلب نتيجة التحليل ويتنفّس الصعداء أمام نفي وجود البكتيريا. لكن عندما قرأ في الورقة أنّ في حالات كثيرة لا يكفي تحليل واحد، عاوده القلق وأغرقه من جديد.

الطبيب من جهته أعرب عن ارتياحه وتوقّع تعافيًا سريعًا، بعد فترة أربع وعشرين ساعة. فالتصق إميليو بسرير الطفل المريض طوال اليوم. كارمن، الساكتة والباردة بعد آخر جدال، كانت لا تكاد تتحمّل حضور زوجها الذي كان في العادي من الأيّام يثير حفيظتها، فكيف الآن وهو لا يفارق غرفة النوم ويسرق منها أغلى ما عندها: حبّ ابنها.

وكي تُبعد إميليو عمدت كارمن إلى تذكيره بأنّ الرزق لا يُحصّل بين أربعة جدران، وأنّهم في حاجة إلى النقود مع ما يتطلّبه المرض من نفقات. ومن جديد، كان ردّ إميليو الصمت. هذه المرّة أيضًا كانت الزوجة محقّة وكان من الأفضل أن يترك إنريكي في عنايتها هي. لكنّه غير قادر على مغادرة البيت. سكنه هاجس المسؤولية عن تفاقم حالة ابنه لأنّ المرض اشتدّ عليه فقط بعد تلك الكلمات التي قالها على مسمعه. وكان حضوره الآن بمثابة تكفير له، عديم الجدوى مثل أيّ محاولة تكفير، ولا يُفهم منه شيء إلّا أنّه بملء إرادته.

هكذا لم يأوِ إلى فراشه في الساعة المعتادة، على الرغم من إلحاح زوجته. وهي أيضًا، كي تبرهن أنّها لاتقلّ عنه حبًّا لابنها، قرّرت مثله ألّا تنام. على أنّه لم يكن هناك الكثير ممّا يُمكنهما فعله. فقد تابع المرض مجراه الطبيعي، بعد احتدامه. أُعطيت الأدوية للصغير وبقي انتظار أن تعطي مفعولها. لكن لم يكن أيّ من الوالدين مستعدًّا للتنازل، وقد قام بينهما نوع من التحدّي، أو المعركة الصامتة. كارمن تحارب للحفاظ على عطف إنريكي، والذي كانت تراه في خطر في ظلّ وجود زوجها وعنايته المتواصلين. وإميليو يناضل فقط ليُسكت تأنيب ضميره ويُعوّض باهتمامه اليوم عن إهماله بالأمس. كان يعي أنّ كفاح زوجته مبرّر أكثر، في حين يحمل كفاحه هو في طيّاته شيئًا من الأنانية. طبعًا هو يحبّ ابنه، فهو أنجبه ولا يمكن ألّا يحبّه، والعكس أمر مخالف للطبيعة. لكنّه يعي أيضًا وبكلّ وضوح

أنّه غريب في هذا البيت، وأنّه لا يملك شيئًا ممّا يحيط به، حتّى ولو كان اشتراه بنقوده. إذ ليس من الضروري أن تكون مالكًا ما بين يديك. قد يكون بين يديك مثلاً شيء لا ترغب فيه. أن تملك يعني أن تستمتع بما لديك. لدى إميليو بيت وزوجة وابن، لكن لا شيء كان في الواقع ملكه. ما يمكن القول عنه إنّه ملكه، هو نفسه فقط، وليس كلّيًا أيضًا.

أحيانًا يفكّر إميليو ما إذا كان قد مسّه الجنون، ما إذا كانت كلّ هذه الطريقة في العيش، وهذه المشادّات، هذه العواصف والخلافات الدائمة ليست بالنهاية سوى نتيجة اختلال عصبي. في الشارع كان، أو يعتقد أنّه كان، كائنًا طبيعيًا، قادراً على الضحك أو الابتسام مثل كلّ الناس، ولكن يكفي أن يتجاوز عتبة بيته عائداً حتّى يشعر بعبء لا يُحتمل يقع على رأسه. هنا يحسّ بأنّه على وشك الاختناق، ويملأ رئتيه بدل الهواء الذي يمنحه الحياة، بالماء الذي يقضي عليه ويُغرقه. يعتقد أنّ عليه أن يكون سعيدًا بما قدّمت له الحياة، فغيره أقلّ منه نصيبًا ويعيش مع ذلك راضيًا. على أنّ هذه المقارنة لا تحمل إليه الاطمئنان وراحة البال. لا يعرف بالتحديد ما الذي يمنحه الاطمئنان وأين يكمن. ولا يعرف حتّى إن كان هذا الاطمئنان موجوداً أصلاً. ما يعرفه، بحكم سنيّ خبرته، هو أنّه لا ينعم به، ويعرف أنّه يتمنّاه كما يتمنّى الغريق خشبة النجاة، ويحتاج إليه كما البذار إلى الشمس.

ألف مرّة كانت هذه الأفكار تدور في رأسه وتقود في كلّ مرّة

إلى المكان ذاته. كان يُشبّه نفسه بحيوان مقرون إلى ناعورة، يجتاز الكيلومترات الطويلة ضمن دائرة ضيّقة، معصوب العينين، ولا يعرف لماذا يمرّ آلاف المرّات في المكان ذاته. إميليو ليس ذلك الحيوان، وليس معصوب العينين، لكنّه يدرك أنّ التفكير يحمله دائمًا إلى درب داسه وحفظه. وكونه يعي كلّ ذلك يزيد الأمور سوءًا لأنّه هكذا، وبصفته إنسانًا، يتصرّف خارج حدود العقل. والحيوان يتعذّر لومه على خضوعه للنير. ولكن هو، ألا يُلام؟ أيّ قوّة تُقيّده؟ العادة، الجبن، الخوف من إيلام الآخرين؟ ولكنّ العادات تتبدّل، والجبن تمكن السيطرة عليه، وألم الآخرين غالبًا ما يأتي أقلّ من ألم الشخص نفسه. ألم يسبق له أن أدرك، أو على الأقلّ حاول أن يدرك، أنّ غيابه سيُنتسى؟ فلمَ يبقى إذاً؟ أيّ قوّة تلك التي تشدّه إلى ذلك البيت، إلى تلك المرأة، إلى ذلك الطفل؟ ومن ذا الذي جدل الحبال التي تقيّده؟

كلّ ما حصل عليه من إجابة هو: «أنا متعب». متعب لدرجة أنّه مع معرفته بأنّ كلّ أبواب سجنه قد تُفتح وأنّ بيده مفتاحها، لا يقوم بأيّ خطوة صوب الحرّية. اعتاد على هذا التعب وصار يجد فيه المتعة، متعة من يتخلّى وينسحب، متعة من يُدرك أنّه حانت لحظة القرار، فيُؤخّر الساعة ويقول: «بعد قليل»، متعة التضحية. لكنّ التضحية لا تكتمل إلّا إذا كانت خفيّة. أمّا إعلانها وتذكير الآخرين بها كلّ ساعة عبر كلمة «أنا أضحّي» يعني إلزامهم بعدم نسيانها، ويعني أيضًا أنّ التنازل غير مكتمل إلى الآن، وأنّه خلف التخلّي يوجد أمل، كما توجد السماء الزرقاء في مكان ما أبعد من الغيوم.

نظرت كارمن إلى زوجها ولاحظت شروده. منفضة إميليو ممتلئة بأعقاب السجائر وهو لا يتوقّف عن التدخين. ذات مرّة حسبت كارمن المال الذي يُنفق على السجائر وكان ذلك دافعًا لخناقات مريرة. أخبرت والديها فأسفا كثيراً للموضوع: مالٌ يُحرق، مالٌ يُرمى، مالٌ العائلة بأمسّ الحاجة إليه. هذه العادات السيّئة مقبولة في صفوف الميسورين، ومن يريد امتلاكها فليغتنِ أوّلاً. لكنّ إميليو، مندوب المبيعات لعدم توفّقه في عمل آخر، وبداعي الضرورة وليس المهارة أو الموهبة، لا يُبدي ولم يُبدِ يومًا ما يدلّ على رغبته في الاغتناء. يكتفي بالحدّ الأدنى من أمور الحياة ولا يتجاوزه. يا لهذا الرجل ويا لهذه الحياة! كارمن كانت من طينة أخرى، من العرق الذي يرى الحياة كلّها كفاحًا وليست للتأمّل. هي نشيطة وهو متقاعس. هي كتلة من العصب والعظم والعضل تولّد قوّة وإرادة واضحتين؛ وهو كتلة مماثلة ولكنّ العظام والعضل والأعصاب ترزح تحت اليأس والالتباس، وتلتفّ بسحابة من الضعف، الواضح أيضًا.

نهض إميليو ودخل غرفة ابنه والطفل نائم. كان نومه من النوع المضطرب يستيقظ منه بين حين وحين، ليعود ويغطّ فيه بين حين وحين، وتخرج كلمات مبهمة من بين شفتيه الجافّتين. وتُرى عند شقّي فمه فقاقيع صغيرة شفّافة تدلّ على مرور الحمّى. وضع إميليو مقياس الحرارة بكلّ دقّة تحت إبط الولد وانتظر الوقت اللازم ثمّ عاد إلى غرفة الطعام. رفعت كارمن نظرها عمّا كانت تخيطه لكنّها لم تطرح أيّ سؤال. نظر هو إلى مقياس الحرارة: ٣٩,٢ درجة. بدا أنّ

الحرارة تنخفض. بقي المقياس على الطاولة بمتناول كارمن، وعلى الرغم من كلّ تحرّقها لأن تعرف، لم تمدّ يدها، وبقيت في انتظار أن يبتعد الزوج.

قام إميليو ببضع خطوات متردّدة. دقّت ساعة حائط الشقّة العليا ثلاث دقّات وكارمن تنتظر، جالسة لأنّ قواها تخونها، وتشدّ على أسنانها لتمنع نفسها من قول الكلام المهين. ثمّ قام إميليو واتّجه إلى السرير. كان متعبًا من السهر الطويل على ابنه، متعبًا من زوجته ومن نفسه. شعر بالقلق يقبض على حلقه: كان القلق ما يمنعه من الكلام، ويُجبره على الانسحاب مثل من يختبئ كي يموت... أو كي يبكي.

بالنسبة إلى كارمن كان هذا الدليل القاطع على انعدام المشاعر لدى زوجها. وحده الوحش يتصرّف هكذا: يتركها غارقة في الأسى ويخلد للنوم كما لو أنّ شيئًا لم يكن، كما لو أنّ مرض الطفل مجرّد لعبة.

نهضت واقتربت من الطاولة. نظرت إلى مقياس الحرارة ثمّ رجعت إلى مكانها. لم تذهب إلى السرير تلك الليلة. بقيت في ساحة المعركة مثل من كان يفوز في حروب القرون الوسطى. لقد حقّقت انتصارها. وإلى ذلك لم تكن تطيق، تلك الليلة، أن تكون على مقربة من زوجها.

****

١٨

كايتانو كونيا، وبحكم ظروف وظيفته، يعيش حياة أشبه بحياة الخفافيش. يعمل بينما يرقد الآخرون. وفي وقت راحته، يفتح الآخرون عيونهم ونوافذهم، ويخرجون تحت الشمس إلى أعمالهم. هذا الواقع يعطيه شعوراً بنوع من الأهمّية. هو يؤمن إيمانًا تامًّا بتفوّقه على عامّة الناس لأكثر من سبب، ليس أقلّها حياة الليل هذه التي يلتصق فيها بماكينة الطبع بينما المدينة نائمة.

عندما يخرج من الصحيفة، والليل لا يزال مُسدلاً ظلمته، ويرى الشوارع الخالية تلمع في الرطوبة التي يحملها الفجر من ناحية النهر، تأخذه السعادة. يحبّ قبل رجوعه إلى البيت أن يهيم في الشوارع الصامتة التي تمرّ بها خيالات النساء. ومع تعبه، يتوقّف للتحدّث إليهن. وإذا وجد ما يعجبه، يباشر إلى المزيد. لكن حتّى لو لم يكن هناك من مزيد، تكفيه متعة الحديث.

كايتانو يحبّ النساء، كلّ النساء. يضطرب لمجرّد أن يلمح تنّورة تتماوج، ويشعر بصفة خاصّة بجاذبية لا تُقاوم تجاه النساء السهلات. الرذيلة، الانحلال، والحبّ الذي يُشترى بالنقود، كلّها أمور يفغر لها فوه. يعرف تقريبًا كلّ بيوت الدعارة في المدينة؛ يذكر ويحفظ ظهرًا

عن قلب لوائح الأسعار، ويفتخر بأنّه قادر على أن يتذكّر، من دون أن يخترع، أسماء عشرات النساء اللواتي شاركهن السرير.

من بين كلّ النساء، يزدري واحدة لا غير: زوجته. فهو يعتبر جوستينا كائنًا لا جنس له، لا رغبة أو حاجة لديه. إذا صادف أن لامسته خلال تحرّكها في السرير، يبتعد نافرًا، منزعجًا من نحولها، من عظامها الحادّة، من بشرتها المفرطة في الجفاف مثل ورق البردى. «هذه ليست امرأة، إنّها مومياء»، هكذا رأيه بها.

جوستينا التي انطفأت فعلاً في داخلها نار الرغبة، ترى الازدراء باديًا في عينيه وتسكت، وتردّ على احتقاره باحتقار أكبر. تعرف أنّه يخونها وترفع كتفيها غير مبالية. لكن ما لا تطيق هو تبجّحه بمغامراته داخل البيت. ليس لأنّ الغيرة تلمّ بها، بل لأنّها بعد إدراكها حجم وقوعها المرير بزواجها من هذا الرجل، لا تريد أن تهبط إلى مستواه. عندما ينجرف كايتانو بطبعه الناري سريع الغضب والاشتعال، ويُوجّه إليها الكلام الجارح ويُقيم المقارنات الخسيسة، تُسكته بجملة بسيطة واحدة. هذه الجملة، مقارنة بسلوك كايتانو كزير نساء، هي مهانة قاسية كفيلة بأن تُذكّره بفشل لا يزال حيًّا في جسده وروحه. أكثر من مرّة حدثته الرغبة في أن يضرب زوجته ضربًا مبرحًا حالما يسمعها، لكن جوستينا كانت تصمد أكثر في لحظات كهذه، في عينيها نار متوحّشة، وفي فمها تشنّج لكثرة الاحتقار، فيجبن.

لذلك فإنّ الصمت بين الاثنين هو القاعدة، والكلام الاستثناء.

ولذلك أيضًا، وحدها الأحاسيس المتجمّدة والنظرات الغريبة الباردة تملأ فراغ الساعات التي يُنفقانها معًا. ورائحة العفن التي تُغرق البيت وتُسبغ عليه مناخًا أشبه بمناخات الأمكنة تحت الأرضية، هي أشبه برائحة القبور المهجورة.

يوم الثلاثاء هو يوم إجازة كايتانو. هذه الساعات الأربع والعشرون تُتيح له أن يصل إلى البيت بعد ارتفاع الضحى، فينام إلى ما بعد انتصاف النهار وعندها فقط يتناول غداءه. ربّما بسبب هذا التغيّر في موعد الطعام، أو ربّما لفكرة أنّه سيمضي ليله في السرير إلى جانب زوجته، كانت أيّام الثلاثاء أكثر الأيّام التي يسوء فيها مزاج كايتانو باستمرار، على الرغم من محاولته كبته. في تلك الأيّام تزداد جوستينا تمسّكًا بتحفّظها وتبدو، فعلاً وقولاً، منطوية على نفسها. وعلى الرغم من اعتياد كايتانو على وجود هذه المسافة بينهما والتي من المستحيل أن تقصر، يستغرب كيف أنّها تمعن أكثر في الابتعاد. ومن باب الردّ عليها، يمعن هو في فظاظة تصرّفاته وكلامه، وفي توتّر حركاته. يُزعجه مثلاً كيف أنّ زوجته تختار أيّام الثلاثاء كي تُعرّض ملابس ابنتهما للهواء وتغسل بكلّ عناية زجاج الإطار الذي يحمل صورتها وابتسامتها الأزلية. يبدو له أنّها بهذا الاستعراض تتهجّم عليه. طبعًا كايتانو متيقّن من أنّه لا يوجد في هذا المجال ما يستحقّ التهجّم عليه هو، ومع ذلك لا يُمكن لهذا الاستعراض للذكريات إلّا أن يزعجه.

الثلاثاء هو يوم التجهّم في بيت كايتانو كونيا. يوم من التوتّر

العصبي تترك فيه جوستينا عالمها المجرّد عندما تُجبر على ذلك لتُصبح عنيفة وعدائية. يوم يخشى فيه كايتانو أن يفتح فمه لأنّ كلّ كلامه يكون مشحونًا بالكهرباء. يوم يستلذّ فيه شيطان ماكر يقلِبُ جوّ المنزل إلى مناخ يستعصي على التنفّس.

مسحت السماء السحب التي غطّتها ليلة أمس. كانت الشمس تدخل عبر زجاج الشرفة الناتئة وتعكس على أرضها ظلّ درابزين الحديد وكأنّه قضبان السجن. أنهى كايتانو غداءه ونظر إلى الساعة التي قاربت الرابعة عصرًا. نهض متثاقلاً. اعتاد على النوم من دون سروال بيجامته. كرشه المستدير يملأ السترة الواسعة ويُضفي عليه هيئة دمية من تلك الدمى الممتلئة التي ابتكرها رافاييل بوردالو. لا شيء مضحكًا أكثر من بطنه المنفوخ، لا شيء أكثر بشاعة من وجهه المحمرّ، مضافَين إلى طبعه. غير أنّ كايتانو غير المدرك لهذا أو لذاك، خرج من غرفة نومه، واجتاز المطبخ، من دون أن ينبس بكلمة لزوجته، ودخل غرفة الحمّام. فتح النافذة ونظر إلى السماء، فرمشت عيناه بسبب الضوء الساطع كما لو كان طائرًا ليليًا. نظر غير مُبالٍ إلى حدائق الجيران الداخلية الصغيرة، وإلى ثلاث قطط تلعب فوق أحد الأسطح، ولم يلتفت ولو بنظرة إلى تحليق جميل تؤدّيه سنونوة رشيقة.

تسمّرت عيناه على نقطة قريبة جدًّا. كان يلوح عبر نافذة حمّام ليديا المجاورة كمّ ثوب حمّام وردي اللون. من وقت إلى آخر، تكشف حركة الثوب عن ذراع يظهر حتّى الكوع. كان كايتانو مستندًا إلى

إطار النافذة والجزء الأسفل من جسمه غير منظور، ولا يحيد نظره عن الثوب الوردي. ما يراه لا يتعدّى كونه جزءًا يسيرًا جدًّا، لكنّه كافٍ لإثارته. أخرج نصف جسمه أكثر والتقى بعيني زوجته التي كانت تنظر إليه ساخرة عبر زجاج الشرفة الناتئة. فجأة قست ملامحه وفجأة رأى زوجته تظهر أمامه بسرعة لتقدّم له وعاء الماء:

ـ الماء الساخن...

لم يشكرها. أغلق الباب من جديد. وبينما هو يحلق ذقنه، بقي يتجسّس على نافذة ليديا. لقد اختفى ثوب الحمّام. ومن مكانه عاد كايتانو والتقى بنظرة زوجته. كان يعرف أنّ أفضل وسيلة لتفادي العاصفة التي تُنذر بالهبوب هي أن يكفّ عن النظر، وكان هذا أمرًا سهلاً بما أنّ ليديا لم تعد حيث كانت. لكن الإغراء كان أكبر من الحذر، وفي لحظة ما، بعدما طفح به الكيل من تلصّص زوجته، فتح الباب وسألها:

ـ أليس لديك أيّ عمل آخر؟

كانت اللغة دائمًا فاترة بينهما. رمته جوستينا بنظرة ومن دون أن تُجيب، أدارت له ظهرها. أغلق كايتانو الباب وتخلّى عن النظر إلى الخارج. عندما خرج حليقًا نظيفًا، لاحظ زوجته وهي تسحب من شنطة في المطبخ قطعًا من ثياب صغيرة كانت لماتيلدا. ولولا ذاك النوع من العبادة الذي يلوح في عينيها، لكان كايتانو مرّ من دون أن يتذمّر. ولكن، مرّة جديدة، تراءى له أنّها تنتقده:

ـ متى ستكفّين عن التجسّس عليّ؟

استغرقت جوستينا بعض الوقت قبل أن تردّ. بدت كأنّها تعود على مهلها من مكان بعيد، من بلد ناءٍ يُقيم فيه مواطن واحد.

ـ أنا معجبة بإصرارك.

تقدّم نحوها خطوة وسألها:

ـ إصراري على ماذا؟

بدا مضحكًا بساقيه العاريتين وسرواله الداخلي. رمقته جوستينا بنظرة ساخرة. كانت تعرف أنّها دميمة محرومة من أيّ نوع من الجاذبية، لكن عندما رأت زوجها بتلك الهيئة، انتابتها رغبة شديدة في الضحك منه وجهًا لوجه.

ـ هل تريد أن أقول لك؟

ـ أريد.

وتاه كايتانو. قبل هذه الكلمة، كان لديه المجال لتجنّب الصفعة التي ستنهال عليه. قال: «أريد» وندم فورًا، ولكن بعد فوات الأوان.

ـ ألم تفقد الأمل بعد؟ ألا تزال مقتنعًا بأنّها لا بدّ من أن تقع في ذراعيك؟ ألم يكفِ ما حصل كي تشعر بالخجل؟

ارتجفت ذقن كايتانو من شدّة غضبه، وتركت شفته السفلى الغليظة اللعاب يسيل من شقّي فمه. واصلت جوستينا:

ـ هل تريد أن يطلب منك عشيقها تفسيرًا جديدًا لوقاحتك؟

ثمّ كما لو أنّها تسدي إليه بنصيحة، أضافت بتودّد هازئ:

ـ احتَرِم نفسك. إنّها قطعة فنّية أجمل من أن تلمسها يداك. اكتفِ بالأخريات، باللواتي تحمل صورهن في محفظتك. لا أحسدك على ذوقك. عندما تأخذ أيّ منهن صورة شمسية لسجّلها، تحسب حسابك بواحدة، صح؟ كأنّك نوعًا ما فرع آخر للشرطة...

شحب لون كايتانو. لم تصل زوجته يومًا بجرأتها إلى هذا الحدّ. أغلق قبضتَي يديه وسار نحوها:

ـ يومًا ما سأحطّم هذه العظام! يومًا ما سأدوس عليك بقدميّ معًا! هل تسمعين؟ لا تستفزّيني!...

ـ لا تقدر.

ـ أهذا ما تعتقدينه يا شـ...

وخرج من بين شفتيه وصف شنيع كادت جوستينا أن تردّ عليه.

ـ لست أنا من يستحقّ الشتيمة، بل أنت. أنت الذي ترى في جميع النساء هذا الذي تقوله.

تأرجح جسم كايتانو الثقيل مثل الغوريلا. الغليان والغضب العقيم دفعا بالكلمات صوب فمه، لكنّها كلّها تضاربت وأعاقته. رفع قبضته المغلقة ينوي أن يهوي بها على رأس زوجته. وعندما لم تبتعد، أنزل ذراعه على مهل، مقهورًا. بدت عينا جوستينا مثل

جمرتين. أمّا كايتانو الذي تأكله المهانة، فقد اختفى في غرفة النوم صافقًا الباب وراءه.

القطّ في هذه الأثناء، الذي كان ينظر إلى سيّده وسيّدته بعينيه الزيتونيتين، سار عبر الممرّ المعتم ليرمي بنفسه في سلّته صامتًا، غير مبالٍ.

****

١٩

مضت ساعتان وإيساورا تتقلّب في سريرها غير قادرة على النوم، وكلّ المبنى غارق في السكون. يصل من الشارع، بين حين وحين، صوت خطوات عابر ليلي عائد إلى بيته، ويدخل من النافذة ضوء النجوم الشاحب والبعيد، ويكاد لا يلمح النظر في عتمة غرفة النوم ظلال الأثاث الأكثر سوادًا، وتعكس مرآة الخزانة الضوء الخافت الذي يلوح من النافذة. كلّ ربع ساعة، وبالتزام تامّ مثل الزمن نفسه، تُصدر ساعة جيران الطابق السفلي دقّة من دقّاتها فتزيد من حضور الأرق وحدّته. كلّ شيء كان يستريح في الصمت والرقاد، إلّا إيساورا. حاولت بكلّ الطرق أن تنام. عدّت حتّى الألف وأعادت العدّ، أرخت عضلاتها واحدة واحدة، أغمضت عينيها، حاولت أن تنسى سهادها وتخدعه بالانزلاق رويدًا رويدًا في بلاد النوم. بلا جدوى. كانت كلّ أعصابها مستنفرة، وتفكيرها يحملها إلى طرقات تُسبّب لها الدوار، في ما يتجاوز الجهد الذي يفرضه عليها دماغها والذي يتطلّبه التركيز على ضرورة النوم. يأخذها الأرق إلى أودية سحيقة يدبّ فيها همس أخرس لأصوات تناديها. معه تشقّ طريقها صعودًا وتحلّق فوق ظهر طائر قويّ البنية عريض الأجنحة يرتفع فوق السحاب، حيث يصبح التنفّس أكثر صعوبة، ثمّ يهوي بسرعة مثل صخرة فوق الأودية

المغطّاة بالضباب، والتي يحزر الناظر إليها وجود أشكال بيضاء تبدو من ذلك العلوّ عارية، أو لا تكسوها سوى غلالات شفّافة. تُعذّب إيساورا رغبة لا تعرف في ماذا، وإرادة لأن ترغب، وخوف ممّا تريد.

تنام أختها إلى جانبها وادعة، تحت إيقاع تنفّسها المطمئنّ وهدوء حركتها. نهضت إيساورا مرّتين واقتربت من النافذة، تُحيط برأسها وأفكارها كلمات أفلتت من هنا وهناك، وجمل غير مكتملة، وحركات يسهل التكهّن بها؛ مثل أسطوانة مكسورة تُعيد الجملة الموسيقية ذاتها إلى ما لانهاية، يجعلها التكرار كريهة منفّرة حتّى ولو كانت أصلاً جميلة. وتتوالى النوطات عشر مرّات، مئة مرّة. تترابط، تختلط، ولا يبقى منها غير نغمة وحيدة، ضاغطة، رهيبة، لا تتراجع ولا تلين. تعتقد أنّ دقيقة واحدة أخرى من هذا الهوس ستودي بها إلى الجنون، لكنّ الدقيقة تنصرف، والعناد الأعمى يتواصل، والجنون لا يحلّ. بل بدل ذلك، يتضاعف صفاء الذهن، مرّة، أو مرّات. وتُبحر النفس في آفاق بعيدة، تتمشّى بين هنا وهناك وحتّى إلى أبعد من ذلك؛ لا حدود تعترضها، وفي كلّ خطوة تخطوها نحو وعي ما يدور وكشف المستور تشعر بخزي أكبر. وهيهات من يطردها، ويحطّم صوتها، ويسحقها تحت الصمت الثقيل، كي تجد الطمأنينة والنوم. الكلمات، والجمل، والحركات، تنهض من قلب الصمت وتدور في الأجواء، أيضًا بصمت، دورانًا لا نهاية له.

ثمّ اعتقدت إيساورا بينها وبين نفسها أنّها فقدت صوابها. رأسها يضطرم وجبينها يحرقها، والدماغ كأنّه يتمدّد لينفجر داخل

جمجمتها. الأرق هو المسؤول عن حالتها هذه. والأرق لن ييأس ويستسلم طالما تراودها أفكار كهذه... ويا لها من أفكار، إيساورا. أيّ شيء أشدّ غلظة منها؟ أيّ انتهاكات هي أكثر شناعة؟ أيّ أشكال غضب باطنية تدفع نوابض الإرادة دفعًا؟

أيّ يد شيطانية، أيّ يد خبيثة قادتها إلى اختيار ذلك الكتاب؟ كيف يقال إنّه يتناول الأخلاقيات؟ «لكن هذا صحيح»، يقول حسّها العقلاني البارد، شبه التائه في زوبعة المشاعر. لماذا إذًا هذا الاضطراب في الغرائز التي تكسر القيود وتجتاح الجسد؟ لماذا لم تقرأ قراءة محايدة، بدون ذلك الشغف؟ «من الضعف» يقول الحسّ العقلاني، «من الرغبة» تردّ الغرائز المكبوتة، التي كانت صاحبتها قد حوّلتها عن طريقها سنة بعد سنة، وداست عليها كأنّها عار. وها هي هذه الغرائز تطفو الآن على السطح، وتغور قوّة الإرادة في بئر أكثر سوادًا من الليل، وأكثر عمقًا من الموت.

كانت إيساورا تعضّ معصميها، ووجهها يغطّيه العرق، وشعرها يلتصق بوجهها، وفمها ملتوٍ في تشنّج عنيف. جلست في سريرها، ووضعت يديها في شعرها، هاذية، ونظرت حولها. لا شيء سوى الليل والسكون. وصوت الأسطوانة المكسورة يعود من هاوية الصمت. ألقت بنفسها منهكةً على الفراش، فتحرّكت أدريانا قليلاً ثمّ تابعت نومها. هذه اللامبالاة كانت بالنسبة إلى إيساورا نوعًا من تأكيد التهمة. أخفت رأسها تحت غطائها على الرغم من الحرّ والاختناق به. وغطّت عينيها بيديها كما لو أنّ الدجى لا يكفي لستر شعورها بالخجل من نفسها.

لكنّ عينيها المكبوتتين تقدحان شرارات حمراء وصفراء مثل اللهب. (ليت الصباح يُقبل مسرع الخطى، ليت ضوء الشمس يقلب المقاييس فيترك الجانب الآخر من العالم ويخترق غرفة النوم...).

بكلّ تأنّ تحرّكت يدا إيساورا نحو أختها، فالتقطت رؤوس أناملها حرارة جسم أدريانا من بعد سنتيمتر واحد، وبقيت هناك، من دون تقدّم أو تراجع، لدقائق طويلة. كان جبين إيساورا قد جفّ عرقه، وبشرة وجهها تتأجّج كما لو أنّها تحترق بنار داخلية. تقدّمت الأصابع إلى أن لمست ذراع أدريانا العارية، لكنّها تراجعت على الفور كأنّ صدمة ما ألمّت بها. وكان قلب إيساورا يخفق خفقًا أخرس، أمّا العينان المفتوحتان، بعدستيهما المتمدّدتين، فلا تريان سوى السواد. من جديد عادت اليدان وتقدّمتا، ومن جديد ارتدّتا، لتعودا وتتابعا. هما الآن مرميّتان على ذراع أدريانا. اقتربت إيساورا من أختها بعد التفاف وانعطاف، فشعرت بحرارة جسمها كلّه. مرّرت إحدى يديها بتأنّ على الذراع من المعصم إلى الكتف، وبتأنّ أدخلتها تحت الإبط الدافئ والرطب، وبتأنّ أيضًا أدرجتها تحت الصدر. هنا أصبح تنفّس إيساورا سريعًا غير منتظم، ونزلت يدها إلى البطن فوق قماش القميص الرقيق، فقامت الأخت بحركة مفاجئة وأدارت لها ظهرها فصار الكتف العاري على مستوى فم إيساورا، التي أحسّت بشفتيها اقتراب الجسد، وكما تنجذب برادة الحديد إلى المغناطيس، التصق فمها بكتف أدريانا وكانت قبلة طويلة، ظمأى، مفترسة. في الوقت ذاته، شدّت بيدها على وسط أختها وجذبتها نحوها، فاستيقظت

أدريانا وجلة. لم تفلتها إيساورا، وكان فمها لا يزال ملتصقًا بكتفها مثل كأس الحِجَامة، والأصابع مغروسة كالمخالب في وركيها. فكّت أدريانا نفسها لشدّة ارتعابها ووثبت خارج السرير جريًا نحو باب الغرفة، لكن حالما أدركت أن أمّها وخالتها تنامان في الغرفة المجاورة، رجعت ولاذت بالنافذة.

إيساورا لم تتحرّك من مكانها. أرادت التظاهر بالنوم، لكن أختها لم تعد، وكان يُسمع فقط صفير تنفّسها. رأتها من خلال أهدابها نصف المفتوحة، مكوّمة أمام زجاج النافذة المتلألئ. ثمّ تخلّت عن تمثيلها هذا ونادت أختها بصوت خافت:

ـ أدريانا...

فردّت هذه بصوت مرتجف تسألها:

ـ ماذا تريدين؟

ـ تعالي إلى هنا.

أدريانا لم تتحرّك، فأصرّت إيساورا:

ـ ستُصابين بالبرد...

ـ لا يهمّ.

ـ لا يُمكن أن تبقي هناك. إذا لم تأتي، أنا سأخرج.

اقتربت أدريانا. جلست عند طرف السرير وأرادت أن تُشعل ضوء الطاولة المنخفضة بجانب السرير، فطلبت منها إيساورا:

ـ لا تضيئيها.

ـ لماذا؟

ـ لا أريد أن تريني.

ـ وما المشكلة في أن أراكِ؟

ـ أشعر بالخجل...

أتت جملتها همسًا. واستعاد صوت أدريانا طمأنينته، بينما صوت إيساورا يرتجف كما لو أنّه تكسّر إلى أنّات متفرّقة.

ـ نامي، أرجوكِ.

ـ لا أفكّر في النوم.

ـ لماذا؟ هل أخيفك؟

تأخّر جواب أدريانا قليلاً:

ـ نعم، تخيفينني...

ـ لن أفعل ما يؤذيك. أعدك. لا أعرف ماذا أصابني. أقسم لك...

ثمّ أخذت تبكي بهدوء واستكانة. أدريانا وبينما هي تقيّم الموقف، فتحت الخزانة وأخرجت منها ثوبًا لفّت به نفسها وجلست أسفل السرير. سألتها شقيقتها:

ـ ستبقين عندك؟

ـ نعم.

ـ طوال الليل؟

ـ نعم.

اهتزّ صدر إيساورا بنحيب أقوى وتقريبًا في اللحظة ذاتها أضاءت الغرفة المجاورة وسُمع صوت أميليا:

ـ هل من مشكلة؟

بسرعة، رمت أدريانا بالثوب إلى الناحية الأخرى من سريرها وانزلقت تحت الأغطية. ظهرت أميليا في فتحة الباب وهي تضع شالاً على كتفيها:

ـ هل من مشكلة؟

أجابت أدريانا وهي تنهض لتحجب أختها:

ـ انتاب إيساورا كابوس مزعج.

اقتربت أميليا:

ـ هل تتألّمين؟

أصرّت أدريانا، كي تبعدها:

ـ لا عليك، خالتي. كان مجرّد كابوس. عودي إلى نومك.

ـ إذا احتجتما إلى شيء، ناديانى.

أغلق باب غرفة النوم من جديد. انطفأ الضوء وشيئًا فشيئًا

عاد الصمت وساد الغرفة باستثناء نوبات من الأنين المتقطّع. ثمّ صارت هذه الأنّات متباعدة وبقي ارتجاف كتفي إيساورا وحده واشيًا باضطرابها. بقيت أدريانا بعيدة، مترقّبة. ورويدًا رويدًا عادت الحرارة إلى الأغطية، واختلط الدفء المنبعث من الجسمين. همست إيساورا:

ـ ستسامحينني؟

لم تجب الأخت في الحال. كانت تعرف أنّها يجب أن تقول «نعم»، لتهدئتها، لكن الكلمة التي كانت ترغب بلفظها وبشدّة هي «لا» سريعة. أعادت أيساورا سؤالها:

ـ هل تسامحينني؟

ـ أسامحك...

انتابت إيساورا رغبة في أن تعانق أختها كي تبكي لكنّها تمالكت نفسها، خشية أن تفسّر أدريانا حركتها على أنّها محاولة جديدة. أحسّت أنّه بعد اليوم، كلّ ما ستقوله أو تفعله سيكون مسمّمًا بذكرى هذه الدقائق. وأنّ حبّها كشقيقة تعرّض للمصادرة والتزوير، فقد نقاءه وغدا مشوبًا بسبب ذلك الأرق الرهيب وما تلاه. تمتمت، كأنّها في حاجة ماسّة إلى التنفّس:

ـ شكراً...

مرّت الدقائق بطيئة والساعات أبطأ. وأطالت ساعة الحائط في

الطابق السفلي الوقت كأنّه خيط من تشابكات صوتية لا نهاية له. وانتهى الأمر بإيساورا إلى النوم، منهكة. أدريانا، لا. بقيت مستيقظة حتّى تحوّل ضوء الليل الأزرق عند النافذة إلى ضوء الفجر الشاحب ليحلّ محلّ هذا الأخير وبتدرّج بطيء بياض الصباح. بقيت مسمّرة في مكانها، بعينين شاخصتين إلى السقف، وصدغين خافقين، تُقاوم بعناد يقظة جوعها إلى الحبّ، المُداس هو الآخر، الخفيّ والمحبط هو الآخر.

****

٢٠

وُضع العشاء ورُفع باكراً هذه الليلة في بيت أنسيلمو. فعلى ماريا كلاوديا أن تحضّر نفسها للقاء باولينو موريس لأوّل مرة، وليس من اللائق أن تُطيل انتظار شخص في مستواه يطمح الآخرون عادةً إلى نيل عطفه. أكلت الأمّ وابنتها بسرعة ودخلتا غرفة النوم لتحلاّ عددًا من المشاكل التي تعترضهما قبل تقديم كلاوديا إلى السيّد موريس وأصعبها اختيار الفستان الذي سترتديه. لا يوجد ثوب يُبرز جمالها وصباها أكثر من فستانها الأصفر، المفصّل بلا أكمام، من القماش الرقيق. تنّورته الواسعة ذات الثنايا تبدو عند خط الذيل مثل كأس زهرة مقلوب وتنسدل من خصر الفتاة في حركة موجة متكاسلة. هذا هو الفستان الذي تفضّله لها روزاليا، ولكن حسّ كلاودينيا وذوقها كانا دليليها على عدم صواب الاختيار، فهذا الفستان يصلح لأشهر الصيف، وليس للربيع الذي لا يزال ممطرًا. كذلك، فإن غياب الأكمام قد لا يروق للسيّد موريس. وافقت روزاليا، لكنها لم تقدّم أيّ اقتراح آخر. كانت اختارت الفستان الأصفر فقط، ولا يسعها أن تأتي بأفكار أخرى.

بدا الاختيار صعباً، لكنْ كلاوديا قرّرت: ستلبس الفستان الرمادي المخضرّ، اللائق بالمناسبة وأيضًا بفصل الربيع. إنّه فستان

من الصوف، بكمّين طويلين يغلقان عند المعصمين بأزرار من اللون نفسه. الياقة صغيرة يكادُ لا يظهر منها العنق. لا يمكن أن يوجد ما يناسب أكثر منه بالنسبة إلى موظّفة عتيدة. لم تُعجب روزاليا كثيراً بالفكرة، لكن عندما ارتدته ابنتها أدركت أن الفتاة على حقّ.

كانت ماريا كلاوديا دائماً على حقّ. وقفت بفستانها أمام مرآة الخزانة العالية ولاحظت جمالها. كان الفستان الأصفر سيُظهرها صغيرة، وهي الآن تريد أن تبدو ناضجة، بلا كشاكش، بلا ثنيات، بلا أذرع عارية. والفستان الذي تلبسه يليق بقوامها على أفضل وجه، ملتصقًا بجسمها مطيعًا لها في أيّ حركة تقوم بها. ليس به حزام، لكن قَصّته تُبرز خصرها بكلّ عفوية، وخصر ماريا كلاوديا دقيق رشيق قد يفسد الحزام جماله. أعادت كلاوديا النظر إلى نفسها في المرآة واكتشفت الطريق الذي يجب أن تسلكه بعد اليوم في اختيار ثيابها: أن تتجنّب ما هو سطحي ويُخفي استداراتها. وفكّرت في هذه اللحظة، مع التفاتة جديدة صوب المرآة، في أنّه سيليق بها جدًّا فستان من قماش اللاميه بلمعانه المعدني وطراوته التي تجعله شبيهًا بالجلد الطبيعي.

ـ ما رأيك ماما؟

لم تجد روزاليا كلاماً تردّ به. كانت تدور حول ابنتها مثل مساعدة فنانة تحضّرها لتتويج ما. ماريا كلاوديا جلست، وسحبت من حقيبة يدها قلم أحمر شفاهٍ للزينة وراحت تتبرّج. أمّا الشعر فستهتمّ به في ما بعد لسهولة تسريحه وبساطته. لم تبالغ في المكياج، لا بل بدت

متحفّظة أكثر ممّا هي في العادة. تعرف أن التوتّر يكفي ليُسبغ بعض الألوان على وجهها، وبالفعل كان لا بأس بالتوتّر بالنسبة إليها. عندما انتهت، وقفت تجاه والدتها وكرّرت السؤال:

ـ ما رأيك؟

ـ تبدين جميلة يا ابنتي.

ابتسمت لها كلاوديا من خلال المرآة، ألقت نظرة تقييم أخيرة واستنتجت أنّها كما يرام. نادت روزاليا زوجها فظهر أنسيلمو. لبس قناع الأب النبيل الذي يشهد مستقبل ابنته يتحقّق، وعليه في هذا الظرف أن يبدو متأثّرًا.

ـ هل يعجبك بابا؟

ـ تبدين رائعة يا ابنتي.

اكتشف أنسيلمو أنّ في اللحظات الهامّة، لعبارة «يا ابنتي» مفعولاً أفضل من أيّ عبارة أخرى. عبارة تنضح بالجدّية، وتوحي بالحنان الأبوي، بفخر الأبوة، الذي يكاد يصْعُبُ إخفاؤه خلف محاولة فرض الهيبة. قالت كلاوديا:

ـ أنا متوتّرة جداً.

ـ لكن من الضروري أن تكوني هادئة.

هكذا نصحها وهو يملّس شاربيه بيد حازمة. لا شيء يمكن أن يهزّ ثبات تلك اليد الواثقة.

عندما مرّت الابنة أمامه، ثبّت لها عقد اللؤلؤ الذي يحيط بجيدها. وكانت هذه اللمسة الأخيرة في زينتها، وبالتحديد من يد الشخص الذي يجب أن يقوم بها، يد الأب الحازمة والمُحبّة. ثمّ قال أنسيلمو بلهجة تملأها العظمة:

ـ اذهبي يا ابنتي.

نزلت ماريا كلاوديا إلى الطابق الأول وقلبها يقفز مثل عصفور في قفصه. كانت أشدّ توتّرًا ممّا يبدو عليها. لقد قصدت بيت ليديا مرّات كثيرة، ولكن دائماً في غياب العشيق. ولهذه الزيارة، إن صحّ القول، طابع التواطؤ، والسرّية، كشيء ممنوع. الآن سيكون استقبالها في حضور باولينو مورايس، وستتعرّف مباشرة ورسميًا إلى وضع ليديا غير السويّ، ما كان يثير في الوقت نفسه حماسها واضطرابها.

فتحت ليديا الباب مبتسمة:

ـ كنّا في انتظارك.

أكّدت هذه الجملة شعور الحميمية الذي كان امتلك ماريا كلاوديا. دخلت الشقّة، مرتجفة. ليديا تلبس ثوب التفتة المنزلي وتنتعل حذاء رقص يثبّت عند الرسغين برباط فضّي اللون فيبدو كأنّه صندل أكثر من حذاء. وعلى الرغم من ذلك، كم تتمنّى ماريا كلاوديا لو تحصل على حذاء مثله...

قامت الفتاة بخطوة في اتّجاه غرفة النوم لاعتيادها دخولها في كل زياراتها. ابتسمت ليديا:

ـ لا، ليس من هنا...

تلوّن وجه كلاوديا بسرعة وهكذا، باحمرار وجنتيها وارتباكها، ظهرت أمام باولينو موريس الذي كان ينتظرها، بسترته وسيجارته المشتعلة، في غرفة الطعام حيث أدت ليديا إجراءات التعارف. نهض باولينو، وأشار بيده التي تحمل السيجارة إلى كرسيّ لماريا كلاوديا. جلس الثلاثة وعينا باولينو تنظران إلى كلاوديا باهتمام بالغ، بينما سمّرت الفتاة نظرها على الأشكال الهندسية التي تُزيّن السجادة. قالت ليديا والابتسامة لا تزال على محيّاها:

ـ ماذا تفعل باولينو؟ ألا ترى أنك تُربك ماريا كلاوديا؟

قام باولينو بحركة مفاجئة وابتسم هو الآخر:

ـ لم يكن هذا قصدي.

واتّجه إلى ماريا كلاوديا قائلاً:

ـ لم أتوقّع أن تكوني... شابّة إلى هذه الدرجة.

رفعت نظرها وأجابت:

ـ أنا في التاسعة عشرة، سيد موريس.

وقالت ليديا:

ـ إنها طفلة، كما ترى.

نظرت الفتاة إليها فالتقت نظرتا المرأتين مرتابتين، لا بل فجأةً،

عدوّتين. بالفطرة، اخترقت ماريا كلاوديا فكر ليديا، وما وجدته أخافها وراق لها في الوقت نفسه. حزرت أنّها ترى فيها منافِسة جدّية وعرفت لماذا. نظرت إلى نفسها وإليها من وجهة نظر شخص آخر، لنقل مثلاً باولينو موريس، وأتت المقارنة في صالحها.

ـ لستُ طفلة إلى هذه الدرجة، سيدة ليديا. لكنّي بالطبع، وكما قال السيد موريس، شابّة جدًّا.

عضّت ليديا على شفتيها، فقد فهمت ما لمحت إليه الصبية. لكنّها تمالكت نفسها بسرعة وأصدرت ضحكة عالية:

ـ أنا أيضًا مررت بهذه المرحلة. عندما كنت في سنّك، مثلك كان يزعجني أن يقال إنّي طفلة. واليوم أعرف أن ذلك كان صحيحًا. لِمَ لا تعترفين بذلك أنت أيضًا؟

ـ ربّما لأنّي لم أصل بعد إلى سنّك، سيدة ليديا...

في وقت قصير، تعلّمت ماريا كلاوديا فنّ المبارزة بعبارات التودّد النسائية. وفي أوّل هجوم لها سدّدت ضربتين وبقيت سليمة، ولو مع بعض الخوف، فهي تخشى أن تنقصها القدرة وطول النفس والسلاح لما بقي من المعركة. لحسن الحظ هنا تدخّل باولينو: سحب علبة السجائر الذهبية وعرض سيجارة قبلتها ليديا. ثم سأل ماريا كلاوديا:

ـ ألا تدخّنين؟

ابتسمت الفتاة. كانت دخّنت أكثر من مرة، في الخفاء، لكنّها

أحسّت بأنّه يجب ألاّ تقبل الآن. قد تعطي انطباعا سيّئًا، كما أنّها لم تكن متأكدة من قدرتها على مجاراة ليديا وأناقتها في الإمساك بالسيجارة وحملها نحو شفتيها. فكان الجواب:

ـ لا، سيّد موررايس.

ـ حسنا تفعلين.

ثمّ سكت ليأخذ نفسًا من سيجارته وتابع قائلاً:

أستغرب كيف تتحدّثان عن الأعمار أمام شخص يمكنه أن يكون والدكما أنتما الاثنتين.

وكان لهذه الجملة وقع حسن، فقد أذنت بنوع من الهدنة، مع تقدّم لكلاوديا. فقالت وابتسامتها الفاتنة، كما قد يصفها أنسيلمو، تعلو وجهها:

ـ حضرتك تريد أن تبدو أكبر سنًّا ممّا أنت في الواقع...

ـ ماذا؟ أي سنّ تعطينني؟

ـ الخامسة والأربعين، ربّما...

ـ آه!

ضحك باولينو ضحكة عريضة اهتزّ لها بطنه كعادته عندما يضحك.

ـ أكثر، أكثر...

ـ خمسين؟...

ـ أنا في السادسة والخمسين. وأصلح كي أكون جدّك.

ـ إذًا تعرف كيف تحافظ على شبابك؟

كانت الجملة صادقة وعفوية وقد لاحظ باولينو ذلك. نهضت ليديا، واقتربت من عشيقها بنيّة وضع الحديث على السكّة التي من أجلها جاءت ماريا كلاوديا.

ـ لا تنسَ أنّ الفتاة يهمّها قرارك بشأن عملها أكثر ممّا يعنيها عمرك. تأخّر الوقت، ولا شكّ في أنّها تريد أن تنام، كما أنّي...

توقّفت، نظرت إلى باولينو وعلى فمها ابتسامة معبّرة، وأنهت كلامها بصوت منخفض، محمّل بالمعاني الباطنية:

كما أنّي، أريد أن أتحدّث إليك على انفراد...

اعتبرت ماريا كلاوديا أنّها هُزمت، ففي هذا الميدان لا يسعها أن تحارب. لاحظت أنّها دخيلة، وأنّ الاثنين، ليديا من دون شك، يتمنّيان رؤيتها تغادر، وشعرت بالرغبة في البكاء.

ـ آه هذا صحيح.

قالها باولينو وبدا مدركاً لأوّل مرّة أنّ لديه مكانة عليه الانتباه لها، وهيبة يجب الحفاظ عليها، وأنّ خفّة المحادثة لا تليق به.

ـ إذًا تبحثين عن وظيفة؟

ـ لديّ وظيفتي، سيّد مورايس، لكن والديّ يعتبران ما أكسبه ضئيلاً والسيدة ليديا أبدت اهتمامها مشكورة...

ـ ماذا تجيدين؟

ـ الطباعة على الآلة الكاتبة.

ـ فقط؟ ألا تعرفين الاختزال؟

ـ لا، سيّد مورايس.

ـ الطباعة على الآلة الكاتبة في هذه الأيّام لا تكفي. كم تكسبين؟

ـ خمسمئة إسكودو.

ـ همم... إذًا لا تجيدين الاختزال؟

ـ لا، سيّدي...

بدا صوت ماريا كلاوديا كأنّه يتلاشى. ابتسمت ليديا. كان باولينو يفكّر وساد صمت غير مريح. ثمّ قالت كلاوديا.

ـ لكن يمكنني أن أتعلّم...

ـ همم...

سحب باولينو نفسًا من سيجارته ونظر إلى الصبية.

تدخّلت ليديا:

ـ عزيزي، أنا يهمّني الأمر، لكن إن كنت ترى أنّه غير ممكن... لدى كلاوديا ما يكفي من الذكاء كي تفهم...

لكن ما لم يعد لدى ماريا كلاوديا هو القوّة التي تُتيح لها الرد. وصار كلّ همّها أن تكون خارج هذا المكان بأسرع ما يمكن. عندما همّت بالنهوض، قال باولينو:

ـ انتظري. سأمنحك فرصة. سكرتيرتي ستتزوّج بعد ثلاثة أشهر ثم تترك العمل. يُمكنك أن تعملي في شركتي، وخلال هذه الأشهر الثلاثة سأدفع لك ما تكسبينه حاليًا على أن تتعلّمي الاختزال أثناء ذلك. وبعد ذلك سنرى. إذا أعجبتني، أعدك بأن يرتفع الراتب ارتفاعًا ملحوظًا... هل يناسبك ذلك؟

ـ يناسبني، نعم سيّد موررايس. شكرًا جزيلاً!

وبدا وجه ماريا كلاوديا كأنّه الفجر في يوم ربيعي جميل.

ـ أليس من الأفضل أوّلاً أن تأخذي برأي والديك؟

ـ آه لا تشغل بالك سيّد موررايس. سيوافقان من دون أيّ شكّ...

قالت هذا بثقة جعلت باولينو ينظر إليها بعينين فضوليتين. وسألته ليديا في اللحظة نفسها...

ـ لكن إذا لم تكن عند نهاية هذه الأشهر الثلاثة راضيًا، أو أنّ معرفتها بالاختزال غير كافية، هل ستفصلها؟

نظرت ماريا كلاوديا إلى باولينو، قلقة:

ـ ربّما لن يكون هذا ما سيحصل...

ـ إذًا ستسلّم أعمالك إلى من لا يُحسن الاهتمام بها...

قاطعتها ماريا كلاوديا:

ـ سأتعلّم سيّد مورايس. وآمل أنّك ستكون راضيًا عن عملي...

ابتسَم باولينو وقال:

ـ أنا أيضًا أرجو ذلك.

ـ متى أذهب إلى الشركة؟

ـ في الواقع، في أقرب وقت ممكن. متى تستطعين ترك عملك؟

ـ منذ الآن، إن كان هذا يناسبك.

فكّر باولينو لثوانٍ ثمّ قال:

ـ نحن اليوم في السادس والعشرين من الشهر... هل نبدأ في الأوّل من الشهر المقبل؟

ـ نعم سيّدي.

ـ جيّد. ولكن مهلاً... في الأوّل من الشهر لن أكون في لشبونة. لكن لا يهمّ. سأعطيك بطاقة تقدّمينها إلى مدير المكتب، في حال نسيتُ أن أُعلمه قبل ذلك. قلّما أنسى، إنّما من باب الاحتياط...

سحب بطاقة من محفظته، وبحث عن نظّارته لكن لم يجدها:

ـ أين وضعتُ نظّارتي؟

أجابت ليديا:

ـ إنّها في غرفة النوم.

ـ أحضريها لي من فضلك...

خرجت ليديا، وبقي باولينو والمحفظة بيده ينظر إلى ماريا كلاوديا بين حين وحين. أمّا هي، فبعدما كانت تخفض عينيها، رفعتهما ونظرت إليه. في تلك اللحظة مرّ شيء ما في نظرة الرجل فهمته الفتاة، ولم يحوّل أيّ منهما نظره. خفق قلب ماريا كلاوديا وتحرّك صدرها. باولينو شعر بعضلات ظهره ترتخي على مهل، وسُمع من الممرّ وقع خطوات ليديا وهي ترجع إليهما.

عندما دخلت، كان باولينو يُعيد ترتيب محفظته بدقّة واهتمام، بينما عادت ماريا كلاوديا تنظر إلى السجادة.

****

كان أبيل يدخّن سيجارته بهدوء لذيذ مستلقيًا على السرير، وقدماه فوق صحيفة كي لا يتّسخ الفراش. كان قد استلذّ بعشائه. فماريانا طاهية ماهرة، وهي أيضًا، إلى ذلك، ربّة منزل ممتازة كما يتّضح من طريقتها في ترتيب البيت، حتّى في أصغر تفاصيله. وهذه غرفته أمامه خير إثبات. قطع الأثاث فقيرة، ولكن نظيفة، ولها هيبة تحافظ عليها. لا شكّ في أنّ فرش أيّ منزل وأقلّ قطعه أهمّية تعكس شيئًا من حياة أصحابها، تمامًا كما تعكس الحيوانات الأليفة، الكلاب والقطط على الأقلّ، طباع أسيادها وشخصيتهم. من قطع الأثاث تنبعث برودة أو دفء، تودّد أو فتور. هي شواهد تتحدّث، في أيّ ساعة وبلغة صامتة، عمّا تراه وتعرفه. وتكمن الصعوبة في إيجاد اللحظة الأفضل لسحب اعترافاتها، الساعة الأقرب إليها، الضوء الأنسب.

تابع أبيل بعينيه حركة دخانه المتصاعد في الهواء، مصغيًا لعلّه يسمع القصص التي ترويها له الخزانة والطاولة، الكراسي والمرآة، وأيضًا الستائر والنافذة. ليست قصصًا لها بداية وسياق ونهاية، بل هي عبارة عن تدافع عذب لبعض الصور، ولغة أشكال وألوان تترك انطباعًا محبّبًا بالسلام والسكينة.

لا شكّ في أنّ معدة أبيل المملوءة تُشكّل جزءًا مهمًّا من إحساسه بالرضا. كانت قد انقضت أشهر طوال وهو محروم من هذه الملذّات البيتية البسيطة، من نكهة الطعام المعدّ بيدي ربّة منزل وعلى ذوقها. كان يقصد الحانات الرخيصة، ويأكل فيها الطبق اليومي، وحساء لا طعم له، ولقيمات مقليّة تعطي المشتركين في هذه الحانات بثمن بخس وهماً أنّهم يُطعمون ويشبعون. ربّما كان لدى ماريانا شكّ في شيء من هذا، وإلّا ما تفسير هذا الكرم، وعلاقتهما لا تمتدّ إلى أكثر من أيّام قليلة؟ أم أنّ سيلفستري وماريانا مختلفان؟ مختلفان عن كلّ الأشخاص الذين عرفهم إلى الآن. هما أكثر إنسانية، وأكثر بساطة. أكثر انفتاحًا. ما الذي يُضفي على فقر مُضيفيه هذا الرنين المعدني النقيّ؟ (هكذا كان أبيل يشعر بجوّ المنزل، عبر تلاحق أفكاره المبهم.) «السعادة؟ تبدو قليلة. في السعادة بعض من طبيعة البزّاقة: تختبئ عندما نلمسها». لكن إذا لم تكن السعادة، فماذا يمكن أن يكون؟ «ربّما التفاهم... لكن التفاهم مجرّد كلمة. لا أحد يمكنه أن يفهم الآخر، إذا لم يكن هذا الآخر نفسه. ولكن لا أحد يسعه أن يكون أحدًا غيره».

تابع الدخان هروبه من السيجارة المنسيّة. «أتراها من طبيعة بعض الأشخاص هذه القدرة على أن يبثّوا من داخلهم شيئًا يغيّر وجه الحياة؟ شيئًا ما، شيئًا... شيئًا قد يكون كلّ شيء أو تقريبًا لا شيء. وما يهمّ أن نعرف ما هو. أو لنرَ، هيّا لنطرح السؤال: ما هو؟»

فكّر أبيل وأعاد التفكير، وفي النهاية لم يجد أمامه غير السؤال.

بدا كأنّه زقاق لا منفذ له. «من يكون هؤلاء الأشخاص؟ ما هي هذه القدرة لديهم؟ وماذا في هذا التغيير؟ تراها هذه الكلمات بعيدة عمّا تُريد التِعبير عنه؟ والحالة التي تفرض استخدام هذا الكلام، ألا تزيد من صعوبة إيجاد الجواب؟ لكن إذا كان العكس، فما السبيل إلى إيجاده؟»

السيجارة غير عابئة بجهد أبيل وهو يخمّن ويحلّل ويضرب أخماسًا بأسداس، وها هي تحترق حتّى الأصابع التي تحملها. انتبه أبيل وكي لا تقع منه الجمرة التي بقيت من السيجارة، رمى العقب في المنفضة. وكان يهمّ باستعادة خطّ تفكيره عندما دقّت الباب ضربتان لطيفتان، فنهض وقال:

ـ تفضّل.

أطلّت ماريانا تحمل قميصًا بيدها.

ـ عذرًا للإزعاج، سيّد أبيل، لكنّي لا أدري إذا كان بالإمكان إنقاذ هذا القميص...

أخذ أبيل قميصه. نظر إليه وابتسم:

ـ ما رأيك؟ سيّدة ماريانا؟

ابتسمت هي أيضًا وتجرّأت بالقول:

ـ لا أعرف، إنّه قديم جدّاً...

ـ افعلي ما بمقدورك. أتعرفين؟ أحياناً أحتاج إلى قميص قديم أكثر من الجديد... ألا تجدين هذا غريبًا؟

ـ أنت أدرى بالأسباب التي لديك...

وأدارت القميص من كلّ جهاته، وكأنّها تريد استعراض حالته المزرية، وأضافت:

ـ سيلفستري كان يملك قميصًا مشابهًا. أعتقد أنّه لا تزال لدي بضع قطع منه... على الأقلّ للياقة...

ـ هذا سيُشغلك كثيرًا، ويُتعبك. لا داعي...

وقطع كلامه حين رأى في عيني ماريانا ما سيُسبّب لها من أسى إن هو رفض أن تُصلح القميص:

ـ شكراً، سيّدة ماريانا. سيُصبح في حال أفضل...

خرجت ماريانا، سمينة سمنةً تُثير الضحك، وطيّبة طيبةً تُثير الرغبة في البكاء.

وعاد أبيل يُفكّر: «أتراها الطيبة؟ هي أيضًا شيء قليل. لا شكّ في أنّه يوجد سبب يفلت منّي. واضح أنّهما سعيدان. متفهّمان، طيّبان، هكذا أشعر. ولكن ينقص شيء ما، ربّما هو الأهمّ، ربّما هو ما يُسبّب السعادة، والتفهّم، والطيبة. أو ربّما هو وفي الوقت ذاته، نعم هذا على الأرجح، ما يُسبّب الطيبة والتفهّم والسعادة وينتج عنها أيضًا».

في الواقع لم يلقَ أبيل مخرجًا من متاهته. والعشاء اللذيذ مسؤول جزئيًا عن هذه البلادة في التفكير. فكّر في أن يقرأ قليلاً قبل النوم،

فالوقت مازال مبكرًا، إذ تشير الساعة إلى ما بعد العاشرة والنصف بقليل، أي أنّ لديه ما يكفي من الوقت. لكنّه لا يرغب الآن في القراءة. ولا في الخروج، على الرغم من الجوّ البديع في الخارج، والسماء الصافية، والحرارة المعتدلة. ذلك أنّه يعرف ما ينتظره في الشارع: ناس كسالى أو مستعجلون، مهتمّون أو غير مبالين. بيوت مظلمة، بيوت مضاءة. مسار الحياة الأناني، والمعاناة، والخوف، والقلق، ومحاولة الاقتراب من امرأة مارّة، والانتظار، والجوع، والترف، والليل الذي يرفع الأقنعة ليكشف عن الوجه الحقيقي للإنسان.

قرّر. سيذهب ويتحدّث إلى سيلفستري، صديقه سيلفستري. يعرف أنّ اللحظة غير مناسبة، وأنّ السكّاف مشغول بعمل طارئ، لكن إن كان غير قادر على التكلّم معه فعلى الأقلّ سيكون إلى جانبه، يراقب حركات يديه الماهرتين، ويستمتع بنظرته الهادئة. ومرّ في خاطره «الهدوء، هذا الشيء النادر...».

عندما رآه سيلفستري يدخل الشرفة الناتئة، ابتسم وقال:

ـ لن نلعب الدامة اليوم، هه؟...

جلس أبيل تجاهه. المصباح المنخفض يُضيء يدي السكّاف وحذاء الطفل الذي يشتغله.

ـ أنت محظوظ. ليس عندك دوام عمل...

ـ كان عندي. أنا الآن رجلٌ أعمال...

لفظ الكلمة الأخيرة لفظًا ساخرًا سلب منها كلّ معناها. ماريانا التي تستند إلى سلّة الثياب وتخيط القميص قالت مداعبة:

ـ رجل أعمال من دون رأسمال...

سحب أبيل علبة السجائر وقدّمها إلى سيلفستري:

ـ هل تريد واحدة من هذه؟

ـ لِمَ لا؟

لكن يدي سيلفستري كانتا مشغولتين ولم تمكّنه من أخذ السيجارة، فسحبها أبيل ووضعها في فم السكّاف وأشعلها له. كلّ هذا في سكون. لم يتكلّم أحد عن الفرح، لكنّهم كانوا كلّهم فرحين. غير أنّ حساسية الشابّ الأكثر حدّة جعلته يخشى على جمال اللحظة، ذلك الجمال الصافي. «العذري»، كما تبادر إلى ذهنه.

كان مقعده أعلى من الكرسيّين المنخفضين اللذين يجلس عليهما سيلفستري وماريانا. وهكذا كان يرى رأسيهما المنحنيين، وشعرهما الأبيض، وجبين سيلفستري المتجعّد، ووجنتي ماريانا الحمراوين اللامعتين. وجه أبيل كان في العتمة، وجمرة السيجارة الجديدة تدلّ على مكان فمه.

ماريانا ليست من هواة السهر الطويل. كما أنّ نظرها المتعب يضعف أكثر في الليل، وها قد بدأ رأسها يثقل ويهوي مرّة بعد مرّة من شدّة النعاس. لا، لا يُعتمد عليها في السهر، ومن شاء مجالستها فليدعُها في الصباح الباكر. قال سيلفستري:

ـ وكأنّ التعب شواكِ يا امرأة.

ـ ماذا تقول؟ وهل تحسبني طيرًا؟...

ولكنَ مقاومتها لم تأتِ بجدوى. فما انقضت خمس دقائق حتّى نهضت ماريانا... كانت عيناها تغلقان تلقائيًا حتّى عذرها أبيل فغادرت، وبقي الرجلان وحدهما. قال أبيل:

ـ لم أشكركما بعد على العشاء.

ـ لا داعٍ. ليس بالأمر المهمّ.

ـ بلى بالنسبة إليّ، جدّاً.

ـ لا تقل ذلك. إنّه عشاء فقراء...

مقدّم إلى من هو أشدّ فقرًا... غريب: إنّها المرّة الأولى التي أصف نفسي فيها بالفقر. لم أفكّر يومًا في ذلك.

لم يجب سيلفستري. نفض أبيل رماد سيجارته وتابع:

ـ لكن ليس لهذا أقول إنّه مهمّ جدًّا بالنسبة إليّ. بل لأنّي لم أملك هذا الشعور بالراحة كما اليوم. عندما أذهب من هنا، سأحمل معي الكثير من الذكريات عنكما.

ـ ولكن، لِمَ قد تذهب؟

ابتسم أبيل وأجاب:

ـ تذكّر ما قلته لك منذ أيّام... عندما أشعر بأنّي مقيّد، أقطع ما يقيّدني...

وبعد صمت قصير لم يقطعه سيلفستري، أضاف:

ـ أرجو ألّا تعتبرني ناكرًا للجميل...

ـ لا أعتبرك ناكرًا للجميل. لو لم أكن أعرف من أنت، لو لم أعرف حياتك، لكان من الطبيعي أن أفكّر كذلك.

انحنى أبيل قليلاً نحو الأمام، بحركة تنمّ عن فضول يصعب كبحه:

ـ كيف يُعقل أن تكون متفهّمًا إلى هذا الحدّ؟

رفع سيلفستري رأسه، ورمّش بسبب الضوء:

ـ ليس هذا مألوفًا لمن يمتهن عملي، أليس هذا ما تقصده؟

ـ بلى...، ربّما...

ـ هذا وقد كنت سكّافًا طُولَ حياتي. لكنّك أمام شخص مطّلع. لا أحد يحسب...

ـ ولكنّي...

ـ أعرف. أنت تعلّمت، صحيح؟

ـ نعم.

ـ أنا أيضًا درست. أنهيت التعليم الابتدائي. وبعده رحت أقرأ وأتعلّم من أمور الحياة...

كما لو أنّ الحذاء يتطلّب كلّ اهتمامه، سكت سيلفستري وأحنى

رأسه أكثر. كان المصباح يُضيء رقبته القويّة وعضلات كتفيه الكبيرة. سأل أبيل:

ـ هَل ألهيك عن عملك؟

ـ لا أبدًا. هذا شيء يمكنني أن أقوم به مغلق العينين.

أبعد الحذاء، وأخذ ثلاثة خيوط وبدأ يغلقه. كان يعمل بحركات طويلة متناغمة وشيئًا فشيئًا، كان الخيط يتّخذ لونًا أكثر اصفرارًا مع مروره عبر الشمع مرّة بعد مرّة. وتابع سيلفستري:

ـ إن كنت أعمل مفتوح العينين فبحكم العادة. وأيضًا لأنّ العمل، فيما لو أغلقت عينيّ، سيستغرق وقتًا أطول.

علّق أبيل قائلاً:

ـ كما أنّ النتيجة ستكون أقلّ إتقانًا.

ـ طبعًا. هذا يُثبت أنّه حتّى عندما نُغلق العينين، يجب أن نُبقيهما مفتوحتين...

ـ ما تقوله يبدو كأنّه لغز.

ـ ليس هذا. أليس صحيحًا أنّي مع ممارستي الطويلة للمهنة، أستطيع العمل بعينين مغلقتين؟

ـ إلى حدّ ما. فقد وافقت على أنّ النتيجة في هذه الحال لا تأتي كاملة.

ـ لهذا أفتحهما. أليس صحيحًا أيضًا أنّي في سنّي هذه يمكن أن أغلق عينيّ؟

ـ تموت؟

سيلفستري الذي كان أمسك بالمخرز وأخذ يثقب الجلد ليبدأ الخياطة أوقف حركته وقال:

ـ أموت؟ ما هذه الفكرة؟ أنا لست مستعجلاً.

ـ إذًا؟

ـ أن نغلق العينين يعني فقط ألّا نرى.

ـ ألّا نرى ماذا؟

فتح السكّاف ذراعيه كما لو كان يريد أن يضمّ كلّ ما يفكّر فيه:

ـ هذا. الحياة... الناس...

ـ عدنا إلى الألغاز. أعترف بأنّي لم أحزر إلى أين تريد الوصول.

ـ ولن تحزر. لا تعرف...

ـ أنت تحيّرني. لنرَ إن كنت سأجد طريقي. تقول إنّه حتّى عندما نستطيع إغلاق العينين، يجب أن نبقيهما مفتوحتين، صحيح؟ وتقول أيضًا إنّ علينا إبقاءهما مفتوحتين كي نرى الحياة، والناس...

ـ تمامًا.

ـ وأرى أنّنا كلّنا نفتح أعيننا، على الناس، على الحياة... سواء أكان عمرنا ستّ سنوات أو سبعين...

ـ يتوقّف هذا على طريقتنا في النظر.

ـ آه! هنا نصل إلى نقطة الفصل. أنت تُبقي عينيك مفتوحتين لترى بطَريقة معيّنة. هل هذا ما تقصد قوله، سيّد سيلفستري؟

ـ هذا ما قلته.

ـ بأيّ طريقة إذًا؟

لم يُجب سيلفستري. كان يمدّ الخيط وعضلات ذراعه تتقلّص. قال أبيل:

ـ هل أُزعجك؟ إذا بقينا نتحدّث لن يكون الحذاء جاهزاً صباح الغد.

ـ وإذا لم نتحدّث ستبقى حائرًا طول الليل.

ـ هذا صحيح.

ـ يملأكَ الفضول، صح؟ كما كنت أنا تلك الليلة. بعد ستّ عشرة سنة من التيه في دروب الحياة، تلتقي بطائر نادر، بسكّاف فيلسوف. وكأنّها جائزة كبرى...

انتاب أبيل الإحساس بأنّ سيلفستري يسخر. كاد لا يخفي انزعاجه وأجاب بلهجة بين العذوبة والمرارة:

ـ أودّ أن أعرف طبعًا، لكنّني مطلقًا لا أجبر أحدًا على أن يقول ما لا يريد قوله. ولا حتّى الأشخاص الذين وثقت بهم...

ـ يبدو أنّك تعنيني. فهمت.

كانت نبرة الكلام فكاهية خفيفة اضطرّ معها أبيل إلى أن يُمسك نفسه ويتجنّب القساوة في إجاباته. ولكن بما أن الإجابة الوحيدة التي وجدها كانت جافّة، فضّل السكوت وشعر بالفطرة بأنّه ليس غاضباً من سيلفستري، وأنّه لا يسعه أن يغضب منه ولو شاء ذلك.

سأله السكّاف:

ـ هل أزعجتك؟

ـ لا... لا...

ـ «لا» هذه تعني «نعم». معك تعلّمت أن أسمع كلّ ما يقال لي وأن أصغي إلى الأسلوب الذي يقال به.

ـ ألا تعتقد أنّه لديّ الحقّ؟

ـ لديك الحقّ. لديك الحقّ وعدم الصبر.

ـ عدم الصبر؟ منذ لحظة قلت لك إنّي لا أجبر أحدًا على الكلام...

ـ وماذا إن كان يمكنك أن تجبره؟

ـ لو كان يمكنني... لو كان يمكنني، لأجبرتك. ها قد قلت لك. هل أنت راضٍ الآن؟

ضحك سيلفستري بصوت عال:

ـ اثنتا عشرة سنة من الاحتكاك بالحياة لم تعلّمك بعد السيطرة على انفعالك.

ـ علّمتني أمورًا أخرى.

ـ علّمتك أن تبقى غير واثق...

ـ كَيف تقول هذا؟ ألم أثق بك؟

ـ وثقت. لكنّ ما قلته لي كان يمكنك قوله لأيّ شخص آخر. يكفي أن تشعر بالحاجة إلى أن تُخرج ما في صدرك.

ـ مؤكّد. لكن لا تنسَ أنّك أنت من أخرجتُ له ما في صدري.

ـ أشكرك... أنا الآن لا أمزح. أشكرك فعلاً.

ـ لا داعي لأن تشكرني.

أبعد سيلفستري الحذاء والمثقاب ودفع بمنضدة العمل جانبًا، وغيّر اتّجاه المصباح كي يرى وجه أبيل تحت ضوء أفضل:

ـ ما هذا؟ انظر كيف يصبح وجهك عندما تغضب...

تقلّص وجه أبيل أكثر، وراودته نفسه بالنهوض والخروج. قال سيلفستري:

ـ اسمع. أصحيح أم لا أنّك تحذر جميع الناس ولا تثق بهم؟ وأنّك...، أنّك... لم أعد أذكر ما هي الكلمة.

ـ شكّاك.

ـ نعم، شكّاك.

ـ ربّما. تلقّيت من الضربات عددًا كبيرًا ومن المعجزة ألّا أكون كذلك. لكن، ماذا رأيت منّي كي تعتبرني شكّاكًا؟

ـ في كلّ ما رويته لي، لم أرَ شيئًا آخر.

ـ لكن، في بعض اللحظات، لمست منك تعاطفًا ورأيتك متأثّرًا.

ـ هذا لا يعني شيئًا. قصّة حياتك، وما عانيته أثّرا فيّ. كما يؤثّر فيّ كلّ الشقاء والمآسي الكبيرة التي تتحدّث عنها الصحف أحيانًا...

ـ أنت تتهرّب من سؤالي. لماذا تعتبرني شكّاكاً؟

ـ كلّ الشبّان في مثل سنّك هم هكذا. في هذا الزمن على الأقلّ...

ـ ومَن من الشبّان الذين تعرفهم عاش حياة مثل حياتي؟

ـ أنت فقط. ولهذا بالتحديد لن يفيدك ما عشته بالشيء الكثير. قلت لي إنّك تريد أن تعرف الحياة. لماذا؟ لاستخدامك الشخصي، لمصلحتك، ليس أكثر.

ـ من قال ذلك؟

ـ حزرتُه. لديّ حاسّة سادسة، تجعلني أحزر.

ـ هل تمزح من جديد؟

ـ هل تذكر عندما حدّثتني عن الأذرع التي تقيّدنا؟

ـ ذكرتها لك منذ قليل.

ـ طبعًا، وهنا بيت القصيد. كلّ هذا القلق من أن تعلق بشيء ما...

قاطعه أبيل. الآن اختفت ملامح سوء مزاجه. بدا الآن مهتمًّا، بل متحمّسًا أيضًا:

ـ مَاذا؟ تريد أن تراني في وظيفة ثابتة أستقرّ فيها طول حياتي؟ تريد أن تراني مرتبطًا بامرأة؟ تريد أن تراني أعيش الحياة التي يعيشها كل الناس؟

ـ لا أريد ولا أنكر عليك. لو أنّ لما أريده بعض الأهمّية بالنسبة إليك، فما أودّه لك هو ألّا يحملك انشغالك بالهرب من السجون على أن تصبح سجين نفسك، سجين شكوكك...

ارتسم على وجه أبيل ظلّ ابتسامة مريرة.

ـ وأنا كنت أعتقد أنّي أعيش حياة مثالية...

ـ وهي كذلك، إذا استخلصت منها ما استخلصته أنا من حياتي...

ـ وما هو؟ إن كان لي أن أعرف.

أخذ سيلفستري بعض التبغ، وبحث عن الورق ولفّ سيجارته متمهّلاً. ومع أوّل نفس، أجاب:

ـ طريقة معيّنة في النظر إلى الأمور...

ـ عدنا إلى البداية. أنت تعرف ما الذي تعنيه. أنا لا أعرف. الحوار غير ممكن هكذا!

ـ بلى. عندما أقول لك ما أعرفه.

ـ لنرَ إن كان هذا صحيحًا. كان من الأفضل لو قلت ذلك منذ البداية.

ـ لا أظنّ. كان من الضروري أوّلاً أن تسمع.

ـ الآن أسمع. الويل لك إذا لم تقنعني...

هكذا هدّده رافعاً سبّابته، لكنّ ملامح وجهه كانت لطيفة. أجاب سيلفستري على التهديد بابتسامة ردّ بعدها رأسه إلى الوراء ونظر إلى السقف فبدا وريداه في عنقه كأنّهما حبلان مشدودان، وظهر من خلال القميص المفتوح الجزء الأعلى من صدره، يُغطّيه سواد بعض الشعيرات التي تلمع خلالها خيوط صغيرة متشابكة فضّية اللون. بكلّ تأنّ، وكأنّه عائد من عالم مجرّد محمّلًا بالذكريات، نظر سيلفستري إلى أبيل. وفي الحال، بدأ يتكلّم، بصوت عميق يرتجف عند بعض الكلمات، ويشتدّ ويقسو عند كلمات أخرى.

ـ اسمعني يا صديقي. عندما كنت في السادسة عشرة من عمري كنت ما أنا عليه الآن: سكّافًا. كنت أعمل في حجرة صغيرة مع أربعة زملاء من الصباح إلى الليل. في الشتاء، كان الماء يتسرّب من الجدران، وفي الصيف، كان الحرّ قاتلاً. هل تذكر عندما قلت لك إنّ في سن السادسة عشرة بدا لي أنّ ليس في الحياة ما يُدهشني أو يفرحني؟ أنت عانيت من الجوع والبرد بإرادتك، وأنا عانيت منهما من دون أن أريد. وفي هذا فرق كبير. باختيارك الحرّ بدأتَ صنع هذه الحياة ولست ألومك. أمّا خياري أنا فلم أفكّر فيه لأصل إلى هذه

الحياة. كذلك لن أقصّ عليك سنيّ طفولتي، على الرغم من أنّي في شيخوختي قد أُسعد بتذكّرها. لكنّها كانت سنوات حزينة لن يجدي ذكرها سوى إزعاجك. حياة بائسة، قليلة الثياب، كثيرة الصفعات، وقد سمعنا مثل هذا الكثير. فكثيرون هم الأطفال الذين يعيشون اليوم حياة مماثلة، بحيث لم تعد تُثير لدينا الاستغراب...

كان أبيل يسند ذقنه إلى قبضة يده المغلقة ولا يفوّت كلمة ممّا يسمع. كانت عيناه الداكنتان تلمعان، وفمه، ذو الخطوط الناعمة عادةً، يميل إلى القساوة. كان يصغي بكلّ جوارحه وملامحه بينما سيلفستري يواصل الكلام:

ـ كنت في سنّ السادسة عشرة أعيش بهذه الطريقة. كنت أعمل في باريرو. هل تعرف باريرو؟ لم أقصد هذا المكان منذ عدد من السنوات، ولا أعرف ما صار إليه الآن. على كلّ حال، كما قلت لك، أنهيت تعليمي الابتدائي. في المساء، كنت أتابع مع أستاذ لا يتردّد في تسديد الضربات لتلاميذه، وأنا لم أكن استثناء. كانت إرادتي للتعلّم كبيرة، ولكن النعاس كان أقوى. كان الأستاذ يعرف ماذا أعمل في النهار، أذكر أنّني أخبرته ذات مرّة، لكنّ هذا لم يغيّر شيئًا. ولم يعتذر ولو مرّة واحدة. الآن تُوفّي. في ذلك الزمن، كان النظام الملكي يلفظ أنفاسه الأخيرة. بل أعتقد أنه كان...

عندئذ لاحظ أبيل:

ـ أنت جمهوري طبعًا.

ـ إذا كان كلّ رافض للنظام الملكي يُعتبر جمهوريًا، فأنا جمهوري. غير أنّي أعتقد أنّ الملكية والجمهورية هما في النهاية مجرّد كلمتين. وصلنا إذًا إلى الجمهورية. أنا لم أكن أحلّ ولا أربط، لكنّي بكيت بفرح عارم وكأنّ الإنجاز إنجازي. أنت تعيش في هذه الأوقات الصعبة التي تنعدم فيها الثقة، ولا تستطيع تصوّر آمالنا الكبار في تلك الأيّام. لو أنّ كلّ الناس شعروا ما شعرت به، لمرّ زمن لم يكن فيه شخص تعيس في أيّ زاوية في البرتغال. أعرف أنّي كنت يافعًا وأحسّ وأفكّر كالصغار. لاحقًا بدأت أدرك أنّ آمالي سُرقت. الجمهورية لم تعد حدثًا جديدًا، وفي هذا البلد يُقدّر فقط كلّ ما هو جديد. دخلنا مثل الأسود وخرجنا مثل الحمير المستخدمة للتحميل. هكذا كُتب لنا... مع مجيء الجمهوريةكان لدينا الكثير من الحماس، الكثير من التفاني، كما لو أنّه وُلد طفل لنا. لكن كان يوجد أيضًا أشخاص مستعدّون لتصفية مُثلنا العليا. أشخاص من دون مبادئ أو أخلاق. ثم ظهر بعض الذين كانوا يريدون إنقاذ الوطن. كما لو أنّ الوطن كان يضيع... وبدأت فترة لم يعد يعرف فيها أحدنا ماذا يريد. أصدقاء البارحة أصبحوا أعداء في اليوم التالي من دون أن يُعرف السبب. وأنا كنت أسمع هنا و هناك، وأراقب. أردت أن أفعل شيئًا ولم أكن أعرف ما هو. مررت بلحظات كنت مستعدًّا فيها لأقدّم حياتي بملء رغبتي، فيما لو طُلب منّي. خضت نقاشات مع زملائي في الصفّ، وكان أحدهم اشتراكيًا. كان الأكثر ذكاءً بيننا، عالمًا بأمور كثيرة. كان يؤمن بالاشتراكية ويعرف أن يقول لماذا.

وكان يعيرني من كتبه. كأنّي الآن أراه أمامي. كان أكبر منّي سنًّا، نحيلًا جدًّا وشاحبًا جدًّا، ذا عينين تقدحان شررًا عندما يتحدّث عن بعض الأمور. بحكم الوضعية التي كان يعمل بها، ولنحوله، كان يمشي وظهره منحن، وصدره مطوي. كان يقول إنّي أروق له لأنّي في الوقت ذاته قويّ و ذكيّ...

سكت سيلفستري للحظات، أعاد إشعال سيجارته التي كانت انطفأت، وأكمل قائلاً:

ـ كان له اسمك، هو أيضًا كان يدعى أبيل... مرت أربعون سنة وأكثر منذ ذلك الحين. وقد تُوفّي قبل الحرب. غاب عن العمل ذات يوم من دون أن يُعلمنا. ذهبت لزيارته وكان يُقيم مع أمّه. وجدته في سريره يغلي من الحرارة. كان قد تقيّأ دمًا. عندما دخلت غرفة نومه، ابتسم. لقد أسرَتني ابتسامته، بدا وكأنه يودّعني. وبعد شهرين مات. ترك لي كتبه التي أعارني إيّاها، ولا أزال أحتفظ بها إلى الآن...

كانت عينا سيلفستري تتطلّعان إلى الماضي البعيد. رأتا غرفة نوم المريض الفقيرة، كما كانت غرفته هو، واليدين الطويلتين بأظافرهما البنفسجية، والوجه الشاحب، تتوسّطه عينان مشتعلتان كالجمر. وجاء سؤاله:

ـ لم يكن لك صديق قطّ، صحيح؟

ـ لا لم يكن لي صديق...

ـ هذا مؤسف. لا تعرف معنى أن يكون لك صديق. ولا تعرف

كم هو باهظ ثمن فقدانه، أو الحنين الذي نشعر به عندما نتذكّره. هذا واحد من الأمور التي لا تعلّمك إيّاها الحياة...

لم يُجب أبيل، لكنّه أكّد ذلك عبر هزّ رأسه في تأنّ. كان صوت سيلفستري، والكلمات التي يسمعها تبدّل ترتيب أفكاره. وحضر في روحه ضوء، غير مشعّ كثيرًا ولكن متواصل، فأضاء ظلالاً وزوايا. تابع سيلفستري:

ـ ثمّ وقعت الحرب، فسافرتُ إلى فرنسا. ولم أرحل بإرادتي. لقد رحّلوني ولم يكن أمامي خيار آخر. وتهت هناك، غارقًا حتّى ركبتيّ في وحول مقاطعة الفلاند. أقمت في لاكوتور... عندما أتحدّث عن الحرب، لا يسعني قول الكثير. أتصوّر ما كانت عليه بالنسبة إلى الذين عاشوها، وأسكت. أعرف أنّ تلك كانت «الحرب الكبرى»، فأيّ اسم نعطي هذه؟ وأيّ اسم سنعطي الحرب التالية؟

ومن دون أن ينتظر جوابًا، أكمل حديثه:

ـ عندما رجعت، كان هناك شيء مختلف. فانقضاء سنتين يحمل معه دائمًا بعض التغييرات. لكن كنت أنا من تغيّر أكثر. عدت إلى مقعد العمل، في مشغل آخر. زملائي الجدد كانوا رجالاً كبارًا، آباء، وبحسب ما كانوا يقولون، لا يريدون التدخّل في القصص والمشاكل. هكذا عندما اكتشفوا من أكون، تآمروا لدى ربّ العمل فطُردت وتعرّضت للتهديد من قبل الشرطة...

ظهرت على وجه سيلفستري ابتسامة مصطنعة، كأنّه تذكّر مشهداً هزليًا. ثمّ ما لبث أن عاد إلى هدوئه:

ـ تغيّر الزمن. كان بإمكاني قبل سفري إلى فرنسا التعبير عاليًا عن أفكاري أمام رفاقي، ولم يكن يخطر لأحد أن يشكوني إلى الشرطة أو إلى ربّ العمل. فصار يجب أن أسكت عن رأيي، وأبقى ساكتًا. في تلك الفترة تعرّفت إلى ماريانا. من يراها الآن لا يمكن أن يتصوّر الفتاة التي كانتها آنذاك. جميلة مثل صباح يوم من شهر مايو... وهنا سأله أبيل، تقريبًا من دون تفكير:

ـ هل تحبّ زوجتك؟

فوجئ سيلفستري وتردّد في الإجابة. ثم قال بهدوء، وباقتناع واضح:

ـ أحبّها. أحبّها كثيرًا.

وعندئذٍ فكر أبيل: «إنّه الحبّ. الحبّ هو ما يعطيه هذه السكينة. هذا السلام». وفجأة شبّت في قلبه رغبة عنيفة في أن يحبّ، أن يعطي، أن يرى في صحراء حياته زهرة الحبّ الحمراء. وتابع سيلفستري بصوته الهادئ:

ـ تذكّرت صديقي أبيل، أبيل الآخر...

ابتسم الشابّ وقام بحركة تعبّر عن شكره الإشارة اللطيفة.

ـ أعدتُ قراءة الكتب التي تركها لي وبدأتُ أعيش حياة مزدوجة. في النهار، أعمل سكّافًا، صامتًا لا يرى أبعد من نعال الأحذية التي يصلحها. وفي الليل، كنت على حقيقتي. لا تستغرب

إن كانت طريقتي في الكلام لا تدلّ على مهنتي، فقد عشت مع أناس مثقّفين، وإذا لم أتعلّم ما كان ينبغي لي، فقد تعلّمت على الأقلّ ما قدرت عليه. خاطرت بحياتي أحيانًا، ولم أرفض أيّ مهمّة، مهما كانت خطيرة...

أخذ صوت سيلفستري يتباطأ كما لو أنّه يطرد ذكرى مؤلمة، أو كأنّه لا يستطيع تفادي الحديث عنها ولذا يبحث عن الطريقة المناسبة للكلام:

ـ حدث مرّة إضراب لعمّال سكك الحديد. كردّ عليه، أمرت اللجنة المركزية بمغادرة المحطّات. كنت أنا على اتّصال بالعمّال، مكلّفًا بمهمّة عليّ إتمامها معهم. كانت مسألة ثقة، برغم صغر السن آنذاك. كلّفت بإدارة مجموعة كان عليها الانتشار في قطاع من منطقة باريرو، وعند الفجر التقينا بأشخاص من شباب النظام الملكي...

لفّ سيلفستري سيجارة أخرى. كانت يداه ترتجفان قليلاً وعيناه ترفضان النظر إلى أبيل:

ـ مات واحد منهم. تقريبًا لم أرَ وجهه، لكنّه كان شابًّا. بقي ممدّدًا في الشارع، والمطر يهطل خفيفًا وباردًا، والوحل يغطّي الشوارع. وصل رجال الشرطة فهربنا قبل أن يكتشفوا من نكون. ولم يعرف أحد من قتله...

هنا حلّ صمت ثقيل، كما لو أنّ الموت جاء وجلس بين الرجلين. أبقى سيلفستري رأسه منخفضًا، وتنحنح أبيل قليلاً وسأل:

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك... بقيت على هذه الحال لسنوات. ثم تزوّجت. وعانَت ماريانا كثيرًا بسبب التزامي وقضيتي. وبصمت. كانت تعتبر أنّي على حقّ ولم تنتقدني يومًا، ولم تحاول أن تثنيني عن طريقي. أنا مدين لها بذلك. ثم مرّت السنون، وها أنا اليوم كهل...

نهض سيلفستري وخرج من الشرفة الناتئة. وعاد بعد ثوان بزجاجة مشروب الكرز وكوبين.

ـ هل تريد بعض مشروب الكرز تدفئ به نفسك؟

ـ أريد.

وصمت الرجلان وأمامهما كوبان ممتلئان، ليسأل أبيل بعد مرور دقائق:

ـ فإذًا؟

ـ فإذًا ماذا؟

ـ أين هي طريقة الحياة التي ذكرتها؟

ـ ألم تكتشفها؟

ـ ربّما، لكن أفضّل أن أسمعها منك.

شرب سيلفستري محتوى كوبه جرعة واحدة، ومسح فمه بظاهر يده وأجاب:

ـ إذا لم تكتشفها بنفسك، فهذا لأنّي لم أعرف كيف أقول لك ما أشعر به. ولا أستغرب. فهناك أمور كثيرة يصعب قولها... نحسب أن كلّ شيء قيل، وفي النهاية...

ـ لا تهرب.

ـ لا، أنا لا أهرب. تعلّمت أن أرى في ما يتجاوز نعال هذه الأحذية. تعلّمت أنّ وراء هذه الحياة البائسة التي يعيشها الناس، هناك مثل أعلى، وأمل كبير. تعلّمت أن حياة كل واحد فينا يجب أن تُوجّه نحو هذا الأمل وهذا المثل الأعلى. وإن كان هناك من يرى العكس، فلأنّه مات قبل أن يولد.

هنا ابتسم وأضاف:

ـ هذه العبارة ليست لي. بل سمعتها منذ سنين طويلة...

ـ وبرأيك أنا أنتمي إلى المجموعة التي ماتت قبل أن تولد؟

ـ أنت تنتمي إلى مجموعة أخرى، مجموعة أولئك الذين لم يولدوا بعد.

ـ أتراك غفلت عن الخبرة التي أملكها؟

ـ لم أغفل عن شيء. الخبرة مجدية فقط عندما ينتفع بها الآخرون، وأنت لست نافعًا لأحد.

ـ أعترف بأنّي لست نافعًا. ولكن أيضًا ما نفع حياتك أنت مثلاً؟

ـ لقد حاولت. وإذا كنت لم أنجح، فعلى الأقلّ يبقى جهد المحاولة...

ـَ على طريقتك أيضًا. لكن من يقول لك إنّها الطريقة الفُضْلى؟

ـ اليوم كلّ الناس تقريبًا يقولون إنّها الأسوأ. فهل تُراك من الذين يتكلّمون هكذا؟

ـ بصراحة، لا أدري...

ـ لا تدري؟ بعد كل ما عشته وما رأيته، وفي سنّك هذه، لا تدري؟

لم يستطع أبيل تحمّل نظرة سيلفستري إليه فأخفض رأسه. وتابع السكّاف بإلحاح:

ـ كيف يعقل ألا تدري؟ ألم تعلّمك اثنتا عشرة سنة من العيش بهذه الطريقة بعد عن وضاعة حياة الناس؟ عن البؤس؟ الجوع؟ الجهل؟ الخوف؟

ـ علّمتني كل هذا. لكنّ الزمن مختلف...

ـ صحيح. الزمن مختلف. لكن الناس هم أنفسهم...

ـ بعضهم ماتوا... صديقك أبيل، مثلاً...

ـ وآخرون وُلدوا. صديقي أبيل... أبيل نوغيرا، مثلاً.

ـ أنت تُناقض نفسك. منذ لحظة قلت إنّي أنتمي إلى المجموعة التي لم تولد بعد...

دفع سيلفستري من جديد بالكرسيّ المنخفض إلى الأمام. أخذ حذاء وعاد إلى العمل. وأجاب بصوت مرتجف:

ـ ربّما لم تفهمني.

ـ أفهمك أكثر ممّا تعتقد...

ـ وتعطيني الحق؟

نهض أبيل، نظر إلى الحديقة الصغيرة من خلال الزجاج. كان الليل مظلمًا. فتح النافذة. الصمت والعتمة يلفّان كلّ شيء، ولكن كان في السماء بعض النجوم. درب التبانة يفرد طريقه المضيء من أفق إلى أفق. ويتصاعد من المدينة نحو الأعالي ضجيجٌ أخرس أشبه بضجيج فوهة بركان.

****

٢٢

وجاء شفاء إنريكي سريعًا، يعود الفضل فيه إلى حيوية سنواته الصغيرة. غير أنّه على الرغم من ضآلة عارضه الصحّي، بدا وكأنّ طباعه تبدّلت، وازدادت حساسيته، ربّما بسبب تدليله الزائد في التعامل مع حالته خلال مرضه. صارت تكفي كلمة واحدة قويّة نوعًا ما حتّى تغرورق عيناه بالدمع ويمضي باكيًا.

من ولد صاخب كثير الجلبة، تحوّل إلى صبي يُفضّل السكوت. صار يجلس في حضور والده بجدّية ويُرافقه بصمت. يُراقبه بنظرات عطوفة، بتقدير أبكم، بتأمّل يملأه الشغف. أمّا الأب فلم يُكثر من إظهار حنانه، ولذلك لم يكن بينهما تطابق في أشكال التعبير المتبادلة. ما يجذب أنريكي الآن هو بالتحديد ما كان في السابق يُبعده: الصمت، الجملة المختصرة، مظهر الحاضر الغائب. لقد رأى والده عندما داوم إلى جانب سريره لدوافع يجهلها، وما كان ليفهمها حتّى لو عرفها. حضور أبيه الدائم، ووجهه القلق والمتحفّظ في آن واحد، وأجواء الكراهية التي تحيط بالمنزل، كل ذلك مضافًا إلى حساسية إنريكي في استقبال الأمور وشفافية إدراكه اللتين أضفاهما عليه المرض، جعلاه يميل ميلاً مبهمًا نحو أبيه. هكذا فُتح في دماغه الصغير واحد من أبواب كثيرة كانت

مغلقة قبل الآن، فكان من دون وعي منه يقوم بخطوة نحو النضوج ويلاحظ غياب الانسجام العائلي.

هو طبعًا حضر في ما مضى مشاهد عنيفة بين والديه، ولكن كمُشاهد محايد، غير مبالٍ، كمن يتفرج على مباراة لا تطوله بشيء من قريب أو بعيد. الآن لا. فهو ما زال تحت تأثير المرض وانطباعاته من الحالة المزرية التي كان فيها، يلتقط تجلّيات هذا العراك الكامن، من دون تقدير أو قياس لمدى رغبته في هذا الالتقاط. العدسة التي كان ينظر إلى والديه من خلالها تبدو وكأنّها انحرفت قليلاً، ولكن بقدر يكفي ليراهما بنظرة مختلفة. عاجلاً أم آجلاً كان على هذا التغيير أن يحصل، وما كان من المرض إلّا أن عجّل في حدوثه.

أما الأمّ، فلا شكّ في أنّها لم تخسر شيئًا في نظره، فقد بقي يراها كما من قبل. لكن الأب هو من اكتسى حلّة جديدة. إنريكي في السادسة من عمره، ومن المستحيل أن يفهم كيف يحصل التبدّل في داخله. لذلك بالنسبة إليه، الأب هو من تحوّل. والواقع أنّ الأب لم يزد من التحدّث إليه أو من تقبيله عن ذي قبل، وهذا ما يحمل إنريكي، لعدم إيجاده تفسيرًا آخر، على ردّ السبب إلى الرعاية التي أحاطه بها أبوه أثناء مرضه. هكذا يصبح كلّ شيء في محلّه. باختصار، لم يكن التفات إنريكي أكثر من مبادلة. ليس بسبب الاهتمام الحالي، بل الاهتمام الماضي. اعتراف وعرفان بالجميل. كلّ فترة من الحياة تعتمد من التفسيرات أسهلها وأسرعها.

كان إنريكي يُظهر هذا الميل الجديد سواء أكان الظرف يستدعي أم لا. عند العشاء، صارت المسافة التي تفصل بين كرسيّي إنريكي وأبيه أقلّ من المسافة التي تفصله عن أمه. وعندما كان إميليو يجلس في الأمسيات لترتيب أوراقه ومشترياته وطلبياته التي جمعها خلال النهار، كان ابنه يسند ذراعيه إلى الطاولة كي يراه يعمل. وإذا صدف أن وقعت إحدى هذه الأوراق أرضًا، كما كان إنريكي يتمنّى من كلّ قلبه، كان الولد يُسرع إلى لمّها وتسليمها لأبيه. وإذا ابتسم الأب تعبيرًا عن شكره، فإنريكي هو أسعد طفل في العالم. ولكن هناك أيضًا سعادة أكبر لا تقبل المقارنة بأيّ شكل كانت، وهي عندما يضع والده يده فوق رأسه. في هذه اللحظات، كان إنريكي يكاد يغشى على بصره. أمّا بالنسبة إلى إميليو، فكان اهتمام ابنه المفاجىء به وغير القابل للتفسير ظاهريًا يُحدث لديه ردّي فعل مختلفين ومتناقضين. الأوّل هو التأثّر العاطفي. فحياته إلى هذا الحدّ فارغة من العواطف، وبعيدة عن الحب بحيث يشعر بعزلة أكيدة، ما يجعل هذه اللفتات الصغيرة، ووجود ابنه الدائم إلى جانبه، وإخلاصه العنيد، من الأسباب التي تحرّك فيه المشاعر. لكنّه أيضًا سرعان ما يحسّ بالخطر: فهذا الاهتمام وهذا الانفعال من شأنهما أن يجعلا قرار الانفصال الذي كان قد اتخذه أكثر صعوبة. فقسا قلبه، وحاول إبعاد ابنه مُظهراً نواحي في شخصيته قد تُثني الولد عن عزيمته. لكن الابن لا ينثني ولا ييأس. لو أنّ إميليو لجأ إلى العنف ربّما لكان أبعده. لكنّه لم يستطع. لم يضربه قطّ ولن يضربه حتّى لو كان

الضرب ثمنًا لحرّيته. مجرّد فكرة أن اليد التي بها يلامس ابنه، والتي يحبّها الصبي بالتحديد لأجل هذه اللمسة، ستعتدي عليه بالضرب كانت تُسبّب له استياء ما بعده استياء.

كان إميليو يفكّر كثيرًا، ويشغل دماغه بأيّ شيء. يدور حول المشاكل، يغوص فيها، يختنق بها، وفي النهاية يصبح تفكيره نفسه مشكلة. كان ينسى أكثر ما يهمّه ويتلهّى بالبحث عن الدوافع، عن الأسباب. الحياة تمرّ بمحاذاته ولا يلحق بها. المسألة التي عليه حلّها تقف أمام عينيه ولا يراها. حتّى ولو كانت تصرخ له: «أنا هنا، انظر إليّ»، فهو لا يسمعها. الآن مثلاً، بدل أن يعجّل في الطريقة التي تُبعده عن تعلّق ابنه به، راح يبحث عن أسباب هذا التعلّق نفسه، وبما أنّه لم يجدها، انطلق عقله في طرقات اللاوعي المتشابكة، وخلص إلى تفسيرٍ فيه شيء من التطيّر: لأنّه أعلن أنّه سينفصل، ساءت حال ابنه، وللسبب ذاته، جزع الولد من فقدان أبيه وأظهر كلّ هذا التعلّق غير المتوقّع. ولكن عندما كان تفكير إميليو يخرج من هذا التشابك الذي يشلّ الحركة، كان يدرك عدم صوابية استخلاصه: فإنريكي يوم مرضه كاد لا يسمع كلماته، ولم يعرها من الانتباه أكثر ممّا يعير طيران ذبابة عابرة؛ بلحظة يراها، وبلحظة ينساها. كما أنّه لم يسمع عبارات أبيه الأخيرة، تلك العبارات الحاسمة والتي لا رجوع عنها، لأنّه كان قد نام. لكن هنا يعود دماغ إميليو ويذهب في رحلة جديدة على وتر اللاوعي الضعيف: الكلمات التي تُقال، ولو أنّها لم تُسمع، تبقى في الهواء،

تُحلّق في الجوّ، وتجد إذا صحّ التعبير من يتنفّسها، فتُحدث الأثر ذاته كما لو كانت وجدت طريقًا إلى أذن تسمعها. هذا هو استنتاجه غير المنطقي، المتطيّر، المنسوج من نذائر نحس وخوف، وألغاز لا يفقهها عقل.

بالنسبة إلى كارمن، كان ما يحدث دليلاً أكثر وضوحًا على مكر زوجها. فهو لم يكتفِ بأنه حرمها السعادة، بل يريد الآن أن يسرق منها آخر ما تملكه، حبّ ابنها. وهكذا أخذت تحارب خطط إميليو الشريرة، وضاعفت من مظاهر حنانها على الصغير.

لكن إنريكي كان ينتبه إلى مجرد نظرة من أبيه أكثر من التفاته إلى فيض من عواطف أمه. ومن يأسها وصلت كارمن إلى حدّ الاعتقاد بأنّ زوجها أقام عليه السحر، أو ناوله محلولاً ما شربه فتبدّلت مشاعره. ومن تمسّكها بهذه الفكرة، جاء ردّ فعلها كما يلي: راحت في الخفاء تُغرق الولد في صلوات وتطهيرات، وتُرهبه مهدّدة بضربه إذا قال كلمة لوالده.

أدّت هذه الطقوس بإنريكي إلى الاضطراب فغدا أكثر عصبية واستثارة. ولخوفه من تهديدات أمه، اقترب أكثر من أبيه.

إذًا باءت محاولات كارمن بالفشل: لا السحر ولا اللمسات الحنونة استطاعت تحويل إنريكي عن عناده. لهذا أصبحت أكثر عدائية، وبدأت تبحث عن أيّ سبب لتضربه، وتصفعه عند أقلّ غلطة أو شغب يقوم به. كانت تعرفُ أنها تخطىء التصرّف، لكنّها تعجز

عن السيطرة على نفسها. وعندما ترى ابنها باكيًا بعد ضربها له، تذهب وتبكي وحدها في الخفاء، غضبًا وندمًا. كانت ترغب في ضربه حتّى التعب، ولو كانت تعرف أنها ستندم لاحقًا ألف مرّة أكثر. فقدت التحكّم بنفسها، وصارت تهوى القيام بأيّ فظاعة، تكسر كلّ ما تراه أمامها، تدور في المنزل وتركل قطع الأثاث وتلكم الجدران، تصرخ في أذني زوجها، تهزّه، تصفعه. كانت أعصابها منهكة أفقدتها الحذر وبعض المخافة اللذين كان يفترض، كامرأة متزوجة، أن تحرص عليهما في علاقتها بزوجها.

ذات مساء وخلال العشاء، اقترب إنريكي بكرسيّه من والده مسافة أثارت موجة من الغضب عصفت بكارمن وارتفعت حتى حلقها فأحسّت برأسها يكاد ينفجر. رأت كلّ شيء يتراقص حولها وكي لا تنهار، اضطرّت إلى الاستناد إلى الطاولة فأدّت حركتها الفطرية إلى وقوع زجاجة وتكسّرها. الحادثة، ورؤية الزجاج المتكسّر كانتا الشرارة التي أشعلت ثورتها فقالت في ما يشبه الصراخ:

ـ لقد تعبت! لقد تعبت!

إميليو الذي كان يتناول حساءه غير مبالٍ عندما انكسرت الزجاجة رفع رأسه بهدوء، نظر إلى زوجته بعينيه الفاتحتين والباردتين وسألها:

ـ ممّ؟

قبل أن تجيب، ألقت كارمن ناحية ابنها نظرة محمّلة بالانزعاج والتوتّر جعلته يلمّ نفسه ويتمسّك بذراع أبيه.

ـ لقد تعبت منك. تعبت من هذا المنزل. تعبت من ابنك. تعبت من هذه الحياة. تعبت!

ـَ الحلّ بيدك.

ـ هذا ما تتمنّاه أنت، أن أرحل، لكنّي سأبقى.

ـ كما تريدين...

ـ وإذا أردت الذهاب؟

ـ اطمئنّي، فلن أذهب للبحث عنك.

وأرفق جملته الأخيرة بابتسامة هادئة كانت بالنسبة إلى كارمن أقسى من صفعة على وجهها. فأجابت، واثقة بأنّها ستصيب زوجها في الصميم:

ـ ربّما سأرحل... لكن إن رحلت، فلن أرحل وحدي.

ـ لم أفهم.

ـ سآخذ ابني معي.

شعر إميليو بيد الصبي تشدّ على ذراعه. نظر إليه لبرهة ورأى شفتيه ترتجفان وعينيه تتبلّلان، فاجتاحه إشفاق عميق وحنان لا يمكن إسكاته. وأراد أن يجنّب ابنه ذلك المشهد المخزي:

ـ هذا حوار غبي. ألا تبالين بوجوده؟

ـ لا يهمّني! لا تتظاهر بعدم الفهم.

ـ انتهينا الآن.

ـ ننتهي فقط عندما أريد.

ـ كارمن!!

رفعت المرأة رأسها ونظرت إلى زوجها. بدا حنكها القوي، والذي يرقّ مع العمر، كأنّه يتحدّاه:

ـ لا تخيفني. لا أنت ولا غيرك.

كان هذا واضحًا. لم تكن كارمن خائفة. ولكن فجأة تكسّر صوتها في حنجرتها وانهمرت الدموع على وجنتيها. استبدّ بها انفعال عجزت عن السيطرة عليه فاندفعت صوب ابنها. جثت على ركبتيها وبصوت يقطّعه البكاء، تمتمت بما يشبه النحيب:

ـ ابني حبيبي، انظر إليّ، أنا أمّك. أنا صديقتك. أنت لا تحبّ أحدًا أكثر منّي. انظر...

كان إنريكي يرتجف من الخوف ويتشبّث بوالده. تابعت كارمن حوارها غير المتماسك، وهي ترى كلّ مرة بوضوح أكثر كيف يهرب منها ابنها، غير قادرة، مع كلّ هذا، على التخلّي عنه. نهض إميليو وقد أفلت الولد من ذراعي أمّه، ثم أجلسها على أحد الكراسي. وتركته يحملها لأنّها كانت على شفير الانهيار.

ـ كارمن!

كانت كارمن تجلس منحنية إلى الأمام ورأسها بين يديها. في

الناحية الثانية من الطاولة، بدا إنريكي وكأنّه سيصاب بنوبة عصبية. فمه مفتوح يبحث عن هواء يتنفّسه، وعيناه غائمتان، جامدتان مثل عينيْ مكفوف. ركض إميليو إليه، قال بضع كلمات لتهدئته وأخرجه من المطبخ.

بعد جهد جهيد، هدأ الصغير. وعندما رجعا إلى المطبخ، كانت كارمن تمسح عينيها بمريلة متّسخة. هناك، محنيّة مثل امرأة عجوز، بوجه أحمر ومتشنّج، بدت مثيرة للشفقة. تألّم إميليو لأجلها:

ـ هل أصبحت أفضل؟

ـ نعم. والصغير؟

ـ بخير.

جلسوا إلى المائدة بهدوء، وبهدوء راحوا يأكلون. بعد المشهد العاصف، أجبرهم التعب على الصمت. أبًا، وأمًّا، وابنًا. ثلاثة أشخاص تحت سقف واحد، تحت ضوء واحد، يتنفّسون هواءً واحدًا. عائلة...

عند انتهاء العشاء، ذهب إميليو إلى غرفة الجلوس يتبعه الصغير. جلس في مقعد قديم من الخيزران، مرهقًا كالعائد من عمل مضنٍ. انحنى إنريكي فوق ركبتيه. سأل الأب:

ـ كيف تشعر؟

ـ أنا بخير، بابا.

مرّر إميليو أصابعه في شعر ابنه الناعم. هذا الرأس الصغير، الذي تبحر فيه يده، أصابه بدفق من الحنان. أبعد الشعر عن العينين، مسح الحاجبين الدقيقين بأصابعه ثمَّ تابع ملامح الوجه نزولاً حتى أسفل الذقن. استسلم إنريكي للملامسات مثل جرو صغير. كان تقريبًا يحبس نفسه، كأنّه يخشى أن يكفي نفس واحد ليتوقّف الحنان. تابعت يد إميليو رسم ملامح ابنه ونسيت ماذا تفعل،كما في حركة آلية لا مشاركة فيها للوعي. أحسّ الصغير بسهو والده، فانزلق من بين ركبتيه ووضع رأسه على صدره.

الآن تحرّر إميليو من نظرة ابنه. سرحت عيناه بين قطع الأثاث، وبين الأغراض. كان هناك عمود يعلوه تمثال صبيّ من الفخار الملون يرمي صنارة، على الرغم من وجود أكواريوم فارغ عند قدميه. وينسدل تحت هذا التمثال الصغير، من عند أسفل العمود، سماط يظهر مهارات كارمن المنزلية. فوق خزانة الآنية التي تضم بعض الأدوات الخزفية فقط، من بلدة ساكافيم البرتغالية، يوجد بضع كؤوس مضيئة من دون لمعان. ويمعن عدد آخر من الأغطية القماشية بالتعبير عن فن ربّة المنزل في التزيين. لكن كل شيء باهت، كما لو أن طبقة رقيقة من الغبار، يستحيل مسحها، تغشى الألوان وبريقها.

وما استقبلته عينا إميليو كان بشاعة، ورتابة، وابتذالاً. انطباع يُثير الاكتئاب. في السقف ثريا تنشر الضوء، ولكن بدا دورها في تلك اللحظة وكأنها بالأحرى ناشرة للظلال. هذا والثريا من النوع

العصري، بأذرع من الكروم، كلّ ذراع يحمل مصباحه. ولكن أُضيء فقط واحد من المصابيح، بداعي التوفير.

من المطبخ كانت كارمن تبثّ صوت تنهّداتها العميقة وهي تجترّ استياءها وتغسل الأطباق.

بينما كان إميليو يضمّ ابنه إلى صدره، استحضر قِصر حياته الحالية، وتذكر قِصر حياته الماضية. أمّا المستقبل... فهو يضمّه بين ذراعيه، لكنّه ليس مستقبله هو. بعد بضع سنوات، هذا الرأس الذي يستند الآن راضيًا إلى صدره سينصرف إلى شؤونه الخاصّة. لكن ماذا بشأنه هو؟

أبعد إميليو ابنه على مهل ونظر إليه. كان فكر إنريكي لا يزال نائمًا خلف السكينة. وكلّ شيء لا يزال مختبئًا عنه خافيًا عليه.

****

٢٣

همست أميليا في أذن أختها:

ـ تمرّ الفتاتان بمشاكل.

ـ ماذا؟

ـ تمرّان بمشاكل...

كانتا في المطبخ، بعد انتهاء العشاء بقليل. كانت أدريانا وإيساورا تعملان على فتح عرى القمصان في الغرفة المجاورة، وبابها المفتوح يُرسل بعض الضوء في الممرّ المظلم. نظرت كانديدا إلى شقيقتها مستغربة، فأصرت أميليا:

ـ ألا تصدّقين؟

رفعت الأخرى كتفيها ومطّت شفتها السفلى معترفةً بجهلها ما يدور...

ـ لو أنّك لا تغلقين عينيك على الدوام، لكنتِ انتبهت مثلي...

ـ ولكن بمَ تُراهما تمرّان؟

ـ هذا ما أودّ أن أعرفه.

ـ ربّما هو مجرّد انطباع لديكِ.

ـ ربّما. لكنّ عدد الكلمات التي تبادلتاها اليوم لا يتجاوز عدد الأصابع. وليس اليوم فقط. ألم تلاحظي؟

ـ لا.

ـ كما أقول لكِ. تعيشين مغلقة العينين. دعيني هنا أهتمّ بالمطبخ، واذهبي إلى الداخل. وراقبيهما...

توجّهت كانديدا بخطواتها الصغيرة إلى الممرّ ثمّ إلى الغرفة حيث كانت ابنتاها.

كانتا مكبّتين على عملهما، ولم ترفعا رأسيهما عندما دخلت أمّهما. الراديو يبثّ ومن دون جلبة كبيرة موسيقى «لوتشيا» لدونيزيتي، ومعها الطبقات الحادّة لصوت سوبرانو مرتفع. قالت كانديدا، وغايتها أن تجسّ نبض الأجواء ولو جاءت في شكل تعليق على الغناء:

ـ يا له من صوت... وكأنها تغزل به غزلاً.

ابتسمت الابنتان ابتسامة متكلّفة يتّضح فيها الجهد المبذول كذلك الذي تجبر المغنّية نفسها عليه في تلك الاستعراضات الصوتية. قلقت كانديدا، وأحسّت بأنّ أختها محقّة. شيء ما يحدث بين ابنتيها. لم يسبق أن رأتهما هكذا، متحفّظتين متباعدتين. وكأنّ الواحدة منهما خائفة من الأخرى. أرادت أن تقول كلامًا يُصلح ما بينهما لكن حنجرتها، التي جفّت فجأة، لم تجد ما تنطق به. تابعت إيساورا وأدريانا العمل. وخفت صوت المغنّية مرفقًا بموسيقى تكاد

لا تُسمع وتتلاشى تدريجيًا. ثم صدرت عن الأوركسترا ثلاث نغمات سريعة ليصدح بعدها صوت التينور القوي الآسر. هنا أرادت كانديدا أن تقول شيئًا:

ـ ما أجمل غناء بنيامينو جيلي.

تقاطعت نظرتا الشقيقتين، مرتابتين، كلّ واحدة متمنّية أن تتكلّم أختها. كلّ واحدة تشعر بضرورة الإجابة. وأتت الإجابة من أدريانا:

ـ هذا صحيح. غناؤه رائع. لكن تقدّمت به السنّ.

ودافعت كانديدا عن جيلي، محاولةً أن تُسعد نفسها بإحياء الأجواء السابقة في سهرات المنزل، ولو لدقائق قليلة:

ـ هذا لا ينتقص منه شيئًا. اسمعيه جيّدًا... لا أحد مثله. ولو أنّه كبير في السنّ... الكبار أيضاً لهم قيمتهم. أخبريني إن كنت تعرفين مغنّيًا آخر يتفوّق عليه. الكبار يساوون أكثر من كثير من الشبّان...

أحنت إيساورا رأسها، كما لو كان القميص الذي تعمل عليه يُسبّب لها معضلة كبيرة. فإشارة أمّها إلى قيمة كبار السن و صغاره، ولو أنّها تكاد لا تطولها، دفعت بالدم إلى وجهها، تمامًا مثل كلّ الذين يخفون سرًّا ما، ويرون تلميحات وشكوكاً في أيّ كلمة وأيّ نظرة. لاحظت أدريانا ارتباكها، وحزرت دافعه فأرادت وضع حدّ للمحادثة:

ـ الكبار دائمًا يتأفّفون منْ صغار السن.

فقالت كانديدا:

ـ لكنّي لا أتأفّف...

ـ أعرف.

مع هذه الكلمات، بدرت عن أدريانا حركة تنمّ عن عدم صبرها. هي عادة إنسانة هادئة إلى حدّ البرود، بعكس أختها العصبية التي يخونها توتّرها ويدلّ على حياة داخلية كثيفة ومضطربة. غير أن أدريانا الآن هي التي تبدو معكّرة المزاج، كلّ حديث يزعجها وخصوصًا هيئة أمّها المرتبكة والحزينة باستمرار. ونبرة الاستكانة التي تتكلّم بها توترها.

لاحظت كانديدا الفتور في صوت أدريانا وسكتت. تقلّصت على كرسيّها، أخذت شغل الكروشيه خاصّتها وحاولت إخفاء حضورها.

كانت بين الحين والحين تختلس النظر إلى ابنتيها. إيساورا إلى الآن لم تفتح فمها. كانت مأخوذة بعملها لدرجة بدت معها غير منتبهة إلى الموسيقى. جيلي والسوبرانو توتي دال مونتي يهدلان بأنشودة حب من دون جدوى. إيساورا لا تصغي، أدريانا، أفضل منها بقليل. وحدها كانديدا، وبرغم انشغالها، تركت ألحان دونيزيتي السلسة والعذبة تحملها. وبعد ذلك بقليل، بينما هي مشغولة بغرزات الكروشيه وإيقاع الأنغام، نسيت أمر ابنتيها. ولم يوقظها من هذا الشرود إلا صوت أختها يُناديها من المطبخ.

سألتها أميليا، عندما وصلت إليها:

ـ ماذا وجدت؟

ـ لم ألاحظ شيئًا.

ـ هَذا ما توقّعته...

ـ لكن عزيزتي... هذه تخيّلاتك... عندما تبدئين في الشكّ...

أدارت أميليا عينيها في جحرهما، كما لو أنّها تعتبر كلام أختها عبثًا، بل أكثر من عبث، غير صائب. لم تجرؤ كانديدا على إتمام جملتها. ورفعت أميليا كتفيها، في حركة تدل على استيائها عندما لا يفهمها الآخرون، وقالت:

ـ سأتحرّى بنفسي. كان من الغباء الظنّ أنّه يمكنني الاعتماد عليك.

ـ لكن هل لديك دليل ملموس يحملك على هذه الشكوك؟

ـ لن أقول لك.

ـ يجب أن تقولي لي. إنّهما ابنتاي وأودّ أن أعرف...

ـ ستعرفين في الوقت المناسب.

ظهرت على كانديدا ملامح توتّر غير منتظرة جعلتها تبدو مثل عصفور كنار ينتفض في قفصه من الغضب:

ـ أعتقد أنّها مجرّد ترّهات... وساوس تلمّ بك...

ـ وساوس؟ هذه كلمة قويّة. أنا أقلق على ابنتيك وأنت تتّهمينني بالوساوس؟

ـ لكن، أميليا...

ـ دعكِ من أميليا. اتركيني في عملي واذهبي أنت إلى عملك. سيأتي يوم وتشكرينني.

ـ أشكرك منذ الآن لو تخبرينني بما يجري. ما ذنبي أنا إذا لم أكن دقيقة الملاحظة مثلك؟

نظرت أميليا إلى أختها بطرف عينها، غير واثقة. شعرت كأنّ في نبرة الأخت بعض السخرية، وبأنّ تصرّفها هي يفتقر إلى المنطق، فكادت تعترف بأنّها لا تعرف شيئًا. تودّ لو تُطمئن شقيقتها، ومعًا قد تصلان إلى اكتشاف سبب الخلاف بين إيساورا وأدريانا. ولكن منعها كبرياؤها. الاعتراف بجهلها بعد تأكيدها أنها تعرف ما تعرف عملٌ يتجاوز قدراتها. اعتادت أن تكون دائمًا على حقّ، أن تتكلّم كمرجع موثوق وليست مستعدّة بتاتًا للتنازل عن دورها هذا. فتمتمت قائلة:

ـ لا بأس. السخرية أمر سهل. سأتصرّف حيالهما بمفردي.

رجعت كانديدا إلى ابنتيها، هذه المرّة أكثر قلقًا من المرّة الأولى. أميليا تعرف شيئًا ولا تريد أن تخبرها به. ما هو يا ترى؟ بين أدريانا وإيساورا المسافة ذاتها كما تركتهما، لكن الأمّ تحسّ وكأنها أميال.

جلست على كرسيّها، أخذت الكروشيه وحاكت بسرعة بعض

الغرزات، ثم عجزت عن المتابعة فأرخت يديها، وتردّدت للحظة قبل أن تسأل:

ـَ ما بكما؟

أمام هذا السؤال المباشر، صدرت عن إيساورا وأدريانا حركة مذعورة.

مرّت ثوان لم تجدا فيها ما تقولانه، ثم أجابتا في وقت واحد:

ـ نحن؟ لا شيء...

وأضافت أدريانا:

ـ ولكن أمّي، أيّ أفكار تجول في رأسك؟

وفكّرت الأم «طبعًا، ليست أكثر من حماقة». ابتسمت ونظرت بتأنّ إلى ابنتيها، نظرة إلى الأولى، ثم إلى الثانية، وقالت:

ـ أنتما على حقّ، هذه حماقة. مجرّد أوهام تملأ رأسي... دعكما مني.

أخذت الكروشيه من جديد واستأنفت عملها. بعد لحظات، نهضت إيساورا وخرجت. تبعتها أمّها بنظرة تائهة حتّى اختفت. انحنت أدريانا أكثر على القميص بينما يخلط المذياع الآن بين صوت المغنّي وصوت المغنّية. لا شكّ في أنّها نهاية فصل من الأوبرا، مع مشهد فيه حشد من الشخصيات تتراوح أصواتها بين الحادّة والعريضة. والنتيجة بلبلة، وخصوصًا ضجيج وجلبة. فجأة، وبعد دويّ معدني سُمع فوق الغناء، قالت كانديدا:

ـ أدريانا.

ـ أمّي.

ـ انهضي وانظري ما بها أختك. ربّما ليست بخير.

قامت أدريانا بحركة لم تخفَ على أمّها دلّت على عدم رغبتها في النهوض:

ـ إذًا؟ ألن تذهبي؟

ـ طبعاً سأذهب. ولِمَ لا أذهب؟

ـ هذا ما أودّ لو أعرفه.

كان في عينيّ كانديدا بريق غريب، وكأنّهما تتبلّلان بالدمع.

ـ لكن ماما. فيمَ تفكّرين؟

ـ لا أفكّر في شيء يا ابنتي. لا أفكّر في شيء...

ـ صدّقيني، لا يوجد ما يستدعي التفكير والقلق. نحن بخير.

ـ أتعدينني؟

ـ أعدك...

ـ أتمنّى ذلك. ولكن اذهبي لرؤيتها، اذهبي.

خرجت أدريانا، وتركت الأمّ قطعة الكروشيه تقع على حضنها، ومعها وقعت دموعها المكبوتة حتّى الآن. دمعتان فقط، دمعتان يتيمتان كان يجب أن تُذرفا لأنّهما وصلتا إلى العينين واستحال

ردّهما. لم تصدّق كلام ابنتها، بل هي تأكّدت الآن من أنّ بين إيساورا وأدريانا سرًّا لا تريد أيّ منهما، أو لا تستطيع، البوح به.

دخلت أميليا فانقطع حبل أفكار كانديدا من جذوره. أمسكت بالصنّارة وطأطأت رأسها.

ـ أين الفتاتان؟

ـ في الداخل.

ـ ماذا تفعلان؟

ـ لا أعرف. إذا أردت التحرّي فاذهبي وتجسّسي عليهما، لكنّك ستضيعين وقتك. أدريانا أكّدت لي، لا يوجد بينهما أيّ مشكلة.

نقلت أميليا أحد الكراسي من مكانه بعنف وأجابت بصوت قاس:

ـ رأيك لا يهمّني. لستُ من النوع الذي يتجسّس، ولكن إذا اقتضى الأمر، سأبدأ الآن.

ـ كم أنت متشبّثة برأيك.

ـ لا يهمّ ماذا أكون. لكن، وفي أيّ حال، ليكُن بعلمك أنّي لا أقبل كلامًا كالذي قلته لي لتوّك.

ـ لم أقصد إهانتك.

ـ أهنتني وانتهيت.

ـ أعتذر.

ـ اعتذارك متأخّر.

نهضت كانديدا. كانت أقصر قامةً من أختها بقليل، وتقف لاشعوريًا على رؤوس أصابعها.

ـ لا أرى في عدم قبولك اعتذاري تصرّفًا لائقًا. أدريانا وعدتني.

ـ لا أصدّق كلامها.

ـ أنا أصدّقه، وهذا أكثر من كافٍ.

ـ تقصدين القول إنّه لا علاقة لي بحياتكن؟ أهذا ما تقصدين؟ أعرف جيّدًا أنّي لست أكثر من أختك وأنّ البيت ليس بيتي، لكنّي لم أتصوّر أنّك ستجعلينني أشعر بذلك.

ـ أنت تفسّرين كلامي تفسيرًا خاطئًا. ليس هذا ما قلته لك.

ـ لكن اللبيب يفهم.

ـ حتّى الألبّاء يُخطئون أحيانًا...

ـ كانديدا!

ـ تستغربين؟ شكوكك الحمقاء أفقدتني صبري. لننهِ نقاشنا. من المؤسف أن نتشاجر لأمر بهذه التفاهة.

قالت هذا وغادرت الغرفة، من دون أن تنتظر جواب أختها، واضعة يديها على عينيها. وبقيت أميليا واقفة، جامدة مكانها،

وأصابعها المتشنّجة ممسكة بظهر الكرسيّ. كانت مبلّلة العينين، هي أيضًا. من جديد، أحسّت بالرغبة في أن تقول لشقيقتها إنّها لا تعرف شيئًا، لكن الكبرياء منعها مرّة ثانية.

نعم، الكبرياء منعها، ولكن منعتها خصوصًا عودة ابنتي أختها. جاءتا مبتسمتين، لكنّ نظرتها الثاقبة اكتشفت زيف الابتسامات، وكأنّهما لبستاها خلف الباب، كما تُلبس الأقنعة. فكّرت في سرّها: «إنّهما متّفقتان على خداعنا»، وتمسّكت أكثر بقرارها اكتشاف ما يختبئ وراء هذه الابتسامات المصطنعة.

******

٢٤

كان كايتانو يجترّ مجموعة من الأفكار مخطّطًا لانتقامه. واجه المهانة والآن يريد أن ينتقم، وقد لام نفسه ألف مرّة على جبنه. يجب أن يضع حدًّا لزوجته كما توعّدها، أن يضربها بقبضتَي كفّيه الممتلئين والأشعرين، ويجبرها على الركض في كلّ أنحاء البيت وزواياه هاربةً من غضبه. لكنّه لنقص في شجاعته لم يقدر، والآن يتمنّى لو ينتقم. غير أنّه يطمح إلى انتقام متقن، لا يقتصر على مجرّد الضرب. يُريد شيئًا أكثر دقّة وأكبر أثرًا، أي عملاً متكاملاً لا يستوعب أن يُضاف إليه أيّ عنف آخر.

عندما يتذكّر ذلك المشهد المخزي يهتزّ من الغضب، ويعاهد نفسه على البقاء متمسّكًا بموقفه، لكن ما إن يفتح الباب حتّى يشعر بالعجز. يريد إقناع نفسه بأنّ هيئة زوجته الهزيلة هي ما يُثنيه، يريد أن يُلبس ضعفه قناع التعاطف، لكنّه يعود ويضطرب، مدركاً أنّه ليس إلّا ضعفًا. تصوّر أشكالاً من التصرّف تُضاعف احتقاره زوجته، فكانت الزوجة تردّ دائمًا باحتقار أكبر. قلّل من مبلغ المال الذي يُخصّصه لها عادةً لإدارة المنزل، ثمّ تراجع لأنّه كان المتضرّر الوحيد: ببساطة، قلّلت جوستينا من الطعام الذي تُقدّمه إليه. ثمّ أخذ في يومين اثنين يمنّي نفسه بإخفاء صورة ابنتهما وكلّ ما يذكّر بها، أو إخراجها من

البيت. فهو يعرف أنّ هذا أقصى ما يمكن أن يضرب به زوجته في صميمها.

لكنّ الخوف منعه. ليس الخوف من الزوجة، بل من تبعات تصرّفه. تصوّر أنّ فعلاً كهذا هو أشبه ما يكون بانتهاك محارم. ولا شكّ في أنّ تصرّفه هذا سيجرّ عليه من البلايا أسوأها، مرض السلّ مثلاً. فهو على الرغم من كيلوغراماته التسعين بلحمه وعظمه، وصحّته المتينة، يخشى السلّ كواحد من أخطر الأمراض، وترتعد فرائصه لمجرّد رؤية مصاب به، لا بل يرتجف بمجرّد ذكر هذه الكلمة أمامه. حتّى أنّه خلال عمله على آلة تنضيد أحرف الطباعة ناسخًا عن المخطوطة الأصلية (عمل لا يتطلّب أي مشاركة من الدماغ، على الأقلّ لفهم ما يقرأ)، يكفي أن تظهر أمامه تلك الكلمة الرهيبة حتّى يرتعب غصبًا عنه. وقد تكرّر حدوث ذلك حتّى انتهى إلى الاقتناع بأنّ مدير المطبعة يعرف بخوفه هذا، ويتعمّد أن يُرسل إليه كلّ ما تريد الصحيفة نشره عن السلّ: قدره أن يصل إلى يديه كلّ ما يُكتب عن تلك الحلقات الطبّية التي يُناقش فيها المرض. وكانت المفردات الغامضة التي تعجّ بها المقالات كلمات معقّدة ذات نبرة إغريقية مرعبة، تبدو كأنّها وُضعت عمدًا ليدبّ الخوف في قلوب الأشخاص الحسّاسين، وتلتصق بتفكير كايتانو مثل كؤوس الحِجَامة وترافقه لساعات طوال.

في ما يتجاوز خطّة إخفاء أشياء الطفلة، المستعصية إذًا على التنفيذ، لم يحمله خياله الركيك أبعد من أفكار ربّما كانت ناجعة لو كان يعيش على وفاق أكثر مع زوجته. لقد سلب منها جملة من

الأمور، كالحبّ، والصداقة، والطمأنينة، وكلّ ما يمكن أن يجعل من الحياة الزوجية محتملة أو مرغوبًا فيها. حتّى أنّه ندم على تخلّيه بسرعة عن عادة تقبيلها عند دخوله إلى البيت وخروجه منه، كي يمكنه استخدامه الآن للانتقام.

لكنّه لم ييأس على الرغم من الفشل الذي مُنيت به بنات أفكاره. فقد استمرّ في التخطيط لانتقامه انتقامًا يدفع الزوجة إلى أن تجثو على ركبتيها أمامه، بائسة معتذرة تطلب منه الصفح عنها.

إلى أن اعتقد ذات يوم أنّه وجد الطريقة المناسبة. صحيح أنّ مجرّد تفكّر بسيط يُظهر له عبثية الفكرة، لكن ربّما هذه العبثية نفسها هي ما أغراه. سوف يؤدّي دورًا جديدًا في علاقته مع زوجته: دور الغيور. غيور على جوستينا المسكينة، الدميمة، الشبيهة بهيكل عظمي، التي لا يمكن أن تُثير غيرة أحد، ولو عطيل نفسه. بأيّ حال، لم يكن خيال كايتانو قادرًا على إنتاج ما هو أفضل.

بينما هو يحضّر الطعم قبل أن يرميه، أظهر بعض الودّ تجاه زوجته. لدرجة أنّه راح يداعب القطّ، ما كان بالنسبة إلى الحيوان من أكبر المفاجآت. كما اشترى إطارًا جديدًا لصورة ابنتهما وذكر أنّه يفكّر في تكبير هذه الصورة، وبهذا ضرب على الوتر الأكثر حساسية لدى جوستينا، فشكرته على الإطار وأثنت على الفكرة. لكنّها كانت تعرف زوجها بما يكفي لكي ترتاب وتشكّ في ما يخفيه من نيّاتٍ أخرى. فسكتت وانتظرت مترقّبة سوء العاقبة.

وبالفعل بعد كلّ هذه الاستعدادات، سدّد كايتانو ضربته في إحدى الليالي بعد خروجه من الصحيفة، وتوجّهه مباشرةً إلى المنزل. كان يحمل في جيبه رسالة وجّهها إلى نفسه محرّفًا في خطّ يده. استخدم حبرًا مختلفًا، وكتب بريشة منحرفة تُكثر من زوايا الحروف وتلطّخ المنضغطة بينها. كان عملاً بارعًا من التزوير لا يمكن حتّى لخبير أن يكشفه.

عندما وضع مفتاحه في قفل الباب خفق قلبه، فهو على وشك أن يُرضي رغبته العارمة في الانتقام، على وشك أن يرى زوجته راكعة تدافع عن براءتها. دخل بصمت. أراد أن تكون المفاجأة كاملة. في نيّته أن يوقظ زوجته بغتةً ويضع أمام عينيها الدليل على ما اقترفته. ابتسم في الظلمة وهو يتقدّم في الممرّ على رؤوس أصابعه. مشى ممرّرًا يده على الجدار إلى أن لامست قدماه عتبة باب الغرفة. حرّك يده الثانية في الهواء فوجد الباب مفتوحًا، وشعر بجوّ الغرفة الدافئ يلفح وجهه. تلمّس مفتاح الضوء بيده اليسرى. كلّ شيء في مكانه. تكلّف ملامح الغضب وأشعل النور.

كانت جوستينا مستيقظة، وهذا ما لم يخطر في بال كايتانو، فتلاشى منه الغضب وخلا وجهه من أيّ تعبير. نظرت إليه زوجته مدهوشة، من دون كلام. أحسّ كايتانو بهيكل خطّته يتداعى ولم يتكلّم مباشرة. استعاد هدوءه، قطّب جبينه من جديد وقال:

ـ لحسن الحظّ أنّك مستيقظة. تُوفّرين عليّ العناء. اقرئي.

ورمى إليها بالرسالة. من دون أيّ استعجال، أخذت جوستينا المغلّف وفكّرت وهي تفتحه في أنّه يحتوي على النتيجة المنتظرة من تغيّر زوجها المفاجئ والغريب. سحبت الرسالة وحاولت قدر إمكانها أن تقرأها، لكنّ العبور السريع من العتمة إلى الضوء والخطّ الرديء لم يساعداها، فغيّرت وضعيتها وفركت عينيها واستندت إلى كوعها. أثار هذا التأخير أعصاب كايتانو: كلّ شيء يحصل على غير ما أراد.

مضت جوستينا تقرأ الرسالة. كان زوجها يتابع تغيّر ملامحها قلقًا، ولغبائه، مرّت بخاطره فكرة سخيفة: «وإذا كان صحيحًا أنّها خانت؟»، لكن الوقت لم يمهله كي يرى إلى أين سيوصله هذا التفكير، ذلك أنّ جوستينا ألقت بنفسها إلى الخلف على وسادتها، مطلقةً ضحكات مدوية.

فقد كايتانو صوابه وانفجر:

ـ تضحكين؟

لم تقدر المرأة على الردّ. كانت تضحك كالمجنونة، ضحكة ساخرة. تضحك على زوجها وعلى نفسها، وتحديدًا على نفسها. ضحكة عصبية، مقهقهة، وكأنّها في الوقت ذاته ضحك وبكاء. لكنّ عينيها كانتا جافّتين: وحده فمها كان فاغرًا يُطلق قهقهات هستيرية لا تنتهي.

قال كايتانو وهو يدنو منها:

ـ اسكتي. هذه فضيحة.

بدا متردّدًا في متابعة المهزلة التي بدأها لتوّه. لقد أفسد عليه ردّ فعل زوجته تنفيذ خطّته المرسومة بكلّ دقّة. انحنى صوبها وكرّر:

ـ اسكتي. اسكتي.

الآن بدأت جوستينا تهتزّ بتأثير ضحكات أضعف، وراحت تهدأ شيئًا فشيئًا. حاول كايتانو الإمساك بالخيط الذي أفلت منه.

ـ أهكذا تردّين على اتّهام من هذا النوع؟ هذا أسوأ ممّا كنت أتوقّع...

عند سماع هذه الكلمات، نهضت جوستينا فجأة وجلست على السرير. أخافت حركتها السريعة كايتانو فتراجع قليلاً. كانت عينا زوجته تلمعان ببريق مشعّ:

ـ كلّ هذا خدعة. لا أعرف إلى أين تريد الوصول.

ـ تسمّينها خدعة؟ هذا ما كان ينقص. خدعة... أريد في الحال تفسيرًا لما يأتي في الرسالة.

ـ اسأل الذي كتبها.

ـ إنّها من مجهول.

ـ أعرف. ولا أريد تقديم أيّ تفسير.

ـ وتجرؤين على أن تقولي لي ذلك؟

- ماذا تريدني أن أقول؟

- إن كان هذا صحيحًا.

رمقته جوستينا بنظرة لم يتحمّلها. أشاح بعينيه فالتقتا بصورة ابنته. كانت ماتيلدا تبتسم لوالديها. واصلت الزوجة نظرتها ثمّ تمتمت بتمهُّلٍ:

- تريد أن تعرف الحقيقة؟ تريد أن أقول الحقيقة؟ تريد أن أخبرك بالحقيقة؟

تردّد كايتانو. ومن جديد عاودته الفكرة التي مرّت بباله منذ لحظات وسط الضياع الذي يعصف بعقله: «وماذا لو كان هذا صحيحًا؟». وجوستينا تلحّ:

- تريد أن تعرف الحقيقة؟

بقفزة واحدة، نهض عن السرير، وأدار صورة ابنته: تابعت ماتيلدا ابتسامتها، لكن الآن للمرآة التي ينعكس فيها مشهد الوالدين.

- تريد أن تعرف الحقيقة؟

وأمسكت بثوبها من أكمامه وخلعته بحركة خفيفة. بقيت عارية أمام زوجها. فتح كايتانو فمه ليقول شيئًا هو نفسه لا يعرف ما هو، فلم يقدر على أن يتفوّه ولو بكلمة واحدة. تكلّمت زوجته وقالت:

- تفضَّل! انظر إليّ! هذه هي الحقيقة التي تبحث عنها. انظر إليّ جيّدًا. لا تُبعد نظرك. انظر جيّدًا.

كايتانو، وكأنّه يُنفّذ آليًا أوامر منوّم مغناطيسي، نظر إليها بعينين غائمتين، فرأى جسمها الأسمر الهزيل، والذي زاده النحول دكنةً، والكتفين المدبّبين، والثديين الرخوين المنسدلين، والبطن الجوفاء، والفخذين الدقيقين المغروسين بصلابة في الجذع، والقدمين الكبيرتين الملتويتين. وأصرّ صوت جوستينا، بتوتّر يُنذر بانهيار مباشر:

ـ انظر جيّدًا. انظر جيّدًا. إذا كنت أنت لا ترغبني، أنت الذي ينفع معك أيّ شيء، فمن سيحبّني؟ انظر إليّ جيّدًا. تريد أن أبقى هكذا، حتّى تقول لي إنّك رأيتني؟ أجب، أجبني بسرعة.

كانت جوستينا ترتجف. شعرت بالابتذال، ليس لأنّها أظهرت عريها أمام زوجها، بل لأنّها أذعنت واستسلمت للمهانة، لأنّها لم تجبه باحتقار صامت. الآن فات الأوان ولا يسعها أن تُبدي ما تشعر به. تقدّمت نحو زوجها وقالت:

ـ أنت ساكت؟ ألهذا اخترعت كلّ هذه المهزلة؟ المفروض أن أخجل أمامك وأنا على هذه الصورة. لكنّي لا أشعر بالخجل. هذا أكبر دليل على ازدرائي لك.

سارع كايتانو في الخروج من غرفة النوم. سمعته جوستينا يفتح الباب وينزل الدرج بخطى مسرعة. جلست في السرير وراحت تبكي من دون حسّ لها، يُنهكها المجهود الذي قامت به لتوّها. ثمّ سحبت أغطية السرير نحوها وغطّت نفسها حتّى الكتفين، وكأنّها تشعر بالخزي من عريها، الآن بعدما صارت وحدها.

كانت صورة ماتيلدا لا تزال تواجه المرآة بابتسامة لا ينال منها شيء. ابتسامة فرحة، ابتسامة طفلة ذهبت إلى المصوّر. والمصوّر يقول: «نعم هكذا. أحسنتِ. لحظة. انتهينا. ستبدين جميلة». وتخرج ماتيلدا إلى الشارع ممسكةً بيد أمّها، سعيدة مسرورة لأنّها ستبدو جميلة.

****

٢٥

لم يتحمّس أنسيلمو كثيرًا لفكرة انتظار ثلاثة أشهر يتسلَّمُ في خلالها من يد ابنته مبلغ الخمسمئة إسكودو الذي تعهّد باولينو موريس بدفعه، أو بالأحرى ما يزيد قليلاً على الأربعمئة وخمسين إسكودو، بعد احتساب نسبة الحسم التي ينصّ عليها القانون. من يضمن له أنّ هذا الرجل سيرفع لها راتبها بعد مضيّ الأشهر الثلاثة؟ فقد يختلف مع الفتاة لسبب ما، ويتحامل عليها. أنسيلمو يفهم في هذه الأمور بحكم خبرته الممتدّة إلى ثلاثين سنة من العمل في شركة. يعرف جيّدًا أنّ الموظّف الذي يقع يعجز عن رفع رأسه مرّة أخرى. ووضعه هو خير دليل على ذلك. كم من زميل له أصغر منه سنًّا وأحدث عهدًا في الشركة تقدّم عليه؟ لم يكونوا أكثر جدارة منه ومع ذلك ارتقوا وسبقوه. هذا ما راح يشرحه محدّثًا زوجته وأضاف:

ـ ناهيك بأنَّ الفتاة معتادة على نظام العمل في الشركة القديمة وقد تجد صعوبة في التكيّف الآن. ما زالت تحتفظ بعاداتها القديمة، ولهذا أيضًا أثره. صحيح أنّي من جهتي لم أجد صعوبة في التكيّف، لكنّ ذلك بفضل إدارة شركتي، إذ لا يزال يوجد أرباب عمل محترمون.

ـ وما أدراك ألّا يكونَ السيّد موريس منهم؟ ثمّ أنّك تنسى

أنّ لدينا دعمًا مهمًّا... السيّدة ليديا التي مازالت كلاوديا تهمّها، وكلاوديا ليست حمقاء...

ـ هذا ما أودّ أن أراه...

ـ سوف تراه. اطمئنّ.

لكن أنسيلمو لم يطمئنّ. كانت راودته فكرة ألّا يقبل العرض الذي وافقت عليه ابنته من دون أن تأخذ برأيه، وإذا لم يرفض فلأنّه رأى كم هي متحمّسة لوظيفتها الجديدة. كلاوديا أكّدت له أنّها ستدرس الاختزال على أصوله وأنّ راتبها سيزيد حتّى قبل انقضاء الأشهر الثلاثة. هكذا قالت بثقة كبيرة جعلت أنسيلمو يتغاضى عن شكوكه.

خلال السهرة، وبينما روزاليا ترتق جوارب زوجها وهو يرتّب أرقامًا وأسماءً كلّها على علاقة بكرة القدم، راحت الفتاة تتعلّم كيف تفكّ ألغاز الكتابة المختزلة.

كان أنسيلمو ينتشي إعجابًا بمهارات ابنته، ولو لم يعترف بذلك. مثلاً في المكتب حيث يعمل، لا أحد يجيد الاختزال: إنّه مكتب يُدار بالأساليب القديمة، خالٍ من أثاث الألومنيوم، لم تدخله الآلة الحاسبة إلّا مؤخّرًا. حرّك تدرّب كلاوديا هذه السهرات العائلية، وقد عمّ الفرح عندما علّمت الفتاة أباها كتابة اسمه مختزلاً. روزاليا أيضًا أرادت أن تتعلّم، لكنّها استغرقت وقتًا أطول لأنّها أمّية.

بعد مرور هذه الفترة الحماسية، عاد أنسيلمو إلى التركيز على

عمله المتواصل: اختيار المنتخب الوطني لكرة القدم، منتخبه هو. لقد اكتشف طريقة بسيطة ومضمونة: اختار لحراسة المرمى الحارس الذي ترك الكرة تدخل في شباكه أقلّ عدد من المرّات خلال مباريات الدوري. ووضع في المواقع الأمامية المهاجمين الذين سجّلوا أكبر عدد من الأهداف. ووزّع المراكز المتبقّية على لاعبي أنديته المفضّلة، متخلّيًا عن هذه الطريقة فقط عندما يتعلّق الأمر بلاعبين تصفهم أخبار الصحف بأنّه من المستحيل استبدالهم. ولم يكن عمل أنسيلمو هذا يخلص إلى نهاية حاسمة، حيث كان اللاعبون يتناوبون على مواقعهم أسبوعًا بعد أسبوع. لكن بما أنّ هذه التغيّرات، التي كان يسجّلها وفقًا لرسم بياني من ابتكاره، لم تكن فجائية، اعتقد أنّه على وشك إيجاد المنتخب المثالي. وبالتالي، يبقى أن يرى ماذا سيفعل المسؤولون عن تعيين لاعبي المنتخب رسميًّا.

بعد مضيّ خمسة عشر يومًا فقط على العمل في مكتب باولينو موريس، دخلت ماريا كلاوديا المنزل مبتهجة. فقد طلبها ربّ عملها إلى مكتبه وتحدّث إليها طويلاً، أكثر من نصف ساعة. قال لها إنّه مسرور من عملها وإنّه يأمل في أن يبقيا دائمًا متّفقين. طرح عليها عدّة أسئلة تتعلّق بعائلتها، إن كانت تحبّ والديها، وإن كانا يحبّانها، وما إذا كان ينقصهم شيء، وأسئلة أخرى لا تتذكّرها. روزاليا أعادت الفضل في كلّ ذلك إلى مبادرة السيّدة ليديا وقالت إنّها ستشكرها عندما تلقاها. وقدّر أنسيلمو اهتمام السيّد موريس وشعر بالفخر عندما أخبرته ابنته أنّها تحيّنتْ الفرصة أثناء الحديث لترفع من شأن

كفاءات أبيها كموظّف شركة. وبدأ أنسيلمو يُداعب فكرة الانتقال إلى شركة مهمّة، مثل شركة السيّد مورايس. ستكون ضربة قويّة لزملائه الحاليين. لكن للأسف أضافت كلاوديا أنّه لا توجد وظائف شاغرة في شركتها، أو حتّى أمل بفتح باب التوظيف. غير أنّ هذا الوضع لم يمثّل عقبة بالنسبة إلى أنسيلمو، فالحياة تحفل بالمفاجآت وليس مستبعدًا أنّها تُخبّئ له مستقبلاً مريحًا. بل هو يظنّ أنّ الحياة مدينة له بأمور لا تُحصى وأنّ من حقّه أن ينتظر منها مفاجأة سارّة.

هذه الليلة لم يكن هناك من جوارب للرتق ولا اختزال ولا اختيار للمنتخب. بعد أخبار ماريا كلاوديا التي روتها متحمّسة، ارتأى الأب أن يُسدي إليها بعض التوصيات:

ـ يجب أن تأخذي حذرك كلاوديا. الحسد موجود في كلّ مكان وأعرف جيّدًا عمّا أتكلّم. إذا بدأت ترتقين بسرعة، سترين أنّ زملاءك سيحسدونك. انتبهي كثيرًا...

ـ لكنّهم يا أبي لطفاء جدًّا...

ـ إنّهم لطفاء الآن. لكنّهم لن يبقوا هكذا. يجب أن تبقي على علاقة طيّبة مع ربّ العمل ومعهم، وإلّا فسيبدأون بالتآمر ضدّك وقد يؤذونك. أعرف جيّدًا هذا الوسط.

ـ صحيح أبي لكنّك لا تعرف شركتي. جميعهم أشخاص محترمون، والسيّد مورايس إنسان ممتاز.

ـ ممكن، لكن ألم تسمعي أيّ حديث بالسوء عنه؟

ـ سمعت فقط أمورًا لا أهمّية لها.

أرادت روزاليا أن تُشارك في الحديث:

ـَ لدى أبيك خبرة طويلة. وإن هو لم يرتقِ في وظيفته فلأنّهم بتروا له ساقيه.

لم تُثر الإشارة إلى هذه العملية العنيفة أيّ استغراب مع أنّه كان مبرّرًا ومشروعًا بحكم أنّ طرفَي أنسيلمو السفليين لا يزالان متّصلين بصاحبهما. ولو أنّ غريبًا غير معتاد على العبارات البرتغالية سمع هذا الكلام وأخذه بحرفيته لاعتقد أنّه في بيت للمجانين، خصوصًا حين يرى أنسيلمو يهزّ رأسه موافقًا ويقول مقتنعًا:

ـ صحيح. هذا ما حصل.

ـ لا بأس. ولكن اتركاني وشأني، أعرف كيف أتدبّر الأمور.

بهذه الجملة، أقفلت كلاوديا الحديث. وابتسامتها الواثقة لا يمكن أن تنجم إلّا عن معرفة كاملة بكيفية «تدبّر الأمور». لكن أيّ «أمور» تقصد، لا أحد يعرف. ولا حتّى، ربّما، كلاوديا نفسها. ومن الطبيعي لشابّة حسناء مثلها، منفتحة على الكلام والضحك، أن تفكّر في أنّ حلول هذه «الأمور» تأتي بفضل مزاياها. في جميع الأحوال، كان من أثر هذه العبارة المطمئنة أن أراحت بال جميع أفراد العائلة.

لكن الحقيقة أنّ هذه المزايا لا تكفي وحدها، كما أدركت ماريا كلاوديا. دروس الاختزال لم تتقدّم، والتعلّم الذاتي بدراسة الكتب لا

بأس به للأسس البدائية والتي بعدها تتعقّد المادّة وتستدعي اللجوء إلى أستاذ لن تتحسّن ماريا كلاوديا من دونه. في كلّ صفحة كانت تظهر صعاب تستعصي على الحلّ. أراد أنسيلمو أن يُساعد. صحيح أنّه لا يفقه شيئًا في هذا المجال لكنّه يحمل خبرة ثلاثين سنة من العمل في شركة ومراسًا كبيرًا. كان يكتب الرسائل بأسلوب تجاري صرف، وعلى العموم، ليس للاختزال أن يكون بتلك الدرجة من الصعوبة. لكن المسألة أنّه سواء أكان صعبًا أم لا، فقد اختلط الأمر على أنسيلمو في كلّ شيء وتأزّمت أعصاب الفتاة. أمّا روزاليا، التي انكسر قلبها لفشل الزوج، فقد ألقت بكلّ لائمتها على الاختزال.

كانت ماريا كلاوديا من أنقذ الموقف، فجمعت بهذا نقاطًا تُؤيّد ما كانت أعلنته من مهارة في تدبّر الأمور. قالت إنّها في حاجة إلى أستاذ يعطيها دروسًا مسائية، وفورًا حسب أنسيلمو النفقة الإضافية، لكنّه عاد وفكّر في أنّه استثمار للمال سيعطي فوائده بعد أكثر من شهرين بقليل، واتّخذ على عاتقه موضوع إيجاد الأستاذ المناسب. حدّثته كلاوديا عن بعض مدارس التعليم غير الرسمي، وكلّها تحمل أسماء مهيبة تجمع بينها وبلا استثناء كلمة «معهد». لكن الأب لم يقبل اقتراحها. أوّلاً لأنّها مدارس مكلفة؛ ثانيًا لاعتقاده أنّه لا يمكن دخولها عشوائيًّا وفي أيّ فترة من السنة؛ وثالثًا لأنّه سمع عمّا فيها من «اختلاط» لا يُريده لابنته. هكذا وبعد مرور بضعة أيّام وجد ما يناسبهم: أستاذًا كهلاً متقاعدًا، رجلاً محترمًا لا خطر منه على فتاة في التاسعة عشرة من عمرها. وهو بالإضافة إلى أنّه لم يطلب أجرًا

كبيرًا، يعطي دروسه في ساعة معقولة، ما يجنّب كلاوديا الخروج في شوارع المدينة ليلاً.

هكذا! ستترك الفتاة الشركة في الساعة السادسة، وتستقلّ الترام حتّى سان بيدرو دي ألكانتارا حيث يقيم الأستاذ، ولا يستغرق ذلك أكثر من نصف ساعة. سيستمرّ الدرس حتّى السابعة والنصف، عندما تبدأ الشمس بالمغيب. ومن هناك إلى البيت، ثلاثة أرباع الساعة. وإذا حسبنا ربع ساعة لاحتمالات في التأخر، يجب أن تكون ماريا كلاوديا في بيتها عند الثامنة والنصف على أبعد تقدير. وبالفعل هذا ما جرت عليه الأمور لبضعة أيّام. ما إن تشير ساعة يد أنسيلمو إلى الثامنة والنصف حتّى تدخل كلاوديا.

كانت علامات التقدّم في الدرس واضحة وهي التي أفادت الفتاة في تبرير تأخّرها الأوّل: ذلك أنّ الأستاذ فرح جدًّا باجتهادها وقرّر إضافة ربع ساعة إلى كلّ درس من دون زيادة للأجر. أُعجب أبوها بهذا الخبر وصدّقه، خصوصًا وأنّ ابنته ركّزت على اهتمام الأستاذ المجرّد من أيّ مصلحة شخصية. فبحسب تفكير أنسيلمو الذي يضع المنفعة فوق سائر الاعتبارات، لم يستطع منع نفسه من التفكير في أنّه لو كان محلّ الأستاذ، لعرف كيف يستفيد، لكنّه تذكّر أنّ على الرغم من كلّ شيء، مازال يوجد أشخاص طيّبون وجدّيون، ولهم فوائد عديدة أوّلها عندما تأتي طيبتهم وجدّيتهم لمصلحة آخرين، ليسوا طيّبين ولا جدّيين، يعرفون كيف يجنون الثمار. وتكمن مهارة أنسيلمو في معرفة السبيل إلى هذا النوع من الأساتذة.

بعد فترة بدأ يستغرب هذا التجرّد عن المصلحة ويجده مغاليًا، خصوصًا عندما بدأت تصل ابنته إلى البيت في الساعة التاسعة. طرح أسئلة وحصل على الإجابات: كلاوديا تبقى في المكتب إلى ما بعد السادسة والنصف لإنهاء عمل طارئ للسيّد موريايس. وبما أنّها لا تزال في فترة تجربة، لا تستطيع الرفض، أو التذرّع بأسباب شخصية. وافق أنسيلمو على كلامها لكنّه لم يثق به. طلب الإذن من مديره كي يخرج قبل انتهاء دوامه وذهب ينتظر بالقرب من شركة ابنته. من الساعة السادسة حتّى السابعة إلّا ثلثاً اعترف بأنّه ظلمها: فقد خرجت ماريا كلاوديا بالفعل متأخّرة من عملها. واضح أنّها كانت تنهي عملًا جديدًا مستعجلاً. كان على وشك التراجع عن مهمّته التجسّسية لكنّه عاد وقرّر ملاحقة ابنته، لأنّه لم يكن لديه ما يفعله في ذلك الوقت، وليس بالضرورة لإزالة شكوكه. تبعها حتّى سان بيدرو دي ألكانتارا واختار الجلوس في محلّ حلويات مقابل منزل الأستاذ. وحالما أنهى احتساء فنجان القهوة الذي طلبه رأى ابنته تخرج، فسدّد الحساب مسرعًا وسار خلفها. ثمّ رآها تتوجّه نحو شابّ مكشوف الرأس، يدخّن سيجارة ويتّكئ إلى جدار عند ناصية الشارع. تجمّد أنسيلمو مكانه عندما رآها تعطيه ذراعها ليكملا السير معًا وهما يتحادثان. فكّر للحظة في أن يتدخّل، ولكن منعه خوفه من الفضيحة. طاردهما من بعيد وعندما تأكّد من أنّ ابنته أخذت طريق البيت، قفز إلى الترام وسبقها.

عندما فتحت روزاليا الباب، تفاجأت بملامح زوجها المضطربة.

ـ ما بك أنسيلمو؟

من جهته، دخل أنسيلمو إلى المطبخ وألقى بنفسه على كرسيّ من دوَن أن يفتح فمه. وفكّرت روزاليا في أسوأ الاحتمالات.

ـ هل طردوك من عملك؟

كان أنسيلمو يستعيد أنفاسه. نفى بهزّ الرأس ثمّ قال بصوت أجوف:

ـ ابنتك تخدعنا. لقد تبعتها وراقبتها. بقيت أكثر من ربع ساعة بقليل في بيت الأستاذ ثمّ خرجت لتلتقي شابًّا يتسكّع في الشارع.

ـ وأنت ماذا فعلت؟

ـ أنا؟ لم أفعل شيئًا، لحقت بهما، ثمّ سبقتهما. يجب أن تكون الآن على وشك الوصول.

احمرّت روزاليا من الغضب حتّى جذور شعرها:

ـ لو كنت مكانك لاقتربت منهما... ولا أدري ماذا كنت فعلت بهما...

ـ لكانت فضيحة.

ـ وما همّني أنا من الفضيحة؟ كنت عاجلته بصفعتين تُفقدانه الوعي، وهي جررتها إلى البيت من أذنيها...

نهض أنسيلمو من دون أنْ يُجيب ودخل ليُغيّر ثيابه، وتبعته زوجته:

ـ ماذا ستقول لها عندما تأتي؟

كان في نبرتها بعض من وقاحة، على الأقلّ بالنسبة إلى ما ألفه أنسيلمو، المعتاد على الشعور بأنّه ربّ البيت وسيّده. نظر إلى زوجته بعينين معبّرتين، وبعدما أبقاها لبضع ثوان تحت نظرته المركّزة أجاب:

ـ سأتفاهم معها. وبالمناسبة أودّ أن أقول لك إنّي لست معتادًا على أن يُكلّمني أحد بهذه الطريقة، لا هنا ولا في أيّ مكان آخر.

أخفضت روزاليا رأسها:

ـ لكنّي لم أقل شيئًا...

ـ ما قلته أكثر من كافٍ لإهانتي.

هكذا سيقت روزاليا إلى مكانتها الأساسية كطرف أكثر ضعفًا، وعادت إلى مطبخها الذي كانت تصدر منه رائحة طبق يحترق. وبينما هي مشغولة بإنقاذ العشاء، محاطة بالأواني، دقّ جرس الباب، فقام أنسيلمو ليفتح.

أطلّت كلاوديا وقالت مبتسمة:

ـ مساء الخير بابا.

لم يجب أنسيلمو. ترك ابنته تمرّ، وفقط بعدما أغلق الباب، تكلّم مشيرًا إلى غرفة الجلوس:

ـ ادخلي.

تفاجأت الفتاة وأذعنت لأبيها الذي أمرها بالجلوس، ووقف أمامها مسلّطًا عليها نظرته المكثّفة والمحمّلة بالصرامة:

ـ ماذا فعلت اليوم؟

حاولت ماريا كلاوديا أن تبتسم وتبدو طبيعية:

ـ كالعادة بابا. لِمَ تسأل؟

ـ هذا شأني.

ـ كنت في الشركة. ثمّ خرجت الساعة السادسة والنصف و...

ـ نعم، أكملي.

ـ ذهبت إلى درسي. ولأنّي وصلت متأخّرة خرجت أيضًا متأخّرة عن العادة...

ـ أيّ ساعة خرجت؟

كانت كلاوديا خائفة. بحثت عن الجواب محاولةً أن تضبط الأوقات في رأسها وأجابت بعد تردّد:

ـ ربّما بعد الثامنة بقليل...

ـ كلام باطل!

ارتعبت الفتاة، وسُرّ أنسيلمو لمفعول عبارته. كان في وسعه أن يقول «هذا كذب»، أو «غير صحيح»، لكنّه فضّل عبارة «كلام باطل» لوقعها الأكثر دراميّة.

تمتمت الفتاة:

ـ آه، بابا...

وقال أنسليمو بصوت يملأه التأثّر:

ـ ما تفعلينه غير جدير بك، ومؤسف جدًّا. لقد رأيت كلّ شيء. تبعتك. رأيتك ترافقين ذلك الشابّ المستهتر.

فأجابت كلاوديا بلهجة حاسمة:

ـ ليس مستهترًا.

ـ إذًا، ماذا يعمل؟

إنّه طالب.

قام أنسيلمو بحركة من أصابعه للتعبير عن خلوّ هذه الصفة من أيّ قيمة. وكما لو أنّ هذا لا يكفي، قال:

ـ أرجوكِ!

ـ لكنّه شابّ صالح.

ـ ولِمَ لا يأتي للتحدّث إليّ؟

ـ أنا طلبت منه ألّا يأتي. أعرف كم أنت متطلّب...

في هذا الوقت، سُمع طرق خفيف على باب الغرفة. فسأل أنسيلمو:

ـ من هناك؟

كان السؤال بلا معنى، إذ ليس في البيت سوى شخص ثالث آخر. وللسبب نفسه، أتى الجواب مثله أيضًا بلا معنى، لكنّ ذلك لم يمنع من الإدلاء به:

ـ هذه أنا. هل يُمكنني الدخول؟

لم يجب أنسيلمو بالإيجاب لأنّه لم يكن يرغب في أن يُقاطعه أحد، لكنّه أدرك أنّه من غير الإنصاف أن يمنع زوجته من الدخول. ففضّل السكوت ودخلت روزاليا:

ـ ماذا؟ هل وبّختها؟

إذا كان أنسيلمو مستعدًّا يومًا ما لتوبيخ ابنته، فليس في تلك اللحظة بالذات. كانت زوجته تُجبره ومن دون قصد منها، على الاصطفاف إلى جانب ابنته:

ـ دعكِ. نكاد ننتهي.

وضعت روزاليا يديها حول وسطها وهزّت رأسها محتدّة، وقالت في الوقت ذاته:

ـ لا أصدّق، كلاوديا. لا تُسبّبين لنا غير المتاعب. الآن وبعدما سُررنا بوظيفتك الجديدة، تُبادرين إلى هذا التصرّف؟

نهضت ماريا كلاوديا بسرعة:

ـ ولكن، أمّي، ألن أتزوّج؟ وكي أتزوّج، أليس من الضروري أن أتعرّف إلى شابّ أكلّمه ويُكلّمني؟

هنا بقي الأب والأمّ مشدوهين. فالسؤال منطقي، لكن الإجابة صعبة. وكان أنسيلمو من اعتقد أنّه وجدها:

ـ إلى طالب... وما قيمة الطالب؟

ـ ربّما لا قيمة له الآن، لكنّه يدرس ليصبح ذا شأن.

استعادت كلاوديا هدوءها. فقد فهمت أنّ والديها ليسا على حقّ، وأنّ الحقّ كلّه إلى جانبها هي. فأصرّت:

ـ ألا تريدان أن أتزوّج؟ أخبراني.

أجاب أنسيلمو:

ـ ليس هذا يا ابنتي. ما نُريده نحن أن نراك بخير... فميزاتك تستحقّ زوجًا جيّدًا.

ـ ولكنّك لا تعرفه!

ـ لا أعرفه، لكنّ هذا لا يغيّر شيئًا.

ثمّ عاد إلى لهجته الصارمة:

ـ كما أنّي لستُ مضطرًّا إلى تقديم التفسيرات. أمنعك من أن تلتقي هذا... هذا الطالب... وكي لا تتلاعبي معي من جديد، سأرافقك إلى درسك ذهابًا وإيابًا. ستكون مشقّة، لكنّه الحلّ الأفضل.

ـ أبي، أعدك...

ـ لا أصدّقك.

انتفضت ماريا كلاوديا وكأنّ أحدًا ضربها. لقد خدعت في السابق والديها أكثر من مرّة، وهزئت برأيهما، لكنّها الآن بالذات تعرف أنّهما لا يُنصفان معاملتها. كانت غاضبة. وبينما هي تنزع معطفها، قالت:

ـ كما تريد. لكنّي أقول لك منذ الآن أنّك لن تجني أكثر من الانتظار كلّ يوم عند باب الشركة. لدى السيّد موريس دائمًا أعمال طارئة تُجبرني على البقاء إلى ما بعد الدوام.

ـ لا يهمّ.

فتحت كلاوديا فمها. ومن تعبير ملامحها بدا أنّها ستقول ما يشاكس أباها، لكنّها عادت وسكتت، تعلو وجهها ابتسامة شاردة.

****

٣٦

منذ أن بدأ أبيل يعيش حياته الحرّة، وهو يتساءل بين الحين والحين، وبينه وبين نفسه: «لماذا؟». فيجد دائمًا الجواب نفسه، أي أكثر جواب يُناسبه: «للاشيء». وإذا صدف أن عاكسه تفكيره وأصرّ عليه: «لا، ليس للاشيء. فاللاشيء لا يستحقّ العناء»، يُضيف قائلاً: «أستسلم للتيّار. فلا بدّ لهذا من أن يحملني إلى مكان ما».

يرى بوضوح أنّ «هذا»، أي حياته، لن تحمله إلى أيّ مكان. وأنّه يتصرّف مثل البخلاء الذين يكدّسون الذهب فقط لمتعة تأمّله. هو لا يُكدّس ذهبًا، ولكن المزيد من الخبرة، الفائدة الوحيدة من حياته. غير أنّ الخبرة من دون تطبيق هي مثل الذهب المجمّد: لا تُنتج، لا تُثمر، لا تُجدي. وما من فائدة لإنسان يجمع الخبرة كما يجمع الطوابع.

قراءاته القليلة في الفلسفة، والتي لم يستوعبها استيعابًا شاملاً على العموم، من الكتيّبات المدرسية إلى الملحقات التي نبشها من على الرفوف المكسوّة بالغبار في مكتبات الكتب المستعملة في حي كالسادا دو كومبرو، تسمح له بأن يفكّر ويقول إنّه يتمنّى معرفة المعنى الخفيّ للحياة. ولكن في أيّام الشعور بالإحباط لا يجد أمامه حلّاً سوى الاعتراف بأنّها أمنية طوباوية، وأنّ الخبرات المكدّسة

تفيد فقط في جعل الستار الذي طالما أراد إزاحته أكثر كثافة. مع ذلك، فإنّ غياب أيّ معنى ملموس لحياته يدفعه للتمسّك برغبة لم تعد مجرّد رغبة، بل تحوّلت إلى علّة وجود على قدر واحد من الصحّة والخطأ، مثل غيرها من علل الوجود. في تلك الأيّام المعتمة التي تُحيطه بفراغ عابث، يشعر بالتعب. يُحاول أن ينسب هذا التعب إلى كفاحه اليومي لتأمين معيشته، وإلى خيبته في هذا العصر الذي يعيشه والذي شحّت فيه عناصر القدرة على البقاء إلى حدّها الأدنى. طبعًا كلّ هذا مهمّ جدًّا: الجوع والبرد يُتعبان. لكنّ هذا التبرير لا يكفي. فقد اعتاد على كلّ شيء، وما كان يُخيفه في البداية، لم يعد يهمّه مطلقًا. أعدّ جسمه وذهنه للصعاب والحرمان. كان يعرف أنّ في قدرته التحرّر منها، بسهولة كبيرة أو صغيرة. تعلّم الكثير في مسار حياته حتّى أصبح من السهل عليه نسبيًا إيجاد وظيفة ثابتة يكسب منها ما يكفيه ليعيش. لكنّه لم يحاول قطّ اتّخاذ هذه الخطوة. يقول إنّه لا يُريد أن يرتبط أو يلتزم، وهذا صحيح. على أنّه كذلك لا يُريد أن يرتبط الآن كي لا يعترف بعدم جدوى أسلوب حياته إلى اليوم. ماذا سيكسب لو أنّه بعد كلّ لفّه ودورانه خرج في النهاية إلى الدرب ذاتها التي يسلكُها كلّ أولئك الذين أراد الابتعاد عنهم؟ «أيريدونني متزوّجًا، سطحيًا، ومطالَبًا؟»، هكذا تساءل الشاعر فرناندو بيسووا. وأبيل يسأل بدوره «أهذا ما تريده الحياة من كلّ الناس؟».

المعنى الخفيّ للحياة... «لكن المعنى الخفيّ للحياة هو أنّ ليس للحياة أيّ معنى خفيّ». أبيل يعرف جيّدًا أشعار بيسووا.

وقد جعل من أبياته مرجعًا له. ربّما هو لا يفهمها كلّيًا، أو يحمّلها من المعنى أكثر ممّا فيها. على أيّ حال، وحتّى لو كان يخشى أنّ بيسووا، في كثير من مقاطعه، يهزأ من القارئ، ويبدو جادًّا بينما هو ساخر، فقد تعوّد أن يحترمه حتّى في تناقضاته. وإذا لم يكن يشكّ في قيمته كشاعر كبير، فقد يظهر له أحيانًا وخصوصًا في هذه الأيّام من الإحباط العبثي أنّ في أشعار بيسووا الكثير من المجّانية. لكنّ أبيل يعود ويُفكّر: «وما المشكلة في هذا؟ ألا يحقّ للشعر أن يكون مجّانيًا؟ يحقّ له، طبعًا، ما من مشكلة في ذلك. ولكن، عندئذٍ، أيّ ميزة في الشعر المجّاني؟ الشعر هو ربّما مثل نبع ماء يتفجّر، مثل جدول يولد في الجبل، بسيطًا طبيعيًا، مجّانيًا بذاته. أمّا العطش فهو شأن البشر، والحاجة هي شأن البشر، وفقط لوجودهما، يكفّ الماء عن كونه بالمجان. أتراه الشعر كذلك؟ لا يوجد شاعر، كما أنّه لا يوجد إنسان، بسيط وطبيعي. وبيسووا أكثر من غيره. لن تروي أشعار بيسووا القارئ المتعطّش إلى الإنسانية: سيكون كما لو كان يعبّ من مياه مالحة. ومع كلّ هذا يا له من شعر قيّم ويا لها من روعة! مجّانية نعم، لكن هل يهمّ إذا ما غصتُ في أعماق نفسي فوجدتها هي أيضًا مجّانية عديمة الجدوى؟ سيلفستري يعترض على عدم الجدوى هذا، عدم جدوى الحياة، وهي أكثر ما يهمّ. الحياة يجب أن تهمّ، أن تهمّنا في كلّ ساعة، أن تتّخذ وجهة محدّدة لها. لا يكفي أن يكون المرء شاهدًا. أن يكون مجرّد شاهد يعني موته. هذا ما قصد قوله. لا يهمّ أن يكون المرء هنا أم هناك، ما ينبغي هو أن تتّخذ الحياة وجهة لها،

ألّا تكون مجرّد دفق حيواني، غير واعٍ، كدفق ماء الينبوع. ولكن أن تتّخذ الحياة وجهة، كيف؟ أن تتّخذَ وجهة، إلى أين؟ كيف وإلى أين، هنا تكمن مشكلة تنتج عنها ألف مشكلة. لا يكفي القول إنّ الحياة يجب أن تتّخذ لها وجهة. يمكن أن نجد للسؤالين «كيف» و«إلى أين» عددًا لا يُحصى من الأجوبة. أحدها جواب سيلفستري، وآخر هو جواب أيّ مؤمن بديانة معيّنة. وكم غيرهما؟ هذا إضافة إلى أنّ جوابًا واحدًا يمكن أن يخدم أشخاصًا مختلفين، كما قد يخدم جواب آخر أيًّا منهم من دون أن يخدم الآخرين. أنا في النهاية تائه على هذه الدرب. لكان الحال على ما يرام لو شغلتُ نفسي برفع المعوقات عن دربي فلم أحزر وجود دروب كثيرة غيرها. الحياة التي اخترتها قاسية وصعبة. معها تعلّمت، وبيدي الآن أن أتركها وأبدأ غيرها. لِمَ لا أفعل؟ لِمَ تروق لي هذه؟ جزئيًا. يبدو أنّه يهمّني أن أسلك عمدًا حياة لا يسلكها الآخرون إلّا عنوة. ولكن لا يكفي، هذه الحياة لا تكفيني. أيّ حياة أختار إذًا؟ أن «أكون متزوّجًا، سطحيًا، ومطالَبًا»؟ لكن، هل يستطيع المرء أن يملك كلّ واحدة من هذه الصفات من دون الأُخرَيين؟ وبعد؟».

بعد... بعد... شعر أبيل بالحيرة. كان سيلفستري اتّهمه بعدم جدواه وهذا يُزعجه. لا أحد يحبّ أن يكتشف الآخرون نقاط ضعفه، وإدراك أبيل أنّه عديم الجدوى هو كعب أخيل عنده، أيّ نقطة ضعفه الكبرى. لقد وضعه ضميره ألف مرّة أمام السؤال المربك: «لماذا؟». كان يخدع نفسه ويختبئ مفكّرًا في موضوع آخر أو متأمّلًا في

الفراغ، لكن ولا حتّى في هذه الحال يختفي السؤال، بل يبقى منيعًا وساخرًا في انتظار نهاية اللهو كي يعود عنيدًا متصلّبًا كما من قبل. كان أبيل ييأس خصوصًا عندما لا يجد لدى الآخرين هيئة الحيرة التي قد تسمح له عندها بمشاركتهم أسباب قلقه. حيرة الآخرين وارتباكهم هما (كما يبدو لأبيل) نتيجة أحزان عميقة مثلاً، أو نقص في الموارد، أو حبّ من طرف واحد... كلّ شيء عدا الارتباك الذي تسبّبه الحياة نفسها، الحياة ولا شيء آخر معها. في زمن آخر، كان هذا اليقين يمنحه شعورًا مطمئنًا بالتفوّق. لكنه اليوم يُزعجه. كلّ هذه الطمأنينة، كلّ هذا الهدوء أمام المشاكل الثانوية يُولّد لديه مزيجًا من الازدراء والحسد.

وسيلفستري، بذكرياته، ضاعف عليه هذا الإرهاق. ولكن على اضطرابه، يدرك أبيل أنّ حياة مضيفه كانت أيضًا بلا جدوى قياسًا للنتائج المرجوّة، فهو لم يحقّق الأهداف التي ناضل من أجلها. كان سيلفستري كبيرًا في السنّ، يقوم اليوم بما كان يقوم به بالأمس: يصنع الأحذية ويُصلحها. لكن سيلفستري نفسه قال إنّ الحياة علّمته، على الأقلّ، أن يرى أبعد ممّا تقدّمه له نعال الأحذية التي يعمل عليها، بينما هي لم تعطِ أبيل سوى القدرة على تصوّر وجود شيء خفيّ، شيء كفيل بمنح وجوده معنى ملموسًا. ويا ليته لم يمتلك هذه القدرة. لكان عاش مطمئنًا، لامتلك طمأنينةَ مَن غفا تفكيره، كما يحصل مع عامّة الناس. وراح يُفكّر: «عامّة الناس. يا لها من عبارة غبية. ماذا أعرف أنا عن عامّة الناس؟ أنظر إلى آلاف الأشخاص

أثناء النهار، وأرى العشرات منهم بعينين مدركتين. أراهم متجهّمين أو مبتسمين، متمهّلين أو مستعجلين، قبحاء الشكل، أو وسيمين، سوقيين، أو جذّابين. وهذا ما أسمّيه عامّة الناس. ما هي نظرة كلّ من هؤلاء الأشخاص إليّ؟ أنا أيضًا أسير متمهّلاً أو مستعجلاً، متجهّمًا أو مبتسمًا، البعض منهم يراني قبيحًا، والبعض الآخر وسيمًا، أو سوقيًا، أو جذّابًا. في النهاية، أنا أيضًا جزء من عامّة الناس. أنا أيضًا غافي التفكير بالنسبة إلى بعضهم. كلّنا نتناول يوميًا جرعة المورفين التي تنوّم تفكيرنا. العادات اليومية، والعادات السيّئة، والكلام المتكرّر، والحركات المألوفة، والأصدقاء المضجرون، والأعداء الذين لا نحقد عليهم حقدًا حقيقيًا، كلّ ذلك يُنوّمنا. حياة ممتلئة... من يقدر على الادّعاء أنّه يعيش الحياة بملئها؟ كلّ أعناقنا مغلولة إلى نير الرتابة، كلّنا ننتظر شيئًا، ولا أحد يعرف ماذا... نعم، كلّنا ننتظر. بعضنا ملتبسة عليه الأمور أكثر من غيره، لكنّ الانتظار هو سمة الكلّ. عامّة الناس... هذا الكلام وبهذه الطريقة، بهذه النبرة المتعالية، هو كلام أغبياء. مورفين العادة، مورفين الرتابة... آه سيلفستري، سيلفستري الطيّب والنقيّ، لا يمكنك أن تتصوّر حجم الجرعات التي تناولتها. أنت ورفيقتك السمينة ماريانا، الطيّبة طيبة تدفع إلى الرغبة في البكاء».

تعاود أبيل هذه الأفكار، فيحسّ بأنّه هو نفسه ليس ببعيد عن البكاء. «ولا حتّى ما أفكّر فيه يُعتبر مميّزًا. وكأنّه بدلة مستعملة معروضة في محلّ للملابس الجديدة. وكأنّه سلعة خارج التداول،

ملفوفة بورق ملوّن وشريط للزينة. ولا شيء غير الضجر. التعب من الحياة، التجشّؤ من عسر في الهضم، الغثيان».

عَندما يصل أبيل إلى هذه الدرجة، يخرج من المنزل. وإذا كان لديه بعض الوقت والمال، يدخل إلى صالة سينما. هناك يكتشف عبثية القصص. هناك، رجال يطاردون نساء، ونساء يطاردن رجالاً، انتهاكات ذهنية، فظاعات وحماقات، من الصورة الأولى حتّى الأخيرة. قصص تكرّرت ألف مرّة: هو، هي والعشيق؛ هي، هو والعشيقة، والأسوأ من هذا كلّه السذاجة التي تُصوّر الصراع بين الخير والشرّ، بين البراءة والفساد، بين الوحل والنجوم. مورفين. تسمّم يسمح به القانون ويُعلَن عنه في الصحف. ذريعة لقضاء الوقت، كما لو أنّ حياة الناس إلى خلود.

تُضاء الأنوار، ينهض المشاهدون وتصفق المقاعد بضجيج جافّ. وأبيل يبقى. لقد سكتت الأشباح ثنائية الأبعاد التي كانت تشغل الكراسي. «وأنا الشبح رباعي الأبعاد»، يُتمتم أبيل.

يحسبه عمّال ترتيب الصالة نائمًا ويأتون لإيقاظه. في الخارج تهرع فلول المشاهدين صوب مقاعد الترامات الشاغرة. شبّان وفتيات متزوّجون حديثًا، وكلّ زوجين ممسكان جيّدًا ببعضهما... وأزواج من البرجوازيين الصغار مرّت عليهم عشرات السنين من الحياة المشتركة والمقدّسة، هي تلحقه، وهو يسبقها. ربّما بما لا يزيد عن نصف خطوة، لكنّها نصف خُطوة تُعبّر عن المسافة غير القابلة للردم

التي تفصل بينهما. ناضجون وبرجوازيون، البورتريه القادم للعرسان الجدد الذين لا يزال عقد زواجهما يحتفظ ببريقه.

ويشرد أبيل في شوارع هادئة، قليلة المارّة، وسكك الترام تلمع على أرضها في خطوط متوازية، الخطوط المتوازية الشهيرة التي لا تلتقي أبدًا. «تلتقي في اللانهاية. بلى، يقول العلماء إنّ الخطوط المتوازية تلتقي عند اللانهاية... كلّنا سنلتقي عند اللانهاية، لانهاية الغباء، واللامبالاة، والركود».

يسأله صوت امرأة قادم من قلب الظلام.

ـ ألا تريد أن تأتي؟

ويبتسم أبيل ابتسامة حزينة.

«رائع هو هذا المجتمع الذي يحسب حساب كلّ شيء. لا ينسى حتّى المستوحدين التعساء الذين يحتاجون إلى صيانة وظائفهم الجنسية، ولا المتزوّجين السعداء الذين يحبّون التنويع لقاء مبالغ زهيدة. يا لك من والد حنون، أيّها المجتمع!»

في شوارع الأحياء الطرفية من المدينة، يوجد أمام كلّ باب حاوية للقمامة. يبحث الكلاب فيها عن العظم، وبائعو الخرق عن المزق والأوراق. تابع أبيل التحدّث إلى نفسه: «كلّ شيء يفيد. في الطبيعة ما من شيء يوجد بذاته، ما من شيء يضيع. أنت رائع يا لافوازييه. أحسبك لم تُفكّر مطلقًا في العثور على تطبيق لمبدئك هذا في حاوية للقمامة».

دخل إلى أحد المقاهي: طاولات مشغولة، طاولات شاغرة، موظّفون يتثاءبون، سُحب من دخان السجائر، همهمات أحاديث، رنين فناجين... ركود. وهو وحده. يخرج، قلقًا. ليل شهر إبريل المعتدل يستقبله في الخارج. والأبنية الشاهقة تُحيط بطريقه. إلى الأمام، دومًا إلى الأمام. الالتفاف إلى اليسار أو إلى اليمين فقط عندما تجبره الطريق. الشارع، وعاجلاً أم آجلاً ضرورة العودة إلى البيت. وعاجلاً أم آجلاً، يعود أبيل إلى البيت.

أصبح رجلاً قليل الكلام، لدهشة سيلفستري وماريانا. كانا اعتادا على اعتباره فردًا من المنزل، كأنّه من الأقارب، ولهذا تأثّرا بالواقع الجديد، وخشيا على هذه الثقة بينهما وبينه. دخل سيلفستري غرفة أبيل في إحدى الأمسيات بحجّة إطلاعه على خبر في الصحيفة. كان أبيل مستلقيًا، في يده كتاب وبين شفتيه سيجارة. قرأ الخبر، الذي لم يكن على أيّ شيء من الأهمّية بالنسبة إليه، وأعاد الصحيفة مرفقةً بعبارة شاردة. وبقي سيلفستري ينظر إليه مسندًا ذراعيه إلى قضبان السرير. بدا له الشابّ من هذا المكان أصغر حجمًا، وعلى الرغم من السيجارة واللحية الظاهرة قليلاً، اتّخذ هيئة الأطفال.

ـ هل تشعر بأنّك سجين؟

ـ سجين؟

ـ نعم. القيود...

ـ آه!...

وصدر عنه هذا التعجّب بنبرة يصعب تحديدها، نبرة غائبة. ملأ أبيل صدره بالهواء، ثبّت نظره على السكّاف وأضاف بهدوء:

ـ لا. ربّما أشعر بالحاجة إلى قيد. أحاديثنا جعلتني أفكّر في مسائل كنت أعتقد أنّي تجاوزتها.

ـ لا أظنّك تجاوزتها. أو أنّك لم تتجاوزها كما يجب... لو أنّك ما تريد الظهور عليه، لما قصصتُ عليك حياتي...

ـ ولستَ مسرورًا؟

ـ مسرورًا؟ بالعكس. أعتقد أنّك سجين الضجر. سئمتَ الحياة، تحسب أنّها علّمتك كلّ شيء، ولا ترى من الأمور سوى ما يزيد ضجرك. وتظنّ أنّه بإمكاني أن أكون مسرورًا؟ ليس كلّ شيء من السهل أن نُخبر عنه. ممكن دائمًا أن نترك وظيفة تُثقل علينا أو امرأة تُتعبنا. لكن الضجر، كيف نتخلّص منه؟

ـ سبق أن قلتَ لي كلّ هذا بعبارات أخرى. لا أظنّك الآن ستُكرّرها...

ـ إذا كنت تقصد أنّي أزعجك...

ـ لا، لا. ماذا تقول؟

نهض أبيل بقفزة واحدة ومدّ ذراعه إلى سيلفستري. السكّاف، الذي كان يهمّ بالانسحاب، بقي مكانه. جلس أبيل عند طرف السرير، وجذعه صوب ضيفه. ونظر الاثنان إلى بعضهما من دون

ابتسام، كما لو أنّهما ينتظران حصول حدث مهمّ. ثمّ قال الشابّ، على مهل:

ـ أتعرف أنّي صديقك؟

أجاب سلفستري:

ـ أعتقد. أنا أيضًا صديقك. لكن يبدو أنّنا متخاصمان...

ـ هذا ذنبي أنا.

ـ أو ربّما ذنبي أنا. أنت تحتاج إلى شخص يُساعدك، وأنا لا أعرف كيف، لستُ قادرًا...

نهض أبيل، انتعل حذاءه وتوجّه إلى حقيبة كانت في زاوية الغرفة. فتحها وأشار إلى الكتب التي تملأها ثمّ قال:

ـ حتّى في أسوأ لحظات حياتي، لم يخطر لي أن أبيعها. هنا كلّ الكتب التي أخذتها معي من المنزل العائلي، وتلك التي اشتريتها على مدى السنوات الاثنتي عشرة الماضية. قرأتها وأعدتُ قراءتها، وتعلّمت منها الكثير. نسيتُ نصف ما تعلّمت والنصف الآخر قد يكون على خطأ. صح أم خطأ، الواقع أنّها ساهمت في تأكيدِ عدمِ جدواي.

ـ أحسنت إذًا بقراءتها... كم من الناس يمضون حياتهم من دون أن يكتشفوا عدم جدواهم؟ برأيي وحده يستطيع أن يكون مجديًا من يحسّ بأنّه غير مجدٍ. فعلى الأقلّ، لا خطر عليه من العودة إلى عدم الجدوى...

ـ الجدوى، الجدوى، هذا كلّ ما أسمعك تتحدّث عنه. كيف يُمكنني أن أكون مجديًا؟

ـ على كلّ واحد أن يكتشف بنفسه. مثل أيّ شأن في الحياة. النصائح لا تفيد في شيء. ولو أنّ هناك نفعًا منها لوددت من كلّ قلبي أن أسديها...

ـ أودّ أيضًا لو أعرف ما وراء أنصاف الكلمات هذه...

ابتسم سيلفستري:

ـ لا تخف. فقط قصدت أنّ ما يجب أن يكونه كلّ منّا في هذه الحياة، لن يتعلّمه عبر الكلام الذي يسمعه أو النصائح التي يصغي إليها. يجب أن نستقبل في لحمنا نفسه الندبة التي تحوّلنا إلى رجال حقيقيين. بعدها علينا بالعمل...

أغلق أبيل الحقيبة، ثمّ عاد إلى السكّاف وكرّر، كما لو كان يحلم:

ـ العمل... لو أنّ الجميع يعمل مثلنا، لقلتَ إنّه لا يوجد رجال حقيقيون...

أجابه سيلفستري:

ـ لقد ولّى زمني.

ـ لهذا يسهل عليك لومي وانتقادي... ما رأيك بمباراة من الدامة؟

****

٣٧

وصل باولينو متأخّرًا، حوالى الساعة الحادية عشرة. قبّل ليديا تقريبًا من دون أن يلمسها وجلس في مقعده المفضّل، يعضّ على طرف سيجارته.

تلك الليلة، وبحكم الظروف، لم تكن ليديا ترتدي قميص نومها، ما ساهم ربّما في شعور باولينو الثقيل بالضيق. ومن الإشارات التي تدلّ على عدم رضاه طريقته في حمل السيجارة بين أسنانه، والطرق الخفيف بأطراف أصابعه على مسند ذراع الكنبة الخشبي. كانت ليديا تجلس مقابله، على كرسيّ منخفض، وتحاول تسليته بنتف من أحداث يومها. لقد مضت عدّة ليالٍ وهي تُلاحظ تغيّر عشيقها. لم يعد «يلتهمها» بعينيه، ما يمكن تبريره بطول العشرة بينهما، ولكن قد يعني أيضًا أنّ اهتمامه بها أخذ يفتر لأسباب أخرى. هذا الشعور الدائم لدى ليديا بعدم الاستقرار يدفعها إلى الخوف من حصول الأسوأ. هنا تغدو أيّ تفاصيل لا معنى لها ظاهريًا، مثل نقص بسيط في الاهتمام من قبله، أو كلمات فيها شيء طفيف من الحدّة، أو مظهر لامبالاة من حين إلى حين. إنّها أسبابٌ كبيرة لقلقها.

لم يكن باولينو يُساعد في المحادثة، وكانت هناك لحظات صمت طويلة لا يجد فيها أيّ منهما ما يقوله. أو بالأحرى: ليديا

وحدها لم تكن تجد ما تقوله؛ أمّا باولينو فمن الواضح أنّه الآن يُفضّل السكوت. هي تُشغّل كلّ خيالها كي لا يموت الحديث، وهو يُجيب من دون تركيز. وفي غياب موضوع يُحفّز للحديث، يموت الحوار مثل قنديل شحّ زيته. تلك الليلة، حتّى فستان ليديا بدا سببًا للمباعدة بين الطرفين. كان باولينو يُطلق في الهواء نفخات طويلة من الدخان، بتنفّس متوتّر يفتقر إلى الصبر. بعدما يئست ليديا من إيجاد موضوع يُثير اهتمامه، أشارت قائلة، كالمجبر على عمل لا يريده:

ـ يبدو عليك القلق...

ـ هممم...

كان جوابه غير محدّد، ويُمكن أن يعني أيّ شيء، كأنّه ينتظر أن يكون طرح ليديا أكثر وضوحًا. فأضافت يعتريها الخوف من المجهول الذي يكمن في المنازل المعتمة وفي الكلمات المتهوّرة التي لا يمكن التكهّن بنتائجها:

ـ منذ بضعة أيّام وأنا أراك مختلفًا. أنت دائمًا تحكي لي عن همومك... لا أريد أن أكون فضولية، افهمني جيّدًا، ولكن ربّما يُريحك أن تخبرني...

راقبها باولينو بنظرة لاهية، لا بل حتّى ابتسم. لكنّ ليديا خافت من النظرة ومن الابتسامة، فندمت على ما تفوّهت به. وعندما لاحظ باولينو تراجعها، أضاف كي لا يفوّت الفرصة التي قدّمتها له:

ـ مشاكل في العمل...

ـ قلت لي أكثر من مرّة إنّك لا تفكّر في العمل عندما تكون برفقتي.

ـ صحيح. قلت لك هذا. ولكنّي الآن أفكّر...

كانت ابتسامته خبيثة، وفي عينيه نظرة ثابتة لا تحيد كنظرة من يُراقب ليكتشف أخطاء أو شوائب. شعرت ليديا باحمرار وجهها، وقلبها يُحدّثها منذرًا بشيء مزعج قد يحصل لها. وأمعن باولينو عندما رآها صامتة:

ـ الآن صرت أفكّر. ولا أقصد أنّي لم أعد أشعر بالراحة إلى جانبك، طبعًا، ولكن هناك مسائل معقّدة تُجبرنا على التفكير فيها طوال الوقت، وأيًّا تكن صحبتنا.

لا يهمّ ليديا مطلقًا أن تعرف ما هي هذه المسائل، حدسها يقول لها إنّ التحدّث بشأنها لن يعود عليها إلّا بالأذى. وفي هذه اللحظة بالذات، كانت تتوق إلى أيّ مقاطعة، إلى رنين الهاتف مثلاً، إلى أيّ شيء يوقف المحادثة. لكنّ الهاتف لم يرنّ، ولم يبدُ باولينو على استعداد للتوقّف.

ـ أنتن لا تعرفن الرجال. قد نحبّ امرأة حبًّا كثيرًا، لكنّ هذا لا يعني أن نتوقّف عن التفكير في كلّ شيء ما عداها.

ـ طبيعي. هذا ما يحصل مع النساء أيضًا.

لا شكّ في أنّ شيطانًا صغيرًا ماكرًا يدفع ليديا إلى قول هذا

الكلام. الشيطان نفسه الذي أسرّ لها بعبارات أكثر جرأة حتّى اضطرّت ليديا إلى كبح نفسها أو كبحه كي لا تقولها. الآن تحطّ نظرتها الحادّة على ملامح البشاعة في باولينو الذي انزعج من ملاحظتها الأخيرة وأجاب:

ـ طبعًا. هذا ما ينقص، أن نفكّر على الدوام في الشخص نفسه.

وشى صوته ببعض الاستياء. نظر الاثنان إلى بعضهما بارتياب، شبه عدوّين. باولينو يحاول اكتشاف إلى أيّ حدّ ليديا تعرف، وهي بدورها تتلمّس طريقها في الكلمات غير الدقيقة التي تسمعها بحثًا عن سبب تغيّره. ومرّ في رأسها خاطر مفاجئ:

ـ آه صحيح، نسيت أن أقول لك... طلبت منّي والدة الفتاة في الشقّة العلوية أن أشكر لك اهتمامك...

وتحوّل وجه باولينو تحوّلاً أكّد لها تخمينها. الآن تعرف من هي منافستها، وفي الوقت نفسه، يخفق قلبها خوفًا. الشيطان الصغير اختبأ في مكان ما وتركها وحدها، من دون وسيلة دفاع.

نفض باولينو رماد سيجارته وتحرّك في مقعده كأنّه لا يجلس مرتاحًا. بدا مثل ولد صغير ضُبط يأكل من وعاء المربّى خفيةً عن أمّه.

ـ نعم... الفتاة موهوبة...

ـ هل تُفكّر في زيادة راتبها؟

ـ نعم... ربّما... تكلّمنا عن ثلاثة أشهر... لكنّ عائلتها فقيرة، كما قلتِ لي، هل تذكرين؟، وكلاوديا تقوم بعملها كما يجب...

ـ كلاوديا؟

ـ نعم، ماريا كلاوديا.

أخذ باولينو يُركّز أكثر في تأمّل الرماد الذي خفّف من وهج سيجارته. سألته ليديا بابتسامة ساخرة:

ـ والاختزال؟ كيف يسير معها؟

ـ جيّدًا. الصغيرة تتعلّم بسهولة.

ـ توقّعتُ ذلك، توقّعتُ...

عاد الشيطان الصغير، وتأكّدت ليديا من أنّ الغلبة ستكون لها إذا عرفت كيف تحافظ على رباطة جأشها. عليها قبل كلّ شيء ألّا تُغضب باولينو، وألّا تسمح على الإطلاق بأن يكتشف المخاوف الدفينة التي تعتريها. ستخسر إن هو لمس عدم اطمئنانها.

ـ أتعرف أنّ أمّها تثق بي؟ وقد أخبرتني أنّ الصغيرة أساءت التصرّف منذ أيّام...

ـ أساءت التصرّف؟

كان فضول باولينو ظاهرًا بوضوح يكفي لإقناع ليديا بفكرتها، هذا إذا لم تكن اقتنعت بعد. فألمحت:

لا أدري إلى أين ذهب تفكيرك...

ثمّ تظاهرت بأنّها فهمت لتوّها، وتعجّبت قائلة:

ـ لا يُمكن! لا ليس هذا... لو كان صحيحًا، أتعتقد أنّهم سيُخبرونني؟ كم أنت طيّب، عزيزي باولينو.

قد يكون باولينو طيّبًا جدًّا أو لا يكون. لكن الأكيد أنّه بدا مصدومًا. تمتم قائلاً:

ـ أنا لم أفكّر...

ـ المسألة بسيطة جدًّا. بدأ الأب يشكّ عندما صارت تصل متأخّرة إلى البيت. فاعتذرت الفتاة: قالت إنّك تستبقيها لأعمال طارئة...

فهم باولينو أنّ عليه أن يملأ الفراغ في الحوار:

ـ ليس هذا بالتحديد... حصل مرّة أو مرّتين، صحيح، ولكن...

طبعًا، ولا بأس في ذلك. الأب لحق بها وفاجأها مع حبيبها!

هلّل الشيطان الصغير منتشيًا، تطير به الفرحة، ويكاد ينفجر من الضحك. تجهّم وجه باولينو الذي راح يعضّ على طرف سيجارته بقوّة، وتفوّه بما يلي قائلاً:

ـ عجيب أمر هؤلاء الشابّات العصريات...

ـ حبيبي، لا تظلمها!... ماذا ستفعل الصغيرة؟ لا تنسَ أنّها في التاسعة عشرة من عمرها فقط... وماذا تفعل شابّة في التاسعة عشرة؟ فارس الأحلام هو دائمًا شابّ من العمر ذاته، وسيم وأنيق،

يقول كلامًا ساحرًا ولو أنّه في الحقيقة مثير للشفقة. هل نسيت أنّي أنا أيضًا كنت في التاسعة عشرة؟

ـ عندما كنت أنا في التاسعة عشرة...

ولم يقل كلمة أخرى. بقي يعضّ على طرف سيجارته، متلفّظًا بكلمات غير واضحة. ألمّ به الشعور بالاستياء، بالغضب. لقد حرص طوال الفترة الأخيرة على إطراء موظّفة الطباعة الجديدة وتدليلها، والآن يكتشف فجأةً أنّها تتلاعب من ورائه. صحيح أنّه لم يبادر إلى أكثر من ذلك، مكتفيًا ببعض اللفتات، وبعض الابتسامات، وبعض الحوارات الموجّهة بذكاء في مكتبه على انفراد، بعد الساعة السادسة... لم يعرض عليها شيئًا... فالفتاة شابّة جدًّا ولديها والدان... ربّما لاحقًا مع مرور الوقت... وبنوايا طيّبة طبعًا، فهو يريد مساعدة الصغيرة وأسرتها، الفقيرة...

ـ ولكن، هل هذا صحيح؟

ـ قلتُ لك إنّك طيّب جدًّا. لا أحد يخترع هذه الأمور. عندما تحصل عادةً، يحرص الناس على التستّر عليها. أنا عرفت فقط لأنّ الأمّ تثق بي...

وقفت هنا عن الكلام، ثمّ أضافت، متظاهرة بأنّها متفهّمة:

ـ أرجو ألّا يُزعجك الأمر كثيرًا. من المؤسف أن تبدأ بالنفور من الصغيرة. فأنا أعرف جيّدًا مبادئك في مسائل من هذا النوع، ولكن أرجوك ألّا تؤذيها...

ـ لا عليك. اطمئنّي.

نهضت ليديا. ليس من المناسب أن يبقى الحديث دائرًا حول هذا الموضوع. لقد عكّرت على مغامرة التودّد والغزل التي بدأ باولينو يستمتع بها وقدّرت أنّ هذا يكفي للانتهاء دفعة واحدة منها. أعدّت القهوة، منتبهةً إلى أناقة حركاتها، وقدّمتها بنفسها إلى باولينو. ثمّ جلست فوق ركبتيه، ومرّرت ذراعيه فوق كتفيها، وراحت تسقيه القهوة بيديها كأنّه طفل صغير. لقد أزالت عائق موضوع ماريا كلاوديا من أمامها. وشرب باولينو قهوته مبتسمًا لملامسات حبيبته على عنقه.

فجأةً، بدت ليديا مهتمّة برأسه:

ـ ماذا تستعمل الآن لشعرك؟

ـ مستحضرًا جديدًا.

ـ لاحظت من رائحته. ولكن، انتظر...

ـ ركّزت في صلعته وأضافت مبتسمة:

ـ حبيبي، لديك شعر أكثر!...

ـ حقًّا؟

ـ طبعًا.

ـ أعطيني مرآة.

قفزت ليديا عن ركبتيه في اتّجاه منضدة الزينة.

ـ تفضّل. انظر جيّدًا...

أدار باولينو عينيه كي يرى الصورة التي تعكسها المرآة بوضوح وقال:

ـ صحيح...، يبدو أنّك على حقّ...

ـ انظر. هنا وهنا. هل ترى هذا الوبر؟ إنّه شعر ينمو!

أعاد باولينو إليها المرآة مبتسمًا:

ـ قالوا لي إنّ المستحضر من نوعية جيّدة. يحتوي على الفيتامينات.

ـ آه حقًّا؟

وراح باولينو يشرح لها بالتفصيل المملّ عن مكوّنات المستحضر وطريقة استخدامه. بهذه الطريقة انتهت السهرة نهاية طيّبة، بعد بدايتها المتعكّرة. وكانت أقصر من العادة، فقد راعى باولينو وضع ليديا وخرج قبل منتصف الليل بقليل بعدما تبادل الاثنان إشارات في الكلام تدلّ على أسفهما للامتناع الذي فرضه الظرف عليهما. وقد عوّضا عنه ببعض القبل والكلمات الحنونة.

بعد خروجه، عادت ليديا إلى غرفة نومها. وعندما بدأت بالترتيب سمعت من الطابق العلوي، فوق رأسها، صوت كعب حذاء خفيفًا. كان الطرق واضحًا. يأتي ويروح، يختفي ويعود. جمدت ليديا مكانها بينما هي تسمعه، مغلقةً قبضتَي يديها، رافعةً رأسها قليلاً. ثمّ سمعت ضربتين أكثر قوّة (وقوع الحذاء) متبوعتين بصمت كامل.

٢٨

أضافت كارمن إلى سجلّ بريدها الطويل الحافل بالتذمّر والشكاوى رسالة جديدة. وهناك بعيدًا، في فيغو، بلادها، كان والداها يشعران بلوعة دائمة باكيين مع قراءة السلسلة المتجدّدة باستمرار لمآسي ابنتهما الغالية، العالقة بين يدي رجل غريب.

وكارمن المضطرّة في حياتها اليومية إلى استخدام لغة أجنبية، تجد في الرسائل المجال الوحيد للشرح والإطالة بمفردات تفهمها فهمًا كاملاً. روَت كلّ ما حصل معها منذ آخر رسالة أرسلتها، متوقّفة عند مرض ابنها ومستعيدة مشهد المطبخ اليائس بنسخة تحفظ لها كرامتها. فبعدما استرجعت هدوءها، أدركت أنّ تصرّفها لم يكن بالمستوى اللائق بها: أن تجثو على ركبتيها أمام الزوج هو بالنسبة إليها من أكبر المذلّات. أمّا ابنها فلا بأس عليه... لا يزال طفلاً وسينسى من دون شكّ. لكنّ الزوج لن ينسى وهذا ما تجد عناء في قبوله.

كتبت أيضًا إلى قريبها مانولو، ليس قبل أن تتردّد. فكّرت قليلاً في أنّ ما تقوم به هو نوع من الخيانة، وأدركت أنّ هذه الرسالة لن تحمل أيّ معنى بالنسبة إلى قريبها. فباستثناء كلمات قصيرة لتهنئتها بأعياد ميلادها أو في الأعياد المجيدة، لم تستلم

منه شيئًا. لكنّها كانت تعرف على الرغم من كلّ شيء كيف تسير حياته. كان والداها يُطلعانها على كلّ ما يحصل في كنف العائلة الكبيرة، وكان موضوع قريبها مانولو صاحب مصنع الفراشي، يُذكر تكرارًا. لقد حقّق النجاح في حياته، وللأسف بقي عازبًا: هكذا بعد موته، ستُوزّع ملكية المصنع على أقاربه الكثر بحيث لا يبقى سوى القليل لكلّ منهم. هذا إذا لم يُفضّل مانولو واحدًا من أولئك الورثة على حساب الآخرين. فهو حرّ التصرّف بممتلكاته وكل شيء ممكن. جميع هذه النقاط كانت تُذكر بأدقّ تفاصيلها في رسائل فيغو. مانولو لا يزال شابًّا، فهو يكبر كارمن بستّ سنوات فقط، لكن يجب تذكيره بإنريكيتو. لم تُعر كارمن يومًا انتباهًا إلى هذه الاقتراحات، ولم تجد طريقة فعّالة لتقديم ابنها. مانولو لا يعرفه. رآه مرّة عندما كان صغيرًا جدًّا في زيارة له إلى لشبونة برفقة والدَي كارمن. وكارمن تعرف، بحسب ما قالت لها أمّها، أنّ قريبها قال إنّ إميليو لم يعجبه. كانت يومها حديثة العهد بالزواج ولم تعطِ الموضوع أهمّية، لكنّها الآن ترى أنّ قريبها مانولو على حقّ. يقول البرتغاليون «من إسبانيا، لا تأمل في ريح، ولا في زواج مريح». في هذه الحال إذًا «من البرتغال، لا تأمل في زوج صالح، ولا...». لم يكن لدى كارمن من الخيال ما يكفي لابتكار قافية توازي الشماتة البرتغالية، لكنّها تحفظ كلّ الأقوال الشامتة الكثيرة التي تزدحم بها هذه الناحية من الحدود مع إسبانيا.

بعدما كتبت الرسالتين، شعرت بنوع من الراحة، إذ لن تتأخر

الإجابة في الوصول إليها حاملةً معها المواساة. ذلك أنّ كارمن لا تريد شيئًا أكثر من التعاطف. وستُعوّض عن ألمها المتعلّق بمانولو بهذا الغشّ الصغير بحقّ زوجها. تتصوّر قريبها في مكتب إدارة المصنع الذي تحمل منه ذكريات كثيرة، وأمامه على الطاولة كدسة من الرسائل والطلبيات والفواتير. ستكون رسالتها فوق كلّ الأوراق. يفتحها مانولو، ويقرأها باهتمام بالغ، ثمّ يُعيد قراءتها. بعد ذلك يدعها أمامه، وينظر إليها مسترجعًا أحداثًا عذبة مرّت في حياته، وعلى الفور يُبعد كلّ الأوراق، ويأخذ ورقة بيضاء (تحمل في أعلاها اسم المصنع بالأحرف الكبيرة) ويشرع في الكتابة.

مع هذه الأفكار والذكريات بدأ الحنين يفتّ قلب كارمن. حنين إلى كلّ ما تركته، إلى مدينتها، إلى منزل أهلها، إلى بوّابة المصنع، إلى اللغة الغاليسية الحلوة التي يحاول البرتغاليون تقليدها ولا يقدرون. تذكّرت كلّ هذا وأخذت في البكاء. في الواقع تُعذّبها هذه الأشواق منذ فترة طويلة، ولكن كانت كما تأتي، تروح، تدفعها رياح الزمن الذي يصبح ثقيلاً أكثر فأكثر. وكان كلّ شيء يتلاشى، ومعه الذاكرة التي لا تكاد تلتقط صوراً ضبابية من الماضي. لكن الآن كلّ شيء يتراءى لها بدرجة عالية من الدقّة والوضوح. ولهذا السبب تبكي. تبكي ما كان بين يديها فأضاعته وما من مجال لاسترداده. ليتها بقيت هناك مع ناسها، صديقة بين أصدقائها. حيث لا أحد يسخر منها من وراء ظهرها بسبب طريقتها في الكلام، ولا أحد يدعوها «غاليسية» بلهجة الازدراء الّتي يستخدمونها هنا. نعم، ليتها بقيت

غاليسية في أرض الغاليسيين، حيث لا يأخذ لفظ «غاليسي» معنى «حمّال الأمتعة» أو «الفحّام».

ـ يا لي من بائسة، بائسة!...

كان ابنها ينظر إليها بعينين مشدوهتين، ويقاوم بعناد لاواعٍ محاولة أمّه الإمساك به من جديد، قاوم ضربها وضروب سحرها. كلّ صفعة، كلّ تعويذة كانت تدفعه أكثر صوب أبيه. فالأب كان هادئًا، ساكنًا، بينما الأمّ متطرّفة في كلّ شيء، في الكره وفي الحبّ. لكنّها الآن تبكي وإنريكي، مثل كلّ الأطفال، لا يُحبّ أن يرى أحدًا يبكي وخصوصًا أمّه. اقترب منها، حاول التخفيف عنها قدر استطاعته، من دون كلام. يُقبّلها، يُلصق وجهه بوجهها المبلّل بالدموع، ثمّ يبكيان معًا. عندها تسرد عليه كارمن قصصًا طويلة من غاليسيا، مستبدلةً من غير قصد أو انتباه البرتغالية بالغاليسية.

ـ ماما لا أفهم ما تقولين...

عندئذٍ تنتبه وتُترجم إلى اللغة البرتغالية التي تكرهها تلك القصص الحلوة التي لا يظهر جمالها وروعتها وقيمتها إلّا بلغتها الأمّ. ثمّ تُريه الصور، صورة جدّه فيليبي وجدّته مرسيدس، وصورة يظهر فيها قريبها مانولو مع أقارب آخرين. كان إنريكي قد شاهدها كلّها، لكنّ الأمّ تصرّ. وتُعلّق على صورة يظهر فيها طرف من حديقة منزل والديها:

ـ هنا لعبت مرّات كثيرة مع قريبي مانولو...

بدأت ذكرى مانولو تتحوّل إلى هاجس لدى كارمن. كان تفكيرها يحملها دائمًا إليه، عبر طرق غير متوقّعة، فتشعر بالحيرة عندما تحسب الوقت الذي تُنفقه في التفكير فيه. حماقة... فقد انقضى زمن طويل، واليوم تشعر بأنّها كبيرة في السنّ، على الرغم من سنواتها الثلاث والثلاثين الشابّة. كما أنّها متزوّجة. لديها بيتها، وزوجها، وابنها. في حالة كحالتها، لا أحد يحقّ له أن يُفكّر تفكيرًا مشابهًا.

تلمّ الصور، تصبّ كلّ اهتمامها على الأعمال المنزلية، تُرهق نفسها، لكنّ الأفكار تعود ملحّة: أرضها، أهلها، ومانولو بعد كلّ شيء، كما لو أنّها تعمّدت فصل وجهه وصوته ولهذا تصل ذكراه الآن متأخّرة.

وفي الليل كانت تُعاني في سريرها، إلى جانب زوجها، من نوبات طويلة من الأرق. صار حنينها إلى الحياة الماضية مستبدًّا بها، كأنّه يتطلّب منها إجراءً سريعًا. من جهة ثانية أصبحت أكثر هدوءًا، عالقةً في شباك أفكارها التي تحملها بعيدًا. لان طبعها الناري، ودخل قلبها في نوع من الصفاء. استغرب إميليو هذا التحوّل لكنّه لم يُدلِ بأيّ تعليق. ظنّ أنّه تكتيك تقوم به كي تكسب حبّ ابنها من جديد، وافترض أنّ تكهّنه في محلّه عندما لاحظ إنريكي منقسمًا الآن بينه وبين أمّه. حتّى أنّه يُمكن القول إنّ الصغير يسعى إلى التوفيق بينهما، إذ يحاول جذب اهتمام الطرفين معًا إلى شؤونه بمهارة ذكيّة، وربّما غير واعية. أمّا النتائج فمخيّبة للآمال.

الأب كما الأمّ، المستعدّان دائمًا للإجابة عندما يُوجّه سؤالاً محدّدًا لكلّ منهما، يغضّان الطرف إذا ما حاول تعميم الحديث. ولم يكن إنريكي ليفهم. كان من قبل يُحبّ والده قليلاً، ثمّ أدرك أنّه يُمكنه أن يُحبّه من دون قيود؛ وفي فترة ما خاف من أمّه، لكنّ الأمّ تبكي الآن فيعرف أنّه لم يكفّ يومًا عن حبّه لها. يحبّ الاثنين ويرى جيّدًا كيف يبتعد أحدهما عن الآخر كلّ يوم أكثر. لِمَ لا يتحادثان؟ لِمَ ينظران إلى بعضهما أحيانًا كأنّهما لا يعرفان بعضهما أو كأنّهما يعرفان بعضهما أكثر من اللزوم؟ لِمَ هذه السهرات الصامتة، التي يبدو فيها صوته الطفولي كأنّه يسير وحيدًا تائهًا، في أدغال شاسعة وكثيفة يختنق فيها الصدى وتهرب منها كلّ الطيور؟ بعيدًا جدًّا هربت عصافير الحبّ، والأدغال تجمّدت، تحجّرت، من دون الحياة التي لا يولّدها سوى الحبّ.

مضت الأيّام بطيئة متثاقلة. حمل البريد رسالتَي كارمن عبر البلاد وإلى ما بعد حدودها. وربّما عبر الطرقات ذاتها (ومن يدري؟ ربّما بالأيدي ذاتها) بدأت الإجابات رحلتها. وها هي تقترب منها كلّ ساعة، كلّ يوم. لا تعرف كارمن ماذا تنتظر: التعاطف؟ الكلام الطيّب؟ نعم، فهي بحاجة إليهما. سينتهي شعورها بالوحدة عندما تقرأ رسائل غاليسيا، كما لو أنّ أقاربها الحقيقيين يُحيطون بها، فترى وجوههم الرؤوفة محنيّة باتّجاهها تملأها بالشجاعة. هذا ما ينبغي أن تنتظره. لكن أيضًا، وربّما بما أنّه خطر لها أن تكتب إلى مانولو فهي تنتظر أكثر. تمضي الأيّام، ويُنسيها قلقها أنّ أمّها ليست سريعة في

الردّ، وأنّ المراسلة معها تتميّز بفترات استراحة طويلة. حتّى اعتقدت أنّها نسيت أن تردّ...

منَ جهته ترك إميليو الوقت ينقضي، مشدودًا إلى روتينه اليومي كمندوب مبيعات، ويحسّ بيوم تحرّره يبتعد عنه أكثر كلّ يوم. أعلن أنّه سيرحل، لكنّه لم يتّخذ الخطوة. وكانت شجاعته تنطفئ. كلّما كان على وشك تجاوز عتبة الباب كي لا يعود أبدًا، يُمسك به شيء ما. لقد غادر الحبّ بيته. لم يكن يكره زوجته، لكنّه تعب من الشقاء. لكلّ شيء حدّ: يمكنه أن يتحمّل الشقاء إلى هذه الدرجة، لكن ليس إلى أبعد. ومع ذلك، لم يرحل. لم تعد زوجته تقوم بمشاهد جنونها، صارت أكثر هدوءًا. لم تعد ترفع صوتها، لم تعد تتذمّر من حياتها السوداء. عندما يُفكّر إميليو في ذلك، يجزع من احتمال أنّها تسعى إلى إعادة ترميم الحياة الزوجية. فهو يشعر بأنّه سجين بما يكفي وهذه الإمكانية هي آخر ما يتمنّاه. لكنّ كارمن كانت تُحدّثه فقط عند الاضطرار، ولاشيء يوحي فعليًا بأنّها ترغب في المصالحة. محاولتها استمالة الولد واضحة، لكن بين ذلك وبين أن تسعى لاجتذابه هو أيضًا مسافة بعيدة ليست مستعدّة لاجتيازها. ويبقى حائرًا أمام تحوّلها: إنريكي عاد إلى التعايش مع أمّه، فماذا تنتظر حتّى تعود إلى مشاهدها العاصفة؟ سؤال يطرحه إميليو ولا يجد له جوابًا. فيرفع كتفيه غير مبال ويستسلم للزمن كما لو أنّ الزمن قادر على منحه الشجاعة التي تنقصه.

إلى أن وصلت رسالة. لم يكن إميليو في المنزل، وإنريكي خرج

لشراء شيء ما. عندما تسلّمتها كارمن من يد ساعي البريد، وعرفت خطّ أمّها أحسّت بالارتعاش.

ـ ألا تحمل لنا شيئًا آخر؟

نظر الساعي في الرزمة بين يديه وأجاب:

ـ فقط هذه.

هذه فقط! ألمّت بكارمن رغبة في البكاء. وفي هذه اللحظة أدركت أنّها كانت في انتظار رسالة مانولو، ليس وحدها، ولكن على وجه الخصوص. ولم تصل الرسالة. أغلقت الباب ببطء تعجّب له ساعي البريد. كم هي مجنونة. كيف لم تُفكّر في هذا من قبل؟ حتمًا لم تكن بكامل وعيها عندما كتبت إلى قريبها. أخذتها هذه الأفكار لدرجة نسيت معها أنّها تحمل بيدها رسالة أمّها. فجأةً شعرت بأصابعها تلمس الورق، وتمتمت باللغة الغاليسية:

ـ مينيا ناي (أمّي)...

فتحت المغلّف بحركة سريعة لتجد ورقتين كبيرتين تحتشد فيهما من الأعلى إلى الأسفل سطور مكتوبة بذلك الخطّ المكثّف والصغير الذي تعرفه جيّدًا. كان الممرّ معتمًا ولم تستطع القراءة. ركضت إلى غرفة النوم وأشعلت الضوء، وجلست عند طرف السرير. كلّ ذلك بسرعة كأنّها خائفة على الرسالة من أن تتبخّر من يديها. بدأت القراءة ولم تستطع تمييز الكلمات بعينيها المبلّلتين بالدمع. جفّفتهما متوتّرة ومسحت أنفها بمنديل واستطاعت أخيرًا أن تفهم ما تقوله أمّها.

نعم، ها كلّ ما كانت تنتظره يلوح أمامها. الأمّ تأسى عليها من جديد، ومن جديد تقول لها إنّه ليس ذنبها، وأنّها نبّهتها... نعم، هي تعرف كلّ ذلك، قرأت الكلمات ذاتها في غير هذه من الرسائل... ألن تقول لها شيئًا آخر؟ أليس لديها شيء جديد تقوله لها؟ لا؟... لكن... ماذا يسعها أن تقول؟... آه أمّي، أمّي الحبيبة...

ثمّ وجدت ما تبحث عنه: دعوة الوالدين لها. ستذهب. ستذهب لتمضي بعض الوقت في منزل والديها. شهرًا، أو ربّما شهرين. ستأخذ إنريكي معها. الوالدان سيدفعان ثمن التذكرة. وليحصل... ما يحصل، إذ لا يُمكن لكارمن التكهّن به. عادت الدموع إلى عينيها ولم يعد في وسعها أن تقرأ أكثر. لا شكّ في أنّها دموع السعادة. شهران، أو ربّما ثلاثة، بعيدًا عن هذا البيت، إلى جانب أهلها، وابنها معها.

مسحت عينيها وتابعت القراءة: أخبار المنزل، العائلة، وولادة طفل لأحد أفرادها. وبعد ذلك قبلات وعناقات. وعلى هامش الرسالة، بخطّ أصغر حجمًا، ملاحظة. دقّ جرس الباب ولم تسمع كارمن. دقّ من جديد وكانت كارمن قد قرأت هذه الأسطر الأخيرة، ولم تسمع شيئًا ما عداها. والتفسير أنّ مانولو يقول لها إنّه لن يكتب لأنّه ينتظر مجيئها إلى فيغو. عاد الجرس ملحًّا، مستعجلاً وقلقًا. هنا سمعته كارمن، كأنّها عائدة من غياهب الزمن. كان الطارق ابنها الذي احتار في أمره من جديد عندما رآها، فالأمّ تبكي وتضحك في الوقت ذاته. رآها تسجنه بين ذراعيها، أحسّ بقبلاتها وسمعها تقول:

سنذهب لرؤية جدّك فيليبي وجدّتك مرسيدس. سنمضي وقتًا معهما. سنذهب، سنذهب يا بني!

عندما وصل إميليو في المساء، أرته كارمن الرسالة. هو لم يهتمّ يومًا ببريد زوجته، وكان أرقى من أن يعبث برسائلها خفيةً. كان يشكّ في شكاواها، ويعرف أنّ هذه الرسائل تُصوّره كطاغية، لكنّه لم يشأ قطّ أن يقرأها. وكارمن، ولو أنّه لا يُزعجها أن يعرف زوجها ما تقول عنه، أرته فقط مقطع الرسالة الذي تتحدّث فيه أمّها عن السفر: كان ضروريًا أن يُوافق، وقراءة ما تبقّى قد تُجبره على الرفض. لاحظ إميليو نقصان قطعة من الهامش كانت قُصّت بالمقصّ، ولم يسأل لماذا. فقط أعاد الرسالة، من دون كلام.

ـ إذًا؟

لم يُجب على الفور. هو أيضًا سيروق له شهران، أو ربّما ثلاثة، من الوحدة. رأى نفسه حرًّا، وحيدًا، في البيت الفارغ. يُمكنه أن يخرج متى يشاء، ويعود متى يشاء، ينام على الأرض أو في السرير. رأى نفسه يفعل كلّ ما يرغب فيه، وكانت أمورٌ كثيرة لا يقدر على حصر أيّ منها الآن. ارتسمت على شفتيه ابتسامة بعيدة. من هذه اللحظة بدأ يشعر بنفسه حرًّا، تقع حوله الأقفال التي تُقيّده. هناك في الخارج تنتظره حياة عريضة ممتلئة، تتّسع لكلّ الأحلام وكلّ الآمال. ماذا يهمّ إذا لم تكن أكثر من ثلاثة أشهر؟ ربّما ستكون أيّام شجاعته في طريقها إليه...

أصرّت زوجته على السؤال، تخشى جوابًا سلبيًا بسبب الصمت.

ـ إذًا؟

ـ إذًا؟... تبدو فكرة جيّدة.

وحدها هذه الكلمات القليلة أدخلت السعادة إلى قلوب ثلاثة أشخاص في وقت واحد في هذا المنزل، ولأوّل مرّة منذ سنوات كثيرة. بالنسبة إلى إنريكي، كان السبب ما تعد به الإجازة الطويلة، والرحلة بالقطار «تشوـ كوـ تشوـ تشوـ كوـ تشوـ»، وكلّ الدهشة التي يُخبّئها السفر للأطفال. وبالنسبة إلى إميليو وإلى كارمن، التحرّر من الكابوس الذي يجمعهما.

كان العشاء هادئًا، مع بعض الابتسامات والكلمات اللطيفة. كان إنريكي مسرورًا، حتّى الوالدان بدت عليهما أمارات الرضا. حتّى ضوء المطبخ نفسه بدا أكثر إشراقًا. كلّ شيء كان أكثر وضوحًا وصفاءً.

****

٢٩

لم يتكلّم أيّ من الطرفين عن ذلك المشهد الليلي الذي بانت فيه جوستينا عارية لأوّل مرّة أمام زوجها. كايتانو بسبب جبنه، وجوستينا بسبب كبريائها. كلّ ما حصل بعدئذٍ أنّ الفتور الموجود أساسًا بينهما استفحل أكثر. صار كايتانو يخرج من الصحيفة ليقضي ما بقي من ليله في سرير آخر، ولا يعود إلى البيت إلّا ليتناول طعام الغداء، ثمّ يستلقي وينام طوال فترة بعد الظهر. عندما يضطرّان إلى التفاهم حول شيء ما، كانا يتفوّهان بعبارات تقتصر على الجمل المختصرة وأحرف الجرّ. لم يصل يومًا الكره المتبادل بينهما إلى هذه الدرجة من الاكتمال. صار كايتانو يتجنّب زوجته، كأنّه يخشى أن تظهر له، فجأةً، عارية. بينما جوستينا لا تتفادى النظر إليه، ولكن تنظر نظرة ازدراء، بشيء من الوقاحة. كان يشعر بثقل هذه النظرة عليه ويغلي بغضب عقيم. يعرف أنّ كثيرًا من الرجال يضربون زوجاتهم وأنّ كلّهم وكلّهن يرون الأمر طبيعيًا. يعرف أنّ كثيرين يعتبرون الضرب من مظاهر الرجولة، كما يعتبر آخرون ظهور علامات الأمراض الجنسية المُعدية دليلاً آخر عليها. ولكن إذا كان بإمكان كايتانو التفاخر بأمراضه الزهرية، فهو أبعد من أن يدّعي أنّه ضرب زوجته ولو مرّة. وليس السبب مبادئه طبعًا كما يحلو له أن يؤكّد أحيانًا، إنّما

جبنه الخالص. تغلبه سكينة جوستينا التي لم تهتزّ سوى مرّة واحدة، وفي ظروف يخجل بها. كان يستعيد المشهد ولا تزال ماثلة أمام عينيه صورة زوجته بجسمها الضامر والعاري، ويسمع القهقهات التي بدت أقرب إلى النواح. لقد زادت ردّة فعل زوجته غير المتوقّعة من عقدة الدونية التي يُعانيها تجاهها منذ زمن. لهذا كان يتجنّبها، لهذا كان يبقى في البيت أقلّ وقت ممكن، ولهذا كان يهرب من النوم إلى جانبها. لكن كان يوجد أيضًا سبب آخر. كان يعرف أنّه عندما يستلقي في السرير بمحاذاة زوجته لا يقدر على منع نفسه من الرغبة في مضاجعتها. عندما انتبه إلى شعوره هذا أوّل مرّة شعر بالجزع. أراد أن ينكر، اتّهم نفسه بالغباء، وعدّد كلّ الأسباب التي يُمكن أن تثنيه: جسمها الهزيل، النفور بينهما في ماضي علاقتهما الزوجية، احتقارها له. لكن كان كلّما أضاف سببًا، زادت رغبته فيها اتّقادًا. حاول إسكات هذه الرغبة بالتنفيس عنها خارج المنزل ولكن لم ينجح بتاتًا. كان ينتهي فارغًا، أجوف، خائر الساقين، غائر العينين، ويكفي أن يعود إلى البيت ويشمّ رائحة جسد جوستينا الغريبة حتّى تنطلق موجة شبقه وتغمره حتّى أعمق أعماقه، كأنّه عاش فترة طويلة من الانقطاع عن النساء والآن يرى لأوّل مرّة امرأة في متناول يده. عندما ينام بعد الغداء، يُعذّبه دفء أغطية السرير، وتشدّ نظره مثلاً قطعة ثياب ألقتها زوجته على أحد الكراسي. كان يمنح في ذهنه الفستان الفارغ، المطويّ عند وسطه، هيئة الجسم الحيّ وحركته، فوق ساقين مشدودتين متوتّرتين. كان خياله يرسم أشكالًا كاملة التناسق لا تمتّ

إلى الواقع ولو بصلة بعيدة. وإذا دخلت جوستينا في هذه اللحظة غرفة النوم، يلجأ إلى كلّ قدرته للسيطرة على النفس كي لا يقفز من السرير ويتلقّط بها. كان يعيش تحت وطأة أدنى درجات الشهوانية، وفي منامه يشاهد أحلامًا إباحية مثل المراهقين. وخارج المنزل، يُرهق عشيقاته المؤقّتات ويشتمهن لعدم قدرتهن على تهدئته. كانت الرغبة تلسعه باستمرار مثل بعوضة عنيدة. وكفراشة يشلّ الضوء حركة نصف جسمها فترسم حوله دوائر تأخذ في الصغر إلى أن تحترق بالشعلة، هكذا كان يدور حول زوجته منجذبًا إلى رائحتها، وتقاسيم جسمها المتنافرة التي لم ينجح الشبق في تنسيقها.

لم تُلاحظ جوستينا الأثر الذي يُحدثه حضورها في زوجها. كانت تراه متوتّرًا، سريع الغضب، لكن تظنّ أنّ السبب هو الاحتقار المضاعف الذي تُعامله به. وكمن يلعب مع حيوان خطر مدركاً خطورته لكن لا يبتعد عنه لمجرّد الفضول، تريد أن ترى إلى أيّ مدى يُمكنها أن تتحمّل زوجها. تريد أن تقيس مستوى جبنه. خفّفت من ازدرائها الصامت له وأخذت تُكلّمه بنيّة الحصول على فرص أكثر لإبراز هذا الاحتقار له. في كلّ كلامها، في كلّ نبرات صوتها، كانت تُظهر لزوجها إلى أيّ درجة تعتبره حقيرًا. وكان ردّ فعل كايتانو ردًّا ما كانت لتحزره أو تتصوّره. لقد تحوّل إلى النوع المازوشي من العشّاق، تحمله الإهانات والجلدات في كرامته كرجل وكزوج إلى قمّة الرغبة. كانت جوستينا تلعب بالنار من دون أن تدري.

إلى أن كانت إحدى الليالي التي لم يعد كايتانو قادرًا فيها

على المقاومة أكثر، فما إن غادر الصحيفة حتّى هرع إلى منزله. كان مرتبطًا بموعد نسي أمره: المرأة التي كانت في انتظاره غير قادرة على إرضائه. ومثل الذي أصابه الجنون ولكن مازال يذكر أين يجد العقل ويستردّه، ركض إلى البيت. صعد في سيّارة أجرة ووعد السائق بإكرامه إن هو أوصله سريعًا. طوت السيارة المسافة في شوارع المدينة الفارغة في غضون دقائق. وكانت الإكرامية بالفعل كريمة، لا بل مبالغًا فيها. مع دخوله الشقّة، تذكّر كايتانو فجأةً أنّه آخر مرّة عاد فيها في هذه الساعة خرج هائمًا على وجهه. بقي تفكيره واضحًا للحظة مقتضبة. رأى ماذا سيفعل، وخشي نتائجه. لكنّه سمع تنفّس جوستينا المنتظم، وشعر بدفء غرفة النوم، وتلمّس الجسم المستلقي فوق الفراش، فارتفعت لديه نيران الشبق مثل موجة يرفعها البحر من أعماق لجّته.

كان الظلام دامسًا. ومن أوّل لمسة، عرفت جوستينا أنّه زوجها. قبل أن تخرج تمامًا من رقادها قامت بحركات مشوّشة للدفاع عن نفسها، لكنّه كان تحكّم بها، وثبّتها فوق الفراش. بقيت ممدّدة، جامدة، غريبة، عاجزة عن أيّ حركة، كأنّها ترى واحدًا من تلك الكوابيس التي يُهاجمنا فيها شيء مرعب نجهل ما هو، ولذلك يُخيفنا أكثر، ويقع علينا. ثمّ استطاعت أخيرًا أن تُفلت إحدى ذراعيها. حرّكتها في الظلمة وأشعلت المصباح فوق الطاولة الصغيرة بجانب السرير. ورأت زوجها. أثار وجهه الهلع في قلبها: العينان جاحظتان، الشفة السفلى متدلّية أكثر ممّا هي أصلاً، البشرة حمراء

متعرّقة، والفم ملتوٍ بتأثير من رجفة حيوانية. لم تصرخ جوستينا لأنّ الرعب أغلق حنجرتها فعجزت عن إصدار أقلّ صوت. فجأة أصاب ملامح وجه كايتانو نوع من التقلّص غيّره كليًا. كانت ملامح كائن آخر، ملامح رجل مقتلَع من حيوانية ما قبل التاريخ، بهيمة متوحّشة متجسّدة في شكل إنسان.

عندئذٍ بصقت جوستينا على وجهه وفي نظرتها وميض بارد. وبقي كايتانو المصدوم، والمرتجف باستمرار، ينظر إليها. لم يفهم تمامًا ماذا حصل، مرّر يده على وجهه وأمعن فيها. كان اللعاب لا يزال فاترًا ملتصقًا بأصابعه. فتحها، فتوزّع اللعاب خيوطًا لامعة تربط بين الأصابع وترقّ أكثر فأكثر حتّى تتقطّع. فهم كايتانو. أخيرًا فهم. وكان هذا بمثابة الجلدة غير المركّزة التي تجعل النمر المروّض ينهض على قائمتيه الخلفيتين ناشبًا مخالبه مكشّرًا عن أنيابه. أغلقت المرأة عينيها وانتظرت. لم يتحرّك الزوج. بدأت جوستينا تفتح جفنيها على مهل، خائفة، وعلى الفور أحسّت بزوجها يعلوها من جديد. حاولت أن تحيد، لكنّ جسد الرجل بكامله كان يتفوّق عليها. حاولت أن تبقى باردة، مثل أوّل مرّة، ولكن في أوّل مرّة كان برودها طبيعيًا، وليس متعمّدًا. الآن عليها أن تُشغّل إرادتها لكي تنجح. لكن الإرادة بدأت تخونها. أفاقت من داخلها قوى جبّارة كانت نائمة حتّى الآن. اجتازتها موجات سريعة لفّتها بكاملها. شيء ما يشبه الضوء الحيّ عبر رأسها مرارًا. صدرت عنها صرخة تعجّب مفكّكة، وغرقت الإرادة في بئر الغريزة، تخبّطت للحظة ثمّ اختفت لافظةً أنفاسها الأخيرة.

وكالمجنونة، تجاوبت جوستينا مع عناق زوجها. كاد جسمها النحيل يختفي تحت جسمه. كانت تهتزّ، تتأرجح، غاضبة الآن كذلك، الآن أيضًا مذعنة للغريزة العمياء. ثمّ سُمعت جلجلة متزامنة والتفّ الجسدان على بعضهما في حركة دائرية متعانقين مرتعشين.

بعد ذلك ألمّ بهما معًا الاشمئزاز نفسه فابتعدا منفصلين. وبصمت استعاد كلّ منهما أنفاسه على حدة. كان تنفّس كايتانو اللاهث يطغى على تنفّس زوجته. ولا يدلّ على وجودها هي سوى بضع ارتعاشات ضعيفة أخيرة.

ملأ الفراغ دماغ جوستينا. أطرافها رخوة متألّمة، ورائحة جسد زوجها القويّة تغلّف جلدها. كانت تسيل تحت إبطيها قطرات من العرق، ويمنعها ارتخاء شامل من الإتيان بأيّ حركة. لا تزال تشعر بثقل زوجها عليها. بكلّ تأنّ، مدّت ذراعها وأطفأت النور. شيئًا فشيئًا عاد تنفّس كايتانو إلى انتظامه، فانزلق بعد ارتوائه في نوم عميق. وبقيت جوستينا وحدها. توقّف الارتعاش وتضاءل التعب. وحده الدماغ بقي خاليًا من القدرة على التفكير. ثمّ بدأت نتف أفكار بالظهور، وتلاحقت بعضها تلو الأخرى غير مكتملة، من دون اتّصال، من دون خيط يربط بينها. أرادت جوستينا أن تُفكّر في ما حصل، أرادت أن تلتقط واحدة من تلك الأفكار الهاربة التي تظهر وتغيب مثل فقاقيع يرفعها غليان الماء ثمّ تختفي. كانت محاولة مبكرة ما كان لها أن تنجح بهذه السرعة، فقد تملّكتها الدهشة فجأة. كان من العبثية أنّ ما حصل منذ دقائق راق لها، بحيث اعتقدت أنّه

كان حلمًا. لكنّ جسمها المنهك وشعوراً غريباً بالامتلاء يستعصي على التحديد ويسكن بعضًا من أعضائها، يقولان العكس. عندها، عندها فقط استبدّ بها الخوف، أو ربّما دخلت هي في نفق مرعب.

بقيت مستيقظة ما تبقّى من الليل. واصلت النظر إلى العتمة، تائهة شاردة، غير قادرة على التفكير، تحسّ إحساسًا مبهمًا بالتبدّل في علاقتها بزوجها. كأنّها عبرت من الظلام إلى الضوء المكثّف، عمياء للحظات عمّا يُحيط بها من أشياء، تحزر حدودها ولو أنّها تراها في غشاوة ملتبسة. سمعت كلّ الدقّات التي قرعتها ساعة الحائط. شهدت على انسحاب الليل واقتراب الصباح. بدأت تدرّجات زرقاء اللون تلوح في غرفة النوم، هنا وهناك. ارتسم في الظلال إطار الباب الذي يُفضي إلى الممرّ بلون برّاق. في الوقت نفسه مع طلوع الصباح، بدأت تُسمع في المبنى أصوات غير واضحة. كايتانو ينام، مديرًا ظهره، وإحدى ساقيه مكشوفة حتّى العانة، ساق بيضاء اللون، رخوة مثل بطن السمكة.

قاومت جوستينا الخدر الذي يشلّ أطرافها ونهضت. بقيت جالسة، منحنية الظهر، ضائعة الرأس. كلّ جسمها كان يؤلمها. نهضت بحذر كي لا توقظ زوجها، ولبست ثوبها وخرجت من الغرفة. بقيت عاجزة عن تنسيق أفكارها ولكن، بعد هذا العجز، بدأ التفكير اللا إرادي عمله، ذلك التفكير الذي ينشأ ويتوسّع بمعزل عن الإرادة.

استغرقت جوستينا بضع دقائق حتّى وصلت إلى غرفة الحمّام.

وكفتها لحظة كي ترفع رأسها وتنظر في المرآة. رأت نفسها ولم تتعرّف إليها. الوجه الذي أمامها كأنّه ليس لها أو أنّه كان مختبئًا حتّى هذه اللحظة. العينان تحتضران محاطتين بهالتين داكنتين. الوجنتان ممتصَّتان. والشعر المنفوش يُذكّرها بما حصل في الليل من فوران. لكنّ هذه الهيئة ليست جديدة عليها: كان كلّما اشتدّ السكّري عليها، أبانت لها المرآة هذه الصورة. الفرق الآن في التعبير. يجب أن تبدو خجلة لكنّها هادئة، يجب أن تشعر كأنّ أحدًا أهانها لكنّها على العكس تشعر كأنّها صفحت عن أذى كان أصابها.

جلست على مقعد في الشرفة الناتئة. دخلت أشعّة الشمس عبر الزجاج العلوي ولوّنت الجدار بخطّ من الضوء ورديّ اللون يتّسع ويُصبح أكثر إشراقًا. كانت تعبر هواء الصباح صيحات طيور السنونو. رجعت إلى غرفة النوم يأمرها دافع لاواعٍ. لم يتحرّك زوجها. كان ينام فاتحًا فمه، وتبدو أسنانه أكثر بياضًا في وجه أكثر دكنة بسبب اللحية التي طالت. اقتربت منه على مهلها وانحنت صوبه. ملامحه الجامدة تذكّرها فقط من بعيد بالوجه المتشنّج الذي رأته في الليل. تذكّرت أنّها بصقت عليه وخافت، ودفعها خوفها إلى التراجع. تحرّك كايتانو، فانزلق غطاؤه فوق ساقه التي تحرّكت وكشفت عن عورته. شعرت جوستينا بالاشمئزاز والغيثان فهربت من الغرفة. عندها فقط انقطع الرباط الأخير الذي كان يُقيّد تفكيرها. وكما لو أنّه يريد التعويض عن الوقت الفائت، بدأ دماغها بالدوران بسرعة، إلى أن توقّف عند فكرة واحدة استحوذت عليها: «ماذا سأفعل؟ ماذا سأفعل؟».

ولّى الازدراء، ولّت اللامبالاة. ما تشعر به الآن هو كره حقيقي. تكره زوجها وتكره نفسها. تذكّرت أنّها استسلمت له بالحدّة نفسها التي ضاجعها بها. قامت ببضع خطوات متردّدة في المطبخ، كما لو كانت في متاهة. في كلّ ناحية أبواب مغلقة ودروب لا مخارج لها. ليتها استطاعت أن تبقى لامبالية، لكانت اتّخذت دور ضحيّة عنفه الهمجي. تعرف جيّدًا أنّها كامرأة متزوّجة لا يحقّ لها الرفض، لكنّ حيادها كان سيُعبّر أفضل تعبير عن نفورها من زوجها. ليتها تركته يمتلكها، من دون استسلام من قبلها. لكنّها استسلمت. ورأى الزوج جيّدًا أنّها استسلمت؛ أي أنّه سيعتبر في ذلك نصرًا له وسيتصرّف على أساس أنّه الغالب. سيفرض القانون الذي يقرّره وسيضحك في وجهها إذا أرادت التمرّد. لحظة سهو واحدة وينهار عمل سنوات كاملة. لحظة يعمى فيها القلب، وتتحوّل القوّة إلى مجرّد ضعف.

عليها أن تُفكّر في ما يجب فعله. وأن تُفكّر بسرعة، قبل أن يستيقظ. تُفكّر قبل فوات الأوان. تُفكّر الآن، بينما الكره حيّ ودام. تنازلت مرّة، ولا تريد أن تتنازل أخرى. لكنّ ذكرى أحاسيسها تقلقها. لم تكن قبل هذه الليلة وصلت إلى قمم من المتعة بهذا الارتفاع. حتّى عندما كانت علاقتها طبيعية بزوجها، لم تختبر قطّ هذا الإحساس الحادّ الذي يجعلنا نخشى الجنون ونتمنّاه. لم تشعر يومًا بنفسها منطلقة في دوّامة الرغبة كما في تلك اللحظة، بعد انقطاع كلّ القيود، بعد اجتياز كلّ الحدود. ما يُعتبر ارتفاعًا بالنسبة إلى باقي النساء، كان بالنسبة إليها هبوطًا.

قطع جرس الباب عليها تفكيرها. ركضت على رؤوس أصابعها كي تفتح. أخذت الحليب ودفعت الثمن للبائع ثمّ عادت إلى المطبخ. لم يكن الزوج قد استيقظ.

الآن ترى الوضع بوضوح. يجب أن تختار بين المتعة أو التحكّم. سكوتها سيعني قبولها الهزيمة مقابل لحظات أخرى كالتي عاشتها، هذا إذا كان زوجها على استعداد لمنحها لها من جديد. وإذا تكلّمت، تخاطر بأن يقذف في وجهها أنّها تجاوبت معه. استعراض هذين الخيارين أمر سهل، الصعوبة تكمن في الاختيار بينهما. قبل لحظات شعرت بالاشمئزاز، لكنّ اضطرابًا داخليًا الآن، مثل أمواج البحر في تجويف صخري، يحمل إليها ذكرى النشوة الجنسية. التكلّم يعني خسران إمكانية تكرار التجربة. والسكوت يعني الخضوع للشروط التي يريد الزوج أن يفرضها. تأرجحت جوستينا بين القطبين: الرغبة المستيقظة وإرادة السيطرة؛ كانت الواحدة تلغي الأخرى. ماذا تختار؟ أو بالأحرى: إلى أيّ مدى يُمكنها أن تختار؟ إن سيطرت، فكيف ستستطيع مقاومة الرغبة بعدما عرفتها؟ وإن خضعت، كيف ستتحمّل خضوعًا يفرضه رجل تحتقره؟

دخلت شمس صباح الأحد عبر النافذة مثل نهر من الضوء. من مكان جلوسها، رأت جوستينا الغيوم البيضاء الصغيرة الممزّقة والعابرة في السماء الصافية. الجوّ الجميل. الضوء. الربيع.

وصلها من غرفة النوم همس منطفئ، وصوت خشب السرير.

ارتعدت جوستينا وأحسّت بوجهها يحرقها. وانقطع خيط التفكير الذي كان بدأ يتطوّر. جمد مكانه، منتظرًا. توالت الأصوات. اقتربت من بَاب غرفة النوم وتلصّصت: عينا زوجها مفتوحتان ورأتاها. التراجع مستحيل. دخلت بصمت، وبصمت نظر إليها كايتانو. لم تعرف جوستينا ماذا تقول. غادرها كلّ تفكير منطقي. ابتسم الزوج. ولم يكن لديها الوقت الكافي لتكتشف معنى هذه الابتسامة. وتقريبًا من دون أن تُدرك أنّها تتكلّم، قالت:

ـ تصرّف كما لو أنّ شيئًا لم يحصل الليلة. وأنا من جهتي سأتصرّف على هذا النحو.

اختفت الابتسامة عن شفتي كايتانو. وظهرت بين الحاجبين عقدة عميقة. وأجاب:

ـ قد يكون هذا غير ممكن.

ـ تعرف نساء كثيرات في الخارج، ويُمكنك أن تمرح معهن...

ـ وإن أردت استخدام حقوقي كزوج؟

ـ لا أستطيع الرفض، لكنّك ستتعب...

ـ فهمت... أعتقد أنّي فهمت... لِمَ لم تتصرّفي على هذا الأساس الليلة الماضية؟

ـ لو كان لديك بعض الكرامة، لا تطرح هذا السؤال. هل نسيت أنّي بصقت في وجهك؟

قست ملامح كايتانو، ويداه المطروحتان على الفراش أُغلقتا بقوّة. بدا كأنّه يهمّ بالنهوض، لكنّه لم ينهض. أجاب بصوت بطيء وساخر:

ـ لقد نسيت، نعم. الآن أتذكّر. لكنّي أذكر أيضًا أنّك بصقت عليّ مرّة واحدة فقط...

فهمت جوستينا ما يلمح إليه وبقيت ساكتة. سألها زوجها:

ـ ما الأمر؟ ألن تُجيبي؟

ـ لا. أشعر بالخجل عنّا نحن الاثنين.

ـ أنا؟ أنا الذي تحمّلت احتقارك؟

ـ أنت تستحقّه.

ـ من تحسبين نفسك لكي تحتقريني؟

ـ لا أحد، لكنّي أحتقرك.

ـ لكن، لماذا؟

ـ بدأت أحتقرك عندما عرفتك، وفقط عرفتك بعدما تزوّجتك. أنت إنسان فاسق.

رفع كايتانو كتفيه لنفاد صبره.

ـ أنت تغارين.

ـ أغار؟ أنا؟ أضحكتني. يغار المرء على من يحبّ، وأنا لا

أحبّك. أحببتك، ربّما، ولكن لوقت قصير جدًّا. عندما مرضت ابنتي، أيّ اهتمام أعطيتها؟ كانت عشيقاتك يشغلن كلّ وقتك...

ـ أنت تقولين كلامًا لا معنى له.

ـ فكّر كما تشاء. فقط أريدك أن تقتنع بأنّ ما حصل الليلة لن يتكرّر.

ـ سنرى...

ـ ماذا تقصد؟

ـ قلت لي إنّي إنسان فاسق. هذا ممكن. افترضي أنّ الأمر قد يهمّني لأيّ سبب من جديد...

ـ دعك من هذا الاهتمام. ثمّ إنك منذ كم سنة لم تعد تراني كامرأة؟

ـ كأنّ هذا يؤلمك...

لم تُجب جوستينا. نظر إليها زوجها وفي نظرته تعبير خبيث:

ـ هل تتألّمين؟

ـ لا. فهذا يضعني في مصافّ النساء اللواتي تُعاشرهن.

ـ أذكّرك بأنّ الأمر معهن أكثر صعوبة. هل تظنّين أنّي قد أكتفي بليّ ذراعك؟ أنا زوجك...

ـ لسوء حظّي.

ـ ما قلته لتوّك غير لائق. إن كنت لم آبالِ عندما بصقت في وجهي فهذا لا يعني أنّي مستعدّ لقبول كلّ وقاحاتك. أتسمعين؟

ـ أسمعك، لكنّك لا تُخيفني. سبق أن هدّدتني بأنّك ستدوسني ولم أهتزّ.

ـ لا تستفزّيني.

ـ أنت لا تخيفني.

ـ جوستينا!

خلال النقاش، كانت اقتربت قليلاً. وقفت عند حافة السرير تنظر إلى زوجها من الأعلى. ارتفعت ذراعه اليمنى بحركة سريعة وأمسكت بها من معصمها. لم يشدّها، ولكن بقي ممسكًا بها. أحسّت جوستينا بارتعاشة تخترق كلّ جسمها. وكانت ركبتاها ترتجفان الواحدة مقابل الأخرى وكأنّهما مستعدّتان للانتقام. همس كايتانو بصوت أجشّ:

ـ الحقّ معك... أنا إنسان فاسق. أعرف أنّك لا تحبّينني، لكن، منذ أن رأيتك تلك الليلة، صرت كالمجنون. هل تسمعين؟... صرت كالمجنون. ولو لم آتِ إليك هذه الليلة، لكنت متّ...

أكثر من الكلمات ذاتها، النبرة التي قيلت بها هي ما أثار اضطراب جوستينا. حاولت يائسة تحرير معصمها، وشعرت بزوجها يشدّها نحوه ببطء:

ـ اتركني! اتركني!

تلاشت قواها، الضعيفة أصلاً. وأحسّت وهي منحنية فوقه بخفقات قلبه في سمعها. لكنّ عينيها التقتا بصورة ابنتها ورأت ابتسامتها العذبة المُلحّة. بقيت عند حافة السرير وقاومت. لاحظت أنّ زوجها يحاول جذبها بيده الأخرى. حرّكت جسمها وغرست أسنانها في الأصابع التي تُمسك بها، فصرخ كايتانو وأفلتها.

ركضت صوب المطبخ. الآن عرفت كلّ شيء، الآن عرفت الدافع... لو أنّها لم تسمح لردّة فعلها بأن تُظهرها عارية أمام زوجها، لما حصل كلّ هذا. لبقيت جوستينا اليوم نفسها جوستينا البارحة. تكلّمت، وأي نتيجة حقّقت؟ اليقين الأكيد أنّ كلّ شيء تبدّل. وإن كانت لم تستسلم هذه المرّة فبمحض الصدفة. لما كان لصورة الابنة من أثر لو لم يعطها الحوار قوّة المقاومة، وكذلك لأنّه لم تمرّ بعد سوى بضع ساعات... هذا يعني لو أنّ زوجها لم يصرّ، لو انتظر مرور يوم، أو يومين، ولو أنّه بعد هذه الأيّام حاول من جديد، لما كانت قاومت...

حضّرت جوستينا طعام الفطور وأفكارها بعيدة عمّا تقوم به. وفكّرت: «إنّه فاسق، ولهذا احتقرته. ولم يزل فاسقًا، ولهذا مازلت أحتقره. وبالرغم من احتقاري، استسلمت له، وأعرف أنّي لو تكرّرت الفرصة، سأستسلم مرّة ثانية. هل هذا هو الزواج؟ هل عليّ أن أستنتج، بعد كلّ هذه السنوات، أنّي يمكن أن أكون فاسقة مثله تمامًا؟ لو أنّي

أحبّه... لو أنّي أحبّه لما تكلّمت عن الفسق. لكنت وجدت كلّ شيء طبيعيًا، وكنت استسلمت كلّ مرّة مثل هذه المرّة. لكن هل يُعقل ألّا أحبّ وأحسّ بما أحسسته؟ لا أحبّه وكنت على وشك أن أجنّ من المتعة. هل هذه هي حياة الآخرين أيضًا؟ هل لا يوجد بين الزوجين إلّا الكره واللذّة؟ وأين الحبّ؟ هل ما يجب أن يقدّمه الحبّ إذًا هو نفسه ما تقدّمه هذه الرغبة الحيوانية؟ أو بالمختصر المفيد، ترى الحبّ هو مجرّد الرغبة؟».

ـ جوستينا! أريد أن أنهض. أين البيجاما؟

هل يريد أن ينهض؟ هل سيقضي فترة الصباح كلّها إلى جانبها؟ ربّما يريد أن يخرج... دخلت إلى غرفة النوم، فتحت خزانة الثياب وناولت زوجها بيجامته. أخذها من دون أيّ كلمة، وجوستينا حتّى لم تنظر إليه. مازالت في أعماق قلبها تحتقره، وكلّ مرّة أكثر، لكن تخونها الشجاعة لمواجهته. عادت إلى المطبخ مرتجفة: «الخوف هو ما أشعر به. أنا أخاف منه. أنا أخاف منه... لو حدّثت نفسي بهذا البارحة، لكنت ضحكت...».

مرّ كايتانو ويداه في جيوبه، وعبر إلى غرفة الحمّام مجرجرًا خفّيه. تنفّست الزوجة: كانت تخشى أن تحلّ الألفة بينهما ولم تكن مستعدّة لاستقبالها.

كان كايتانو في غرفة الحمّام يصفر لحن فادو ملوّن النغمات. وقف تجاه المرآة وقطع صفيره ليلمس وجهه ويفرك لحيته الكثيفة.

ثمّ استعاد الفادو بينما هو يحضّر ماكينة الحلاقة. بلّل وجهه بالصابون وكفّ عن الصفير ليحلق بأمان أكثر. كان يمرّر الماكينة في دورها الأخيرَ حين سمع زوجته تقول من وراء الباب المغلق:

ـ القهوة جاهزة.

ـ لا بأس. سآتي في الحال.

بالنسبة إليه لم يعد للحديث مع زوجته من حساب. عرف أنّه انتصر. لا بل صار يرى في الأمر ما يسلّيه. بدا له كيف ستدفع السيّدة جوستينا ثمن كلّ التعالي الذي كانت تُعامله به، وكم ستشعر بالخزي. لقد صارت بين يديه. كيف لم يخطر له في السابق أنّ هذه بالتحديد هي أفضل طريقة لترويضها؟ لقد انتهى زمن الازدراء، لقد انتهى الكبرياء وتفتّت غبارًا. ناهيك بأنَّ الأمر أعجبها، الفاجرة. صحيح أنّها بصقت في وجهه، نعم، لكن حتّى هذا ستدفع ثمنه. سيُعيد الكرّة معها ولو مرّة واحدة، على الأقلّ. عندما ستبدأ بالصراخ «آي ـ آي ـ آي» وبالتأرجح، سيكون هذا دواءها، وسنرى ماذا ستفعل. ربّما ستغضب، ربّما، ولكنّها ستغضب فقط بعد انتهائهما...

كان كايتانو مسرورًا. حتّى البثور التي على عنقه لم تنزف كعادتها مع مرور الشفرة. لقد هدأت أعصابه، أخيرًا. يعترف أنّه حام طويلاً حول زوجته، لكنّه الآن يملكها بيده. حتّى لو عاد النفور القديم، هو متيقّن من أنّها لن ترفض «المساعدة الفنّية التي يجب أن يُقدّمها كلّ زوج لزوجته».

دفعه استخدام كلمة «فنّية» في هذه العبارة إلى الابتسام: «المساعدة الفنّية. شيء مضحك...».

غسل مستخدمًا كمّية كبيرة من الماء والصابون. وبينما هو يسرّح شعره، راح يُفكّر: «لا شكّ في أنّي كنت غبيًّا كبيرًا. كان من الواضح أنّ الرسالة من مجهول لن تُجدي نفعًا...».

توقّف. فتح نافذته بتأنّ وقلّب نظره في المكان. لم يُفاجأ بأن يرى ليديا، ومن أجلها أوقف ما كان يقوم به. كانت تنظر إلى الأسفل وتبتسم. تبع نظرتها وشاهد في حديقة شقّة الميزانين اليمنى، شقّة السكّاف، النزيل وهو يعدو وراء دجاجة، بينما يستند سيلفستري إلى الحائط وسيجارته في فمه، ويضرب بباطن كفّه على فخذه ضربات يُسمع صوتها.

ـ أبيل، لا تستطيع أن تلتقط هذه الماكرة. لن يكون هناك حساء على الغداء.

ضحكت ليديا مقهقهة، فنظر أبيل إلى الأعلى وابتسم.

ـ عفوًا... هل تودّين المساعدة؟

ارتفع صوت ضحك ليديا أكثر:

ـ لن يكون من أمري إلّا إعاقتك...

ـ لكن ليس من الإنسانية أن تضحكي على مسكين في مثل هذا الموقف.

ـ لا أضحك عليك. أضحك على الدجاجة...

وقطعت كلامها للتحيّة:

ـَ صباح الخير، سيّد سيلفستري. صباح الخير، سيّد...

أجاب الشاب:

ـ أبيل... لن أقول اسم عائلتي لأنّ المسافة بعيدة للتعريف عن أنفسنا.

وكانت الدجاجة قابعة في إحدى الزوايا، تقوقئ مضطربة. قال السكّاف:

ـ إنّها تسخر منك.

ـ حقًّا؟ سأُجبرها على أن تُضحك السيّدة.

لم يرد كايتانو أن يسمع أكثر. أغلق النافذة، وعادت قوقأة الدجاجة المطارَدة الحادّة مسموعة من جديد. ابتسم كايتانو وجلس على طرف كرسيّ الحمّام يرتّب أفكاره: «لم تُحقّق الرسالة النتيجة المطلوبة... تلك لم تُحقّقها، ولكنّ هذه ستكون أكثر فعالية...». مدّ يده صوب النافذة وأشار إلى نافذة ليديا هامسًا:

ـ ستدفعين الثمن أنت أيضًا... أو لا يكون اسمي كايتانو...

****

تعثّرت جهود أميليا أمام عناد ابنتَي أختها المنيع. حاولت أن تسحب منهما الكلام بالتي هي أحسن. ذكّرتهما بالانسجام العائلي في الماضي، والتفاهم التامّ الذي كان قائمًا بين جميع أفرادها. حاولت إيساورا وأدريانا أن تغشّاها، وأن تُظهرا لها بكلّ الحجج الممكنة أنّهما غير متخاصمتين، وأنّ حرصها على رؤيتهما سعيدتين على الدوام يدفعها إلى تصوُّر أشياء غير موجودة ولا حتّى في الخيال.

قالت لها أدريانا:

ـ كلّنا لدينا همومنا خالتي.

ـ أعرف. أنا أيضًا لديّ همومي. لكنّكما لن تخدعاني. أنت تتكلّمين، وتضحكين، لكن إيساورا أبدًا. وحده الأعمى لا يُلاحظ.

قطعت الرجاء في أن تعرف منهما مباشرةً حقيقة الفتور الذي يسود ويُبعد الواحدة عن الأخرى. لاحظت أنّ بينهما نوعًا من الاتّفاق على التمثيل أمامها وأمام أختها. لكن إذا كانت الأمّ تكتفي بظاهر الأمور، فإنّ أميليا لا يُرضيها شيء غير الحقيقة. لهذا بدأت بمراقبتهما، ومن دون أن تُخفي ذلك. فرضت على ابنتي أختها حالة من التوتّر قريبة من الذعر. صارت ترى في كلّ جملة غامضة

تلميحات تحاول أن تجد لها تفسيرًا. كانت أدريانا تتقبّلها وتأخذها على محمل الدعابة، أمّا إيساورا فكانت تغرق في الصمت، كأنّها كانت تخشى أن تستنتج خالتها من أكثر الكلمات براءة ما لا يصحّ استنتاجه. تسألها أميليا:

ـ ألا تقولين شيئًا إيساورا؟

ـ ليس لديّ ما أقول...

ـ كان الجميع يعيش على وفاق في هذا البيت من قبل. كنّا كلّنا نتكلّم، كلّنا لدينا ما نقوله. لكن الآن تغيّر الوضع وحتّى الراديو صرنا لا نستمع إليه.

ـ لا تستمعين إليه لأنّك لا تريدين خالتي.

ـ وما الجدوى إن كنّا كلّنا نُفكّر في أمور أخرى؟

ربّما كانت تخلّت عن فكرتها لولا تصرّف ابنة أختها. كانت إيساورا تبدو كأنّها ترزح تحت وطأة تفكير خفيّ يُعذّبها. فقرّرت أميليا ترك أدريانا جانبًا وتركيز كلّ جهودها على الأخرى. عندما تخرج، كانت تتبعها. وتعود خائبة. إيساورا لا تُكلّم أحدًا في الشارع، ولا تتحوّل عن الطريق الذي يأخذها إلى المحلّ الذي تعمل فيه، ولا تكتب الرسائل ولا تتسلّمها. حتّى أنّها لم تعد تذهب إلى المكتبة العامّة التي اعتادت على استعارة الكتب منها:

ـ أنت لا تقرئين في هذه الأيّام، إيساورا.

ـ لا وقت عندي.

ـ عندك الوقت ذاته الذي كان من قبل. هل أساءوا معاملتك في المكتبة؟

ـ كيف يخطر لك هذا؟...

عندما سمعت إيساورا السؤال المتعلّق بعدم اكتراثها الحالي بالكتب، احمرّ وجهها. أخفضت رأسها وتفادت أن تلتقي بعينيّ خالتها. والخالة لاحظت الارتباك واعتقدت أنّها هنا وجدت طرف الخيط. ذهبت إلى المكتبة بحجّة السؤال عن أوقات القراءة في الداخل. أرادت أن ترى الموظّفين. وخرجت كما دخلت: كان الموظّفون رجلين كهلين أصلعين من دون أسنان وسيّدة شابّة. هكذا تبخّرت شكوكها في الهواء واختفت إلى غير رجعة. عندما شعرت بأنّ كلّ الأبواب توصد في وجهها، رجعت إلى شقيقتها، فادّعت كانديدا أنّها لا تفهم شيئًا:

ـ عدتِ من جديد إلى أفكارك هذه.

ـ عدتُ ولن أكفّ عنها. أرى أنّك تتستّرين على ابنتيك. عندما تكونين معهما، تبدين طبيعية سعيدة بهما، لكنّ هذا لا ينطلي عليّ. أسمعك في الليل تتنهّدين، وكثيرًا...

ـ أفكّر في أمور أخرى، في قصص قديمة...

ـ لقد ولّى زمن التنهّد على القصص القديمة. المشاكل التي

لديك لديّ نفسها، ولكن محفوظة في الأدراج. وأنت أيضًا حفظتها. ما يجعلك تتنهّدين مسائل حديثة، مسائل الفتاتين...

ـ وساوسك تصل إلى حدّ المرض عزيزتي... كم مرّة تخاصمنا نحن الاثنتين؟ ألا نتصالح بعدها؟ منذ أيّام مثلاً، كي لا نذهب بعيدًا.

ـ صحيح. لهذا أقول لك ما أقوله. نحن نتخاصم ونتصالح. هما ليستا متخاصمتين، لا، ولكن لا تقنعيني...

ـ لا أريد أن أقنعك بشيء. إذا كان يحلو لك مواصلة هذا الوهم الأحمق، تابعي. أنت تُعكّرين حياتنا. كان كلّ شيء كما يُرام...

ـ إذا الأمور ساءت فليس بسببي. بالنسبة إليّ، أنا أفعل كلّ ما في وسعي كي يكون كلّ شيء بخير. لكن...

هنا تنحنحت بصوت عالٍ كي تُخفي تأثّرها وتابعت:

ـ لكن يصعب عليّ أن أرى الفتاتين هكذا...

ـ أدريانا صافية المزاج... سمعتها البارحة، عندما روت لنا كيف تعثّر ربّ العمل بطرف السجّادة...

ـ مجرّد تمويه. هل إيساورا صافية المزاج أيضًا؟

ـ كلّ واحد منّا له أيّام...

ـ أيّام، صحيح، وليست قليلة. لكن كأنّكن أنتن الثلاث متّفقات. أنت تعرفين ما الأمر.

ـ أنا؟

ـ نعم، أنت. لو أنّك لا تعرفين شيئًا، لكنت قلقة مثلي.

ـ الآن قلت إنّي أتنهّد في الليالي...

ـ كشفتك.

ـ أنت ذكيّة جدًّا، لكن تُخطئين إن اعتقدت أنّي أعرف شيئًا... من جهة أخرى، ليس كلّ هذا سوى هذيان يأكل رأسك...

بدا الاستياء على أميليا. هذيان؟ سنرى من الذي يهذي عندما تنفجر القنبلة. غيّرت تكتيكها. كفّت عن إرباك ابنتَي أختها بالأسئلة والتلميحات. ادّعت أنّها غير مكترثة، وأنّها نسيت الموضوع، وعلى الفور لاحظت التراجع في حدّة التوتّر. حتّى إيساورا بدأت تبتسم عند سماعها مبالغات أختها التي كانت تأتي دومًا بقصّة تُخبرها. وأقنعها تصرّف إيساورا أكثر بأنّ هناك لغزًا ما. كان ضروريًا أن تشعر إيساورا بأنّها أقلّ اختناقًا بالشكّ والمطاردة كي تستطيع لبس القناع الذي تريده. تحاول مساعدة الخالة على النسيان، لكنّ أميليا لا تنسى. كانت ترجع خطوات إلى الوراء تحضيرًا لقفزة أقوى وأبعد.

أظهرت اللامبالاة ولكن أرهفت سمعها لكلّ كلمة تقال، من دون أيّ ردّة فعل تجاهها مهما كانت غريبة. اعتقدت أنّها إذا جمعت جزءًا من هنا وجزءًا من هناك، ستنتهي إلى فكّ الشبكة. هكذا بدأت تبحث في ما مضى من الأيّام عن كلّ العناصر التي يُمكن أن تفيدها. حاولت أن تتذكّر متى بدأ هذا الوضع. كانت ذاكرتها قد ضعفت

واختلطت عليها الأحداث، لكنّها أصرّت، مدعومة بالرزنامة، حتّى افترضت أنّها اكتشفت الحقائق. «هذا الوضع» بدأ ليلة سمعت ابنتي أختها تتكلّمان في غرفة النوم وإيساورا تبكي. يومها قالت أدريانا «انتابها كابوس مزعج». أدريانا قالت هذا، إذًا المسألة تتعلّق بإيساورا. عمّ كانتا تتكلّمان؟

تعرف أنّ الفتاتين تُخبران بعضهما كلّ ما يجري معهما، على الأقلّ هكذا كانتا تفعلان من قبل. إذًا هناك حلّ من اثنين: إمّا كانت إيساورا تبكي لشيء أخبرتها إيّاه أدريانا، أي أنّ الموضوع يتعلّق بهذه، أو أنّها كانت تبكي لشيء قالته هي، ما يُفسّر لماذا أرادت أدريانا إخفاء الأمر. لكن، لو كانت المشكلة تخصّ أدريانا، فكيف استطاعت الحفاظ على هدوئها؟

جعلتها هذه التحاليل توجّه اهتمامها صوب أدريانا. لطالما ارتابت في أنّ هذا الابتهاج فيه شيء من الزيف، في أنّه مجرّد زيّ تنكّري. إيساورا تسكت، أدريانا تُخبّئ. إلّا إذا كانت تقصد بتنكّرها أن تغطّي إيساورا. كادت أميليا تُجنّ في هذا الطريق المسدود. ثمّ انتبهت إلى أنّ أدريانا تبقى معظم النهار بعيدة عن مرآها، والمشكلة أنّها لا تستطيع تتبّعها إلى المكتب كما فعلت في المكتبة، لعلّها تجد حلّ اللغز هناك. ولكن إذا كان سبب المشكلة في المكتب، فكيف لم تظهر إلّا بعد سنتين؟...

لم يكن هناك كثير من المنطق في هذه الملاحظة: فالأحداث

تحصل في وقت ما وكونها لم تقع البارحة لا يعني أنّها لن تقع اليوم أو غدًا. لهذا توقّعت أنّ «الموضوع» يعود إلى أدريانا ويتعلّق بالمكتب. وإذا ظهر أنّها مخطئة، ستبحث في الناحية الثانية. في الوقت الحالي، ستترك إيساورا جانبًا. لكنّها لم تتوصّل إلى فهم سبب دموعها. لا بدّ من أنّ حدثًا جسيمًا وقع كي تبكي تلك الليلة وتبقى ساكتة حزينة في ما بعد. حدثًا جسيمًا... أميليا لا ترى بوضوح، أو لا تريد أن ترى، أيّ حدث يمكن أن يكون وقع. أدريانا امرأة شابّة، والحدث الجسيم الوحيد الذي يحصل في حياة امرأة ويدفع بأختها إلى البكاء هو... عندها وجدت أنّ الفكرة مستحيلة وأرادت استبعادها. لكن كلّ شيء الآن يحمل إليها أدلّة تدعم هذا الاحتمال. أوّلاً، أدريانا تبقى طوال النهار بعيدًا عن البيت؛ وثانيًا، تمضي بعض السهرات في الخارج؛ وثالثًا: كلّ ليلة تدخل غرفة الحمّام وتُقفل على نفسها. بالصدفة تقريبًا، اكتشفت أميليا أنّه منذ تلك الليلة لم تعد أدريانا تنعزل في الحمّام. قبل ذلك كانت هي الأخيرة دائمًا في الذهاب إلى السرير. اليوم، إن لم تكن الأولى على الدوام فقلّما تتأخّر كما في السابق. وتمعن أميليا في التفكير: عندما يحصل ذلك، فإنّ الوقت عادة لا يطول. كلّهن يعرفن أنّ لدى أدريانا مفكّرة، حركة طفولية لا أحد يعيرها اهتمامه، وكانت تكتب فيها في غرفة الحمّام. أتراها تضمّ بين صفحاتها تفسيرًا لكلّ هذا التشابك؟ وكيف السبيل إلى مفتاح الدرج الذي يحويها؟

كان لدى كلّ من النساء الأربع درج خاصّ بها وحدها. وكلّ

الأدراج الأخرى مفتوحة للجميع، يسحبن منها ما يشأن. فمن المستحيل إقفال الأدراج بالمفتاح بين نساء يعتمدن في حياتهن على بعضهن، ويستخدمن أغطية الأسرّة نفسها والمناشف نفسها. لكن كان لكلّ واحدة ذكرياتها. لدى أميليا وكانديدا الرسائل القديمة، وأشرطة باقات الزهر من حفلتَي زفافهما، وصور مال لونها إلى الأصفر، وبعض الأزهار المجفّفة، وربّما خصلة شعر. هكذا كان لكلّ درج خصوصية محراب تلوذ إليه كلّ منهما عندما تشعر بالوحدة ووطأة الحنين، فتُقيم الصلاة لذكرياتها. من جهة السيّدتين الكبيرتين، تستطيع كلّ واحدة إن نظرت إلى درجها أن تقول ما في درج الأخرى، مع احتمالات ضعيفة في الخطأ. لكن يصعب على أيّ منهن أن تحزر ما تحتفظ به الشابّتان. في درج أدريانا، هناك على الأقلّ مفكّرتها، وكانت أميليا متأكّدة من أنّ التفسير موجود في طيّاتها. قبل أن تُفكّر في طريقة لقراءة المخطوطة، كانت مستاءة من الانتهاك الذي سيتعيّن عليها أن ترتكبه. فكّرت في ما قد تشعر به إذا عرفت مثلاً أنّ أسرارها انكشفت للآخرين، أسرار مسكينة لا تتجاوز كونها ذكريات أحداث معروفة للجميع. رأت أنّه سيكون تجاوزًا لا يُحتمل. ولكن تذكّرت أيضًا أنّها وعدت بمعرفة سرّ ابنتَي أختها، وليس الآن الوقت المناسب للانسحاب بعد الوعد الذي قطعته، وبعدما أصبحت على بعد خطوة من تحقيقه. يجب كشف الحقيقة، وليحصل ما يحصل. والصعاب كبيرة. كما لو أنّ الاقتناع بأنّ أسرار كلّ واحدة هي غير قابلة للانتهاك لا يكفي، وأنّه لا يمكن أن تجرؤ

أيّ منهن على وضع يدها في درج غيرها، كانت أدريانا تحمل دائمًا مفاتيحها معها. في المنزل، كانت تضعها في حقيبة يدها وكان من المستحيل سحبها وفتح الدرج وقراءة ما تمكن قراءته من دون أن ينتبه أحد. وأن تنسى أدريانا المفاتيح احتمال ضعيف جدًّا. أخذها منها، بحيث تعتقد أنّها أضاعتها؟ هذا هو الحلّ الأسهل، ولكن قد ترتاب إذا اختفى منها مفتاحها وتقفل الدرج بطريقة أخرى. يبقى حلّ واحد: إيجاد مفتاح مشابه. ولهذا يجب نسخه، ولنسخه يجب أخذه إلى محلّ صبّ المفاتيح. أما من طريقة أخرى؟ رسمه ربّما؟ طبعًا، ولكن كيف؟

شغّلت أميليا خيالها. المهمّ إيجاد الفرصة المناسبة، وهي لا تحتاج إلى أكثر من بضع دقائق لرسم المفاتيح. قامت بمحاولات عديدة ولكن دائمًا كان يظهر أحد ما في اللحظة الأخيرة. كلّ هذه المعوقات شحذت فضولها للمعرفة، وكان الدرج المقفل يجعلها ترتجف لنفاد صبرها. الآن تخلّت عن المبادئ التي شغلت تفكيرها في البداية، وصار من الضروري أن تعرف الحقيقة أيًّا تكن النتائج. لو أنّ أدريانا اقترفت عملاً تخجل به، فالأفضل أن يُعرف قبل أن يفوت الأوان. «فوات الأوان» هو ما يُخيف أميليا.

أصرّت وكان لها ما أرادت. كانت قريباتهن من كامبوليدي تزورهن في ردّ للزيارة التي قامت بها أميليا وكانديدا منذ فترة لهنّ. كان يوم أحد. أمضين عندهن فترة بعد الظهر، شربن الشاي وتحدّثن كثيرًا. دار الحديث مستعيدًا، مرّة جديدة، الذكريات الماضية. الذكريات

نفسها التي تعرفها كلّهن، والتي تتظاهر كلّهن بأنهن يسمعنها أوّل مرّة. لم تكن أدريانا يومًا بهذه الحيوية، ولم تبذل شقيقتها يومًا مجهودًا بهذا الحجم لتبدو مسرورة. من جهتها كانديدا، المأخوذة بفرحة ابنتيها، بدت كأنّها نسيت كلّ شيء. وحدها أميليا لم تنسَ. عندما سنحت الفرصة، نهضت ودخلت غرفة الفتاتين. فتحت حقيبة يد أدريانا بقلب يخفق ويدين ترتجفان، وسحبت منها المفاتيح. كان عددها خمسة. عرفت منها اثنين، مفتاح البوّابة المطلّة على الشارع ومفتاح الباب الخارجي؛ ضمن المفاتيح الباقية، اثنان من الحجم الوسط ومفتاح صغير. تردّدت. لا تعرف أيّها قد يكون مفتاح الدرج الخاصّ، على الرغم من أنّها افترضت أنّه أحد المفتاحين المتقاربين بالشكل. الدرج على بعد خطوات، ويمكنها أن تُجرّب، لكنّها خشيت أن تلفت أيّ ضجّة انتباه ابنة أختها. قرّرت أن تنسخ الثلاثة، ولم يكن القرار من دون صعوبة. فقد كان القلم يفلت من بين أصابعها ويرفض متابعة خطّ أسنان المفاتيح بدقّة. كانت جعلت رأسه دقيقًا طويلاً ليأتي الرسم أقرب ما يمكن إلى الحقيقة، لكنّ يديها ارتجفتا لدرجة كادت تدفعها إلى التراجع عن قرارها. كانت ضحكات أدريانا تصلها من الصالة المجاورة وهي تروي قصّة طرف السجّادة التي تجهلها القريبات. كلّهن ضحكن طويلاً وعاليًا بصوت غطّى على صوت حقيبة اليد عند قفلها.

ذلك المساء، بعد العشاء، وبينما كان الراديو، الذي أُشعل نتيجة الجوّ الممتع الذي ساد بعد الظهر، يهمس بمعزوفة من ليليات شوبان،

عبّرت أميليا عن فرحها برؤية ابنتي أختها بهذه اللطافة الواحدة تجاه الأخرى. ابتسمت كانديدا وقالت:

ـ أترين أنّه كان مجرّد وسواس لديك؟

ـ نعم، أرى جيّدًا...

****

٣١

وضعت والدة ليديا حصّتها الشهرية في حقيبة يدها بعدما طوت أوراق النقد جيّدًا وصفّتها في محفظتها، ثمّ جلست تتناول قهوتها، تاركةً شغل الحياكة اليدوية الذي يُشغل سهراتها على السرير. كانت دائمًا تأتي مرّتين في الشهر: الأولى لتأخذ النقود، والثانية في زيارة ودّية. ولأنّها تعرف عادات باولينو موررايس، لا تظهر إلّا في أيّام معيّنة من الأسبوع: الثلاثاء، الخميس، والسبت. كانت تعرف من جهة ثانية أنّه غير مرغوب فيها لا في هذه الأيّام ولا في غيرها، لكن لا يسعها التوقّف عن المجيء. فهي كي تعيش «مرفوعة الرأس» تحتاج إلى هذه الإعانة الشهرية، ومن المؤسف التخلّي عنها ولديها الآن ابنة في وضع اقتصادي جيّد. كما أنّها تأتي كي ترى ليديا ليقينها أنّ هذه ما كانت لتأخذ المبادرة وتساعدها من تلقاء نفسها. وكي لا يظهر أنّها تزور ابنتها حرصًا على المصلحة المادّية فقط، فهي تطرق بابها بعد مرور أسبوعين تقريبًا على استلامها النقود بحجّة الاطمئنان عليها. وبين الزيارتين، الأولى هي الأكثر استساغة لدى ليديا، ذلك أنّ هدفها واضح محدّد. الزيارة الثانية، وعلى الرغم من الاهتمام والعاطفة الظاهرين، كانت عبئًا على الأمّ كما على الابنة.

كانت ليديا تجلس على الأريكة وعلى ركبتيها كتاب مفتوح.

قطعت قراءتها لتقديم القهوة ولم تستأنفها بعد. تنظر إلى أمّها ولا يلوح في عينيها ولو ظلّ من المودّة. تُراقبها ببرودة، كأنّما تراقب امرأة غريبة. لم تنتبه الأمّ إلى هذه النظرة، أو ربّما هي اعتادت عليها حتّى لم تعد تتأثّر بها. كانت تحتسي قهوتها برشفات صغيرة، بالوضعية ذاتها التي تتّخذها دائمًا عندما تكون في بيت ابنتها. أخذت بالملعقة ما تبقّى من سكّر مترسّب في قعر الفنجان، في حركة تخلو من اللياقة وتدلّ على شراهتها.

أخفضت ليديا عينيها في اتّجاه كتابها، وكأنّ قدرتها على مراقبة شخص مزعج وصلت إلى حدّها الأقصى. لا تحبّ أمّها، وتعرف أنّها تستغلّها، لكنّ أصل العداوة تجاهها لا يكمن هنا فقط. لا تحبّ أمّها لأنّها تحسّ بأنّ الأمّ لا تحبّها كابنة. فكّرت أكثر من مرّة في أن تصدّها، ولم تفعل تفاديًا لمشاهد بغيضة.كانت تدفع لراحة بالها ثمنًا يُمكن اعتباره مرتفعًا بحدّ ذاته، لكنّه غير مبالغ فيه بالنسبة إلى ما كان يُوفّره لها. كان عليها أن تستقبل أمّها مرّتين في الشهر، وقد اعتادت على ذلك. الذباب أيضًا يُناكد المرء، والحلّ الوحيد هو الاعتياد عليه...

نهضت الأمّ ووضعت الفنجان فوق منضدة الزينة. عادت لتجلس وأخذت شغل الحياكة بيدها. كان خيط الصوف قد فقد لمعانه والغرزة تتقدّم بخطى السلحفاة، والشغل بطيء لدرجة أنّ ليديا مازالت لا تعرف ما الذي سيُفضي إليه. حتّى أنّها بدأت ترتاب في كون أمّها لا تعمل على هذه القطعة إلّا في زيارتها لها.

حاولت متابعة القراءة، بعدما ألقت نظرة سريعة على ساعة يدها لتحسب الوقت الذي تبقّى لها برفقة شخص آخر. تنوي ألّا تفتح فمها حتّى تحيّة الوداع. تشعر بضجر قاتل. باولينو عاد إلى سكوته السابق، على الرغم من كلّ الجهد الذي تبذله لإرضائه. تُقبّله مقتنعة، قبلة تقوم بها فقط عندما تُدرك ضرورتها. الشفتان تقبّلان بطرق عديدة وليديا تعرفها كلّها. وقبلة الوله، القبلة التي لا تقتصر على الشفتين، بل تُشغّل أيضًا اللسان والأسنان، مخصّصة فقط للمناسبات الكبيرة. وقد استخدمتها كثيرًا في الأيّام الأخيرة لمّا رأت باولينو مبتعدًا، أو على الأقلّ لمّا بدا لها هكذا.

ـ ما بك يا ابنتي؟ مضى وقت وأنت تنظرين إلى هذه الصفحة ولم تُنهِ قراءتها.

كان في صوتها عذوبة وتلميح، كصوت موظّف يشكر رئيسه على عيدية نالها بمناسبة الميلاد المجيد. رفعت ليديا كتفيها ولم تُجب.

ـ تبدين قلقة... أيّ خلاف مع السيّد مورايس؟

رفعت ليديا رأسها وسألت ساخرة:

ـ وإن كان هذا السبب؟

ـ يكون طيشًا يا ابنتي. الرجال نزقون، ويغضبون لأقلّ سبب. من الصعب معرفة التعامل معهم...

ـ يبدو أنّ لديك خبرة...

ـ عشت اثنتين وعشرين سنة مع المرحوم والدك. هل تريدين خبرة أكثر؟

ـ إذا عشتِ اثنتين وعشرين سنة مع والدي ولم تتعرّفي إلى غيره من الرجال، فكيف يمكنك التحدّث عن خبرة؟

ـ كلّهم مثل بعضهم يا ابنتي. ترين واحدًا، كأنّك رأيتهم جميعًا.

ـ وكيف تعرفين إن كنت لم تلتقِ سوى واحد منهم؟

ـ يكفي أن أفتح عينيّ وأرى.

ـ لديك عينان ثاقبتان أمّي.

ـ طبعًا... لا أريد أن أكون مدّعية، لكن بمجرّد نظرة إلى الرجل، أعرفه بالتفصيل.

ـ تعرفين أكثر منّي، بحسب ما أسمع. وما رأيك بالسيّد موررايس؟

تركت الأمّ قطعة الحياكة من يدها وراحت تتكلّم بفصاحة:

ـ العناية الإلهية هي التي أرسلته إليك. رجل من هذا النوع، لن تردّي له كلّ ما تدينين به ولو حملته مرفوعًا على كتفيك. يكفي أن تنظري إلى البيت الذي لديك، إلى مجوهراتك، وثيابك. هل التقيتِ يومًا بمن يُعاملك بهذه الطريقة؟ ما عانيتُه أنا...

ـ أعرف ما عانيته.

ـ تقولين هذا بلهجة غريبة...وكأنّك لاتُصدّقين. يجب ألّا

تكوني أمًّا كي لا تُعاني. أيّ أمّ لا تُريد أن ترى أبناءها في أفضل حال؟

كرّرت ليديا وراءها وهي تهزأ:

ـ صحيح. أيّ أمّ؟

استأنفت الأم حياكتها ولم تُجب. أنهت دورين من الغرزات، على مهلها، كأنّ تفكيرها في مكان آخر. ثمّ عادت إلى المحادثة:

ـ فهمت منك أنّ هناك خلافًا بينكما، صحيح؟ انتبهي جيّدًا لما تفعلين...

ـ وما شأنك أنت أمّي؟ وجود الخلافات أو عدمها يخصّني وحدي.

ـ لا أوافق على هذا التفكير. لو أنّك...

ـ لِم لا تنتهين؟ لو أنّي ماذا؟

كان خيط الصوف على صعوبة بحيث بدا كأنّه ممتلئ بالعقد. أو على الأقلّ انحنت الأمّ على حياكته وكأنّها تُركّز على حلّ أكثر الربطات الكشفية تعقيدًا.

ـ إذًا، ألن تُجيبي؟

ـ أردتُ أن أقول... أن أقول... لو أنّك في وضع أفضل...

أغلقت ليديا كتابها بضرب الدفّتين بقوّة، فجفلت الأمّ وأفلتت منها سلسلة من الغرزات.

ـ يجب أن أحترمك كثيرًا كي لا أطردك من بيتي. لكنّي لا أكنّ لك أيّ احترام، ليكن هذا في علمك، وإن كنت لا أطردك فليس بداعي الاحترام.

ـ من فضلك يا ابنتي... ماذا قلتُ كي تغضبي هكذا؟

ـ ومازلت تسألين؟ ضعي نفسك مكاني.

ـ ولكن يا ابنتي ما هذه الحدّة؟ كأنّك تلومينني، وأنا لا يهمّني سوى صالحك...

ـ اسكتي أرجوك.

ـ لكن...

ـ أطلب منك أن تسكتي من فضلك.

وراحت الأمّ تتباكى أكثر:

ـ لا أصدّق أنّك تُعاملينني هذه المعاملة، أنا أمّك... أنا ربّيتك وحنوت عليك. هذا ما يبقى للأمّ...

ـ لو كنت أنا ابنة مثل كلّ البنات، وأنت أمّ مثل كلّ الأمّهات، لكان يحقّ لكِ أن تشكي.

ـ وتضحياتي؟ وتضحياتي؟...

ـ تُحصّلين عنها ثمنًا جيّدًا، هذا في حال قمتِ بها. أنت في بيت يُموّله السيّد مورايس، تجلسين في مقعد اشتراه هو، تشربين من

القهوة التي يشربها، وتحملين في محفظتك نقودًا هو أعطاني إيّاها. أتعتبرين هذا قليلاً؟

زَادت الأمّ في تباكيها:

ـ ما الذي تقولينه يا ابنتي؟! أنت تُخجلينني.

ـ أرى ذلك. تشعرين بالخجل فقط عندما تُقال الكلمات بصوت مسموع. التفكير فيها لا يُخجلك.

مسحت الأمّ دموعها بسرعة وأجابت:

ـ أنا لم أجبرك على هذه الحياة. وإن كنتِ اخترتها، فلأنّك أردتها.

ـ شكرًا لك. أتصوّر أنّه بحسب الطريق الذي تسلكه هذه المحادثة، ستكون المرّة الأخيرة التي تضعين فيها قدميك في هذا البيت...

ـ الذي ليس لك!

ـ شكرًا لك، مرّة ثانية. سواء أكان بيتي أم لا، أنا الآمرة فيه. ومتى أقول لك: «اخرجي من هنا»، ستخرجين.

ـ قد تحتاجين إليّ يومًا ما.

ـ لن أطرق بابك، اطمئنّي. حتّى ولو كنت أموت من الجوع، لن أذهب وأطلب منك قرشًا من المال الذي تسحبينه منّي.

ـ والذي ليس لك.

ـ لكن الذي كسبته. هنا يكمن الفرق. من تكسب هذا المال هي أنا، أنا. أكسبه بجسدي. يجب أن يفيدني جسمي الجميل لشيء ما. لكي أُعيلك.

ـ لا أعرف لِمَ أبقى هنا، لِمَ لا أغادر.

ـ تريدين أن أقول لك؟ لأنّك خائفة. خائفة من فقدان الدجاجة التي تبيض ذهبًا. أنا هي الدجاجة، والبيض في محفظتك، وسريري هو العشّ، والديك... أتعرفين من الديك؟

ـ ما هذا الابتذال؟!

ـ اليوم أرغب في قول الكلام المبتذل والفظّ. الحقيقة أحيانًا فظّة. كلّ شيء على ما يُرام طالما لا نبدأ بقول الكلام الفظّ، طالما لا نبدأ بقول الحقيقة.

ـ سأذهب.

ـ اذهبي. ولا تعودي، فقد تجدينني أتهيّأ لقول مزيد من الكلام الفظّ والمبتذل.

لفّت الأمّ حياكتها ثمّ فردتها، من دون أن تُقرّر النهوض. بذلت جهدًا كي تهدأ وتلين:

ـ لستِ بخير يا ابنتي. أعصابك متعبة. أنا لم أقصد إهانتك، وأنت ذهبت بعيدًا. واضح أنّكما متخاصمان، ولذا ثرتِ كلّ هذه

الثورة. لكنّ هذا الوضع سيمرّ وينتهي، سترين كيف سينتهي...

ـ تبدين كأنّك مصنوعة من المطّاط. مهما تلقّيتِ من ضربات، تعودَين إلى الشكل ذاته. ألم تفهمي بعد أنّي أريدك أن تغادري؟

ـ بلى. سأتّصل بك غدًا لأطمئنّ عليك، كلّ هذا سينتهي.

ـ لا تُضيّعي وقتك.

ـ لكن يا ابنتي، أنت...

ـ قلتُ ما يجب أن أقول. الآن اخرجي من فضلك.

جمعت الأمّ أغراضها، أخذت حقيبة يدها واستعدّت للانسحاب. وفقًا لطبيعة الحوار الذي جرى مع ابنتها، لا يوجد أمل كبير لها في العودة. حاولت أن تجعل ابنتها ترقّ عن طريق الابتزاز العاطفي:

ـ لا تُدركين مدى الأسى الذي سبّبته لي...

ـ أتصوّر، أتصوّر. تُفكرّين كيف سينتهي مدخولك. صحيح؟ كلّ شيء ينتهي في هذه الدنيا...

قطعت كلامها عندما سمعت الباب الخارجي يُفتح. نهضت صوب الممرّ:

ـ من هناك؟ آه، هذا أنت باولينو. لم أتوقّع قدومك اليوم...

دخل باولينو. أتى يلبس معطفه ولم ينزع القبّعة عن رأسه. عندما رأى والدة ليديا، سأل مستغربًا:

ـ ماذا تفعل هذه السيّدة هنا؟

ـ أنا...

ـ أنا؟ نعم أنت. اخرجي!

قال هذه الجملة بشبه صراخ. تدخّلت ليديا:

ـ لكن، ما هذا التصرّف باولينو؟ كأنّك لست أنت. ما الأمر؟

نظر إليها باولينو غاضبًا:

ـ وتسألين أيضًا؟

استدار بجسمه وانفجر قائلاً:

ـ ألا تزالين هنا؟ ألم أقل أن تخرجي؟... أو انتظري... ستعرفين الآن حقيقة ابنتك. اجلسي!

ورمت أمّ ليديا بنفسها على الكرسيّ. ثمّ أمر باولينو عشيقته:

ـ أنت أيضًا اجلسي.

ـ لست معتادة على أن يكلّمني أحد بهذه اللهجة. لا أريد أن أجلس.

ـ كما تشائين.

خلع معطفه وقبّعته ورمى بهما فوق السرير. ثمّ بدأ موجّهًا كلامه إلى والدة ليديا:

ـ أنت شاهدة على طريقة معاملتي ابنتك.

ـ نعم، سيّد مورايس.

قاطعته ليديا:

ـ لكنّ الموضوع معي أنا أم مع أمّي؟

استدار باولينو نصف دائرة، كما لو أنّ هناك من لسعه: تقدّم خطوتين نحو ليديا متوقّعًا أن تتراجع. ليديا لم تتراجع. سلّمها باولينو رسالة سحبها من جيبه:

ـ إليك الدليل على أنّك تخونينني.

ـ أنت مجنون.

وضع باولينو يديه على رأسه:

ـ مجنون؟ مجنون؟ وتتّهمينني أيضًا بالجنون؟ اقرئي ماذا تقول.

فتحت ليديا الرسالة وقرأتها صامتة. لم تتغيّر ملامح وجهها. عندما وصلت إلى النهاية، سألت:

ـ هل تُصدّق ما يأتي في هذه الرسالة؟

ـ هل أصدّقه؟... طبعًا أصدّقه.

ـ إذًا، ماذا تنتظر؟

نظر إليها باولينو كأنّه لم يفهم. هدوء ليديا يُسقط ما لديه من أسلحة. طوى الرسالة بحركة آلية واحتفظ بها. نظرت ليديا إليه وجهًا لوجه، في عينيه. من خوفه، التفت إلى الأخرى، التي تفتح فمها مشدوهة:

ـ تصوّري أنّ ابنتك تخونني مع جار لها، المستأجر لدى السكّاف، رجل نكرة...

قالت الأمّ، مرعوبة:

ـ آه ليديا، هذا غير ممكن!

جلست ليديا على الأريكة، لفّت رجلاً على رجل، وسحبت من علبتها سيجارة وضعتها في فمها. أشعلها لها باولينو بحكم العادة.

ـ شكرًا.

نفثت الدخان بقوّة وقالت:

ـ لا أدري ماذا تنتظران. أنت قلت إنك تصدّق ما تقوله هذه الرسالة، وأمّي ترى أنّي متّهمة بعلاقة بشابّ على ما يبدو ليس له عمل ولا منه أمل. ماذا تنتظران كي تذهبا؟

اقترب باولينو منها، أكثر هدوءًا:

ـ قولي لي إن كان هذا حقيقة أم كذبًا.

ـ ليس عندي ما أُضيف إلى ما قلته.

ـ هذا صحيح، واضح أنّه صحيح. لو لم يكن صحيحًا، لاعترضت و...

ـ إذا كنت تريد أن أقول لك ما أفكّر فيه، سأقول: هذه الرسالة ذريعة.

ـ ذريعة، لماذا؟

ـ تعرف أكثر منّي.

ـ تقصدين أنّني أنا كتبتها؟

ـ بعض الأشخاص لا تهمّهم الوسيلة للوصول إلى غاياتهم...

صرخ باولينو:

ـ هذا كذب من الطراز الأوّل. أنا لا أقوم بعمل من هذا النوع.

ـ ربّما...

ـ ما هذا؟ أنت تدفعينني إلى فقدان صبري بالقوّة...

سحقت ليديا سيجارتها ونهضت بكلّ برود:

ـ تدخل كإنسان متوحّش، وتتّهمني بحماقة وقحة، وتتوقّع ألّا أبالي؟

ـ إذًا الرسالة كاذبة؟

ـ لا تنتظر منّي جوابًا. يجب أن تُصدّق أو لا تُصدّق ما تقوله الرسالة، وليس ما أقوله أنا. منذ قليل قلت إنّك تُصدّقها. أليس هذا ما قلته؟ ماذا تنتظر إذًا؟

تكلّفت الابتسام وأضافت:

ـ الرجال الذين يعتبرون أنفسهم ضحيّة خيانة يقتلون أو يرحلون. أو يتظاهرون بأنّهم لا يعرفون. ماذا ستفعل أنت؟

ألقى باولينو بنفسه في المقعد، مغلوبًا:

ـ فقط قولي لي إن كان هذا كذبًا...

ـ ما كان عليّ أن أقوله، قلته. أرجو ألّا يطول بك الأمر كي تُقرّر.

ـ أنت تضعينني في موقف صعب...

أدارت ليديا له ظهرها واقتربت من النافذة. تبعتها أمّها وهمست في أذنها:

ـ لِمَ لا تقولين إنّ الرسالة كاذبة؟... هكذا يطمئنّ ويهدأ.

ـ اتركيني.

عادت الأمّ إلى الجلوس، ونظرت إلى الرجل نظرة متعاطفة. باولينو، المنهار في مقعده، وضع قبضتي يديه على رأسه يحاول عبثًا إيجاد مخرج للمتاهة التي وجد نفسه فيها. وصلته الرسالة بعد الغداء بقليل وكاد يُصاب بعسر في الهضم عندما انتهى من قراءتها. لم تحمل الرسالة توقيعًا، ولم تُشر إلى مكان اللقاءات، ما منعه من ضبط ليديا بالجرم المشهود، لكنّها توقّفت عند الشرح والتفصيل، وحثّته على التصرّف كرجل. بعدما قرأها (وكان في مكتبه في الشركة، المقفل من الداخل كي لا يُزعجه أحد) فكّر في أنّ لها ناحيتها الإيجابية. لقد سلب شباب ماريا كلاوديا ونضارتها تفكيره. دائمًا يخترع الحجج ليُناديها إلى مكتبه، حتّى بدأ التهامس بين الموظّفين. ومثل كلّ ربّ عمل له قيمته، لديه معاون يثق به يُخبره بكلّ ما يُفعل وما يُقال

في الشركة. صار متطلّبًا أكثر مع الهامسين، وضاعف اهتمامه بماريا كلاوديا. ثمّ جاءت الرسالة كالعسل على قطعة خبز. يكفي إضافة مشهد عنيف، وكلمتين قاسيتين، ووداعًا، ليمضي إلى آفاق جديدة. طبعًا هناك بعض المعوقات: شباب ماريا كلاوديا نفسه، الوالدان... فكّر في جمع المصلحتين في سلّة واحدة: الاحتفاظ بليديا، التي تجتمع فيها مقوّمات الجمال والأنوثة، ومطاردة كلاوديا، الواعدة بأن تكون أفضل أيضًا. لكن كان هذا قبل تسلّم الرسالة. الآن الإدانة رسمية وتجبره على اتّخاذ القرار. المشكلة أنّه إلى الآن ليس متأكدًا من الحصول على كلاوديا، ويخشى البقاء من دون ليديا. لم يعد لديه ما يكفي من الزمن، ولا من القدرة، للبحث عن عشيقات جديدات. لكنّ الرسالة هنا، أمام عينيه. ليديا تهزأ به مع رجل بائس يستأجر الغرف في المنازل: هذه أسوأ الإهانات، إهانة رجولته. المرأة الشابّة، الرجل المسنّ، والعشيق الشابّ. لا يستطيع تحمّل إهانة كهذه. طلب كلاوديا إلى مكتبه وتحدّث إليها طولَ بعد الظهر. لم يكلّمها عن الرسالة، بل تلمّس طريقه بشديد الحذر وكان لا بأس بما استخلصه. بعدما خرجت الفتاة، أعاد قراءة الرسالة وقرّر اتّخاذ الإجراءات الجذرية التي يتطلّبها الوضع. ومن هنا المشهد مع ليديا.

لكنّ ردّ ليديا جاء غير متوقّع، لقد وضعته، وبكلّ برودتها، أمام الإشكالية المحيّرة: أن يأخذ أو أن يترك، واحتفظت فوق هذا لنفسها بحقّ التصرّف كما يُناسبها في حال قرّر أن «يأخذ». ولكن لِمَ لا تُجيب؟ لِمَ لا تقول نعم أو لا؟

ـ ليديا، لِمَ لا تقولين نعم أو لا؟

نظرت إليه متعالية:

ـ أما زلت في هذا؟ حسبتك اتّخذت قرارك.

ـ هذه حماقة... كنّا صديقين مقرّبين.

ابتسمت ليديا ابتسامة تجمع بين السخرية والحزن.

ـ أترين كيف تبتسمين؟ أجيبي عن سؤالي، هيّا.

ـ إذا أجبتك بأنّها حقيقة، ماذا ستفعل؟

ـ أنا؟ لا أدري... الأمر واضح: سأتركك!

ـ جيّد جدًّا. هل فكّرت في أنّه حتّى لو أجبتك بأنّ الرسالة كاذبة، سيصلك غيرها من الرسائل؟ كم من الوقت تظنّ أنّي أستطيع التحمّل؟ تريدني أن أبقى هنا، خاضعة لأوامرك، حتّى اللحظة التي تكفّ فيها عن تصديقي؟

هنا تدخّلت الأمّ:

ـ سيّد موررايس، ألا ترى أنّ الرسالة كاذبة؟ يكفي أن تنظر إليها.

ـ اسكتي أمّي.

هزّ باولينو رأسه محتارًا. ليديا على حقّ. إذا رأى الشخص الذي كتب الرسالة أنّ لا شيء تغيّر، سيكتب غيرها، وربّما بتفاصيل أكثر، بتفاصيل شاملة كاملة. وقد يكون وقحًا، ويصفه بأنذل الصفات

التي يمكن أن تُطلق على رجل. حتّى متى سيتحمّل هو أيضًا؟ ومن سيضمن له أنّ كلاوديا ستقبل أن تكون الثانية؟ عندئذٍ نهض بحركة سريعة وعنيفة:

ـ لقد قرّرت. سأذهب، في الحال.

شحب وجه ليديا. على الرغم من كلّ ما قالته، لم تكن تتوقّع من عشيقها أن يتركها. كانت صريحة، ومتهوّرة، الآن تعترف بذلك. أجابته بهدوء متكلّف:

ـ كما تريد.

لبس باولينو معطفه وحمل القبّعة. أراد أن ينتهي بكرامة ويحفظ ماء وجهه كرجل. قال:

ـ ليكن بعلمك أنّك ترتكبين خطأ حياتك. لم أتوقّع منك ذلك. أتمنّى لك التوفيق.

توجّه صوب الباب، لكنّ ليديا أوقفته.

ـ لحظة... الأشياء التي تملكها في هذا البيت، أي كلّ ما فيه تقريبًا، هي في تصرّفك. يمكنك أن ترسل من يأخذها متى تشاء.

ـ لا أريد شيئًا. يمكنك الاحتفاظ بها. مازال لديّ مال أفتح به بيتًا لامرأة أخرى. طاب مساؤك.

عندها قالت والدة ليديا:

ـ طاب مساؤك، سيّدي. أعتقد أنّ...

ـ اسكتي أمّي.

اقتربت ليديا من باب الممرّ وقالت لباولينو، الذي كانت يده على قبضة الباب ليفتحه ويُغادر:

ـ أتمنّى لك كلّ السعادة مع عشيقتك الجديدة. فقط انتبه من ألّا يلزموك بالزواج منها...

ـ من دون أن يجيب، خرج باولينو. عادت ليديا وجلست على الأريكة. أشعلت سيجارة جديدة، نظرت إلى أمّها باحتقار وقالت لها:

ماذا تنتظرين؟ انتهت النقود. اخرجي! قلت لك إنّ كلّ شيء ينتهي في هذه الدنيا...

تقدّمت الأمّ نحوها بملامح من أُهينت كرامته. فتحت حقيبتها، سحبت النقود من محفظتها ووضعتها على السرير:

ـ تفضّلي. قد تحتاجين إليها...

لم تتحرّك ليديا:

ـ احتفظي بالنقود. كما كسبتُ هذه، بإمكاني أن أكسب غيرها. اخرجي!

كما لو أنّ الأمّ لاتتمنّى غير ذلك، احتفظت بالمال وخرجت. ذهبت ولم تكن راضية عن نفسها. ذكّرتها جملة ابنتها الأخيرة بأنّه كان يمكنها مواصلة الاعتماد على هذه الإعانة لو لم تكن بهذه

العدائية معها. ليتها وقفت إلى صفّها، ليتها أظهرت عاطفة أكثر... لكنّ حبّ الأبناء يستطيع الكثير... لهذا مازال لديها الأمل بأنّه عاجلاً أم آجلاً، يُمكنها أن تعود...

صوت الباب وهو يقفل أجفل ليديا. وجدت نفسها وحيدة، والسيجارة تحترق على مهل بين أصابعها. وحيدة كما قبل ثلاث سنوات، عندما تعرّفت إلى باولينو موررايس. انتهينا. والآن يجب البدء من جديد. البدء من جديد. من جديد...

لاح في عينيها وميض دمعتين متباطئتين. تردّدتا للحظة، تعلّقتا بالجفن الأسفل، ثمّ وقعتا. دمعتان فقط. لا تستحقّ الحياة أكثر من دمعتين.

****

-٣٢-

ليس أنسيلمو من أصحاب النفس الطويل في الالتزام بأمر ما، ولذلك تعب بسرعة من مرافقة ابنته. ضجر على الخصوص من فترتي انتظاره: من الساعة السادسة إلى حين خروج الفتاة، وأثناء وجودها في درس أستاذ الاختزال. سُرّ في اليوم الأوّل برؤية الطالب الشابّ يفرّ بعيدًا بعدما حاول الاقتراب. وحظي في اليوم الثاني بالمتعة ذاتها. ولكنّ الفتى توقّف عن الظهور في الأيّام التالية وملّ أنسيلمو وظيفته كملاك حارس. أمّا الابنة المستاءة، فلم تكن تنطق ولو بكلمة طوال الطريق. وهذا أيضًا كان يُزعجه. حاول التحدّث إليها، فتح مواضيع وطرح أسئلة فتلقّى أجوبة شديدة الاختصار تُثنيه عن المتابعة. من جهة ثانية ولاعتياده على دوره كسيّد للمنزل، استصغر هذه المهمّة التي اختارها لنفسه. وفي مقارنة غير موفّقة تمامًا، تصوّر نفسه مثل رئيس الجمهورية الذي ينزل إلى الشارع لتنظيم حركة المرور. لم يكن ينقص أنسيلمو سوى سبب واحد لينهي حراسته: وعد من الابنة البارّة بأنّها ستتصرّف كفتاة عاقلة. أو أيّ شيء آخر.

ظهر السبب ولم يكن وعد الفتاة. وصل آخر الشهر وسلّمته كلاوديا حوالى سبعمئة وخمسين إسكودو، ما يعني أنّ ربّ العمل رفع راتبها إلى ثمانمئة. لم تكن العائلة تتوقّع هذه الزيادة ولذلك عمّ الفرح جميع

أفرادها ولا سيّما أنسيلمو. هكذا وبعد إثبات كلاوديا مهاراتها، وجد نفسه مطوّقًا «بالتزام معنوي» بأن يكون معها كريمًا. وبما أنّ وضعه الاقتصادي المهتزّ لا يسمح له بأن يكون كريمًا إلّا بقلبه، أعلن لابنته أنّه سيكفّ عن مرافقتها. جاء شكر كلاوديا معتدلًا نوعًا ما. ظنّ أنّها لم تفهم جيّدًا، فأعاد بشرى الخبر السارّ، ولكن لم ترتفع حرارة عرفانها بالجميل. على الرغم من هذا الجحود، بقي أنسيلمو عند كلمته، ولكن كي يضمن أنّ ابنته لن تُسيء استعمال الحرّية التي قدّمها لها، راقبها لبضعة أيّام، من بعيد. ولم يظهر ولو ظلّ للشابّ.

هكذا عاد أنسيلمو سالمًا إلى قواعده وإلى هوايته اليومية، التي يجد فيها أقصى متعته. عندما تصل كلاوديا إلى البيت، يكون هو قد جلس أمام خرائط إحصائياته الرياضية العزيزة عليه. كذلك بدأ يُشكّل ألبومًا من صور اللاعبين يُجبره كلّ أسبوع على شراء مجلّة مغامرات للفتيان توزّع مع كلّ عدد من أعدادها وبغاية زيادة مبيعاتها، صورة ملحقة لأحد لاعبي كرة القدم. عندما يشتري المجلّة، يجد دائمًا طريقة ليقول إنّها لابنه، ويحملها إلى البيت ملفوفة بالورق كي لا يكشف الجيران نقطة ضعفه. حتّى أنّه سمح لنفسه بشراء أعداد قديمة ليصبح دفعة واحدة المالك السعيد لعشرات الصور، تساعده في ذلك زيادة راتب كلاوديا التي أتت نعمة عليه. تجرّأت روزاليا وانتقدت إسرافه، لكنّ أنسيلمو الذي استعاد سلطته المطلقة، عرف كيف يُسكتها.

بالنهاية كان الثلاثة سعداء: كلاوديا الحرّة، وأنسيلمو المنشغل،

وروزاليا الثابتة على ما هي. عادت الماكينة العائلية إلى إيقاعها المعتاد، والذي اضطرب فقط عندما أحبّت روزاليا، في إحدى السهرات، أن تُعبّر عن شكّ لديها:

ـ أشمّ رائحة تغيّرات لدى السيّدة ليديا...

نظر إليها الأب والابنة وعلامات الاستفهام في عيونهما. أصرّت الأمّ:

ـ ألا تعرفين شيئًا كلاوديا؟

ـ أنا؟ لا، لا أعرف شيئًا.

ـ هممم... ربّما لا تريدين أن تقولي...

ـ قلت لك إنّي لا أعرف شيئًا.

وضعت روزاليا بيضة الرتق في فردة الجوارب التي تخيطها. كانت تعمل ببطء شديد، كأنّما تريد تزكية نار الفضول لدى زوجها وابنتها، وأضافت:

ـ ألم تُلاحظا أنّ السيّد موررايس لم يعد إلى زيارتها منذ أكثر من ثمانية أيّام؟

أنسيلمو لم يكن قد لاحظ وأقرّ فورًا. كلاوديا لاحظت وقالت ذلك أيضًا. لكنّها أضافت:

ـ كان السيّد أنسيلمو مريضًا في الفترة الأخيرة. قال لي ذلك بنفسه...

خاب أمل روزاليا قليلاً ولم تعتبر المرض سببًا كافيًا:

ـ أنت يُمكنك أن تعرفي كلاوديا...

ـ أعرف ماذا؟

ـ إن كانا متخاصمين. هذا ما أشكّ فيه...

رفعت كلاوديا كتفيها ببعض الانزعاج:

ـ هذا ما ينقص. كيف أطرح عليه سؤالاً من هذا النوع؟

ـ أين المشكلة؟ أنت تدينين بخدمة للسيّدة ليديا، ومن الطبيعي أن تهتمّي.

ـ أيّ خدمة أدين بها للسيّدة ليديا؟ إن كنت أدين بشيء لأحد، فللسيّد مورايس.

تدخّل أنسيلمو قائلاً:

ـ ولكن يا ابنتي، لولا السيّدة ليديا، لما حصلتِ على هذه الوظيفة...

لم تُجب الفتاة. عادت إلى الراديو وبدأت تبحث عن برنامج يبثّ موسيقى على ذوقها. وقعت على مسابقة يُسمع خلالها مغنّ من أصحاب الصوت «الدافئ»، يُنشد على لحن سطحيّ وبكلام أكثر سطحية، مآسيه الغرامية. ولعلّ الأغنية ألانت قلب كلاوديا، فقالت بعد انتهاء المغنّي:

ـ لا بأس. إن أردتما، سأحاول أن أعرف...

وأضافت بعد استراحة طويلة:

ـ إذا سألت السيّد موررايس، فهو حتمًا سيُجيبني...

كانت كلاوديا على حقّ. عندما وصلت في اليوم التالي إلى البيت، كانت تعرف كلّ شيء. لم يتوقّع والداها أن تصل في هذه الساعة المبكرة: بعد السابعة والنصف بقليل. قبّلتهما وقالت:

ـ اسمعا: الآن أعرف.

قبل أن يدعها أبوها تُكمل أراد أن يعرف سبب عودتها المبكرة، فأجابت:

ـ لم أذهب إلى الدرس.

ـ إذًا تصلين متأخّرة...

ـ بقيت كي يروي لي السيّد موررايس ماذا حصل.

سألتها روزاليا، المستعجلة:

ـ إذًا؟

جلست كلاوديا. كانت تبدو متوتّرة بعض الشيء. شفتها السفلى ترتجف قليلاً، وصدرها يخفق، ربّما بسبب تعبها من السير طويلاً.

ـ أخبرينا يا ابنتي. نريد أن نعرف...

ـ تخاصما. تلقّى السيّد موررايس رسالة من مجهول يقول فيها...

سأل الزوجان والفضول يكاد يقتلهما:

ـ ماذا؟ ماذا؟

... إنّ السيّدة ليديا تخونه.

ضربت روزاليا على أعلى ساقها:

ـ كنت متأكّدة.

وتابعت كلاوديا:

ـ الأسوأ في ما يأتي.

ـ ماذا أيضًا؟

ـ تقول الرسالة إنّها تخونه مع الشابّ المستأجر عند السيّد سيلفستري.

أنسيلمو وروزاليا صارا فوق السحاب، من شدّة الدهشة. قالت روزاليا:

ـ يا لقلّة الحياء. هذا مستحيل، السيّدة ليديا تقوم بعمل كهذا...

لم يُوافقها أنسيلمو:

ـ برأيي لا، ليس مستحيلاً. ماذا تنتظرين من شخص يعيش مثل حياتها؟

وأضاف بصوت منخفض، كي لا تسمعه ابنته:

ـ كلّهن من القطيع نفسه...

وعلى الرغم من محاولته، سمعته كلاوديا. رمشت بعينيها، لكنّها تظاهرت بأنّها لم تفهم. همست روزاليا مرّة أخرى:

ـ هذا مستحيل.

وحلّ صمت غير مريح، أضافت بعده كلاوديا:

ـ لقد أراني السيّد موريس الرسالة... قال لي أنْ ليس لديه فكرة عمّن يكون قد أرسلها.

رأى أنسيلمو أنّه يجب إدانة الرسائل مجهولة المصدر، ووصفَها بالنذالة. لكنّ روزاليا قفزت من مقعدها، بحميّة من يُدافع عن قضية عادلة يتبنّاها:

ـ لولا الرسائل مجهولة المصدر، تبقى أمور كثيرة مختبئة. تصوّر لو أنّ السيّد موريس بقي مخدوعًا...

كلّ شيء كان يتّجه صوب قرار يفرض الحدث اتّخاذه. أنسيلمو وافق:

ـ صحيح، لو كنت في الموقف نفسه، لأحببت أن أكون على علم...

صُدمت الزوجة بهذه الفرضية وقاطعته قائلة:

ـ كيف تخطر لك هذه الفكرة؟ على الأقلّ احترم ابنتك.

نهضت كلاوديا ودخلت غرفتها. وقالت روزاليا الغاضبة:

ـ كيف تقول ذلك؟ ما هذا الكلام؟

ـ لا بأس، لا بأس. سنتابع على العشاء.

تمّ تأجيل القرار. رجعت كلاوديا من غرفتها وبعد ذلك بقليل جلسوا للعشاء. لم يكن هناك حديث آخر على المائدة. غير أنّ كلاوديا التزمت بصمت مطبق، وكأنّ في الحديث مخاطرة لم تشأ أن تقترب منها. روزاليا وأنسيلمو قدّرا الوضع من جميع أطرافه ما عدا واحداً، الطرف الذي يستدعي اتّخاذ القرار. الكلّ يعرف أنّه ضروري، ولكن ضمنيًا أبقوه إلى ما بعد. صرّحت روزاليا بأنّ المستأجر لدى السكّاف لم يعجبها من أوّل يوم رأته فيه، وأجبرت زوجها على التذكّر أنّها أشارت حينها إلى وجوده المزعج. قال أنسيلمو:

ـ أنا ما يُدهشني أن تكون السيّدة ليديا تقرّبت من متشرّد يستأجر الغرف في المنازل... ماذا تنتظر من علاقة كهذه؟

ـ لا تدع ذلك يُدهشك. منذ قليل قلت إنّه لا يُمكن توقّع شيء آخر ممّن تعيش هذه الحياة...

ـ صحيح، صحيح...

عندما انتهوا من العشاء، قالت كلاوديا إنّ صداعًا أصابها وذهبت لتنام. الآن ومن دون شهود، نظر الزوجان إلى بعضهما، هزّا رأسيهما وفتحا فميهما في الوقت نفسه للكلام، ثمّ أغلق كلّ منهما فمه في انتظار أن يتكلّم الآخر. أخيرًا، بادر أنسيلمو:

ـ هكذا هنّ الغانيات!

ـ أناس بلا حياء.

ـ أنا لا ألومه هو. إنّه رجل، يستفيد من الوضع... ولكن هي، مع كلّ ما تملكه في بيتها.

ـ فساتين جميلة، جلود وفراء، مجوهرات ثمينة...

ـ لهذا أقول لك: من تُخطئ مرّة، تُخطئ ألف مرّة... يحملن هذا في دمهن. يستهويهن التفكير في الرذيلة.

ـ وليتهن يتوقّفن عند التفكير...

ـ ومع من؟ مع المستأجر لدى السكّاف، من وراء ظهر السيّد موريس.

ـ لو أنّ لديها بعض الخجل...

كلّ هذا كان يجب تناوله، لأنّ القرار يأتي فقط بعد تحديد واضح للذنوب. أخذ انسيلمو سكّينًا وراح يجمع به فتات الخبز، تُراقبه روزاليا باهتمام، كأنّ أمان أعمدة المبنى الأساسية يعتمد على هذا العمل.

بدأ أنسيلمو الكلام بعدما انتهى من مهمّته:

ـ في هذه الحال، علينا أن نأخذ قرارنا...

ـ صحيح...

ـ يجب أن نتصرّف.

ـ أظنّ ذلك...

ـ لا يُمكن أن تستمرّ كلاوديا في معاشرة هذه المرأة. إنّها قدوة سيّئة.

ـ ولا أنا أقبل. كنت على وشك أن أقول لك ذلك.

رفع أنسيلمو الوعاء الكبير عن وسط المائدة، ولمّ قطعًا جديدة من فتات الخبز ضمّها إلى الأولى وقال:

ـ وبالنسبة إلينا، انتهى الكلام مع هذه الوقحة. لا تحيّة صباح ولا مساء. سنتصرّف كأنّها غير موجودة.

اتّفقا. بدأت روزاليا تجمع الأطباق المتّسخة من العشاء وسحب أنسيلمو ألبومه من درج خزانة الأواني. كانت السهرة قصيرة، فالانفعالات متعِبة. انسحب الزوج والزوجة إلى غرفة النوم حيث تابعا انتقاد تصرّف ليديا المشين. وانتهيا إلى هذه الخلاصة: هناك نساء يجب أن يختفين عن وجه الأرض، نساء وجودهن لطخة تزحف وسط الناس الشرفاء...

لم تكن كلاوديا نائمة. ولم يكن الصداع الذي قالت صادقة إنّه ألمّ بها هو ما طرد الرقاد من جفونها. لقد تذكّرت حديثها مع ربّ عملها، والأمور لم تكن بالبساطة التي أخبرت بها والديها. لم تلاقِ أيّ صعوبة في أن تعرف منه ما جرى، لكنّ ما تبع لا يمكن أن تخبره

بسهولة. ما حدث ليس بالشيء الخطير، كلّ ما في الأمر أنّه، إن نظرنا جيّدًا، لا يمكن ولا ينبغي التحدّث عنه. لكنّه كان صعبًا. ليس كلّ ما يظهرَ حقيقة، ولا كلّ ما هو حقيقة يظهر. لكن بين الحقيقة والظاهر توجد دائمًا نقطة تفاهم، كأنّما الحقيقة والظاهر مساحتان مسطّحتان تلتقيان وتجتمعان. يوجد منحنى ما، واحتمال أن ينزلق المرء عليه، وإذا ما انزلق، يصل إلى نقطة التماسّ مع الحقيقة ومع الظاهر في آن واحد.

كلاوديا سألت وعرفت. ليس على الفور، لأنّ باولينو كان مشغولاً بأمور كثيرة ولم يستطع تزويدها في الحال بالتفسيرات المطلوبة. كان عليها أن تنتظر حتّى الساعة السادسة. خرج الزملاء، وبقيت هي. ناداها باولينو إلى مكتبه وطلب منها أن تجلس على المقعد الوثير المخصّص لزبائن الشركة المهمّين. كان مقعدًا منخفضًا ومفروشًا بقماش أنيق. كلاوديا التي لم تلحق بموضة التنانير الطويلة الحديثة، جلست مكشوفة الركبتين. بدا الفرش الناعم والطريّ كأنّه يحضنها. قطع ربّ العمل شوطين في مكتبه إلى أن اتّخذ مكانه عند إحدى زوايا طاولته. كان يلبس بدلة باللون الرمادي الفاتح وربطة عنق صفراء تجعله يبدو أصغر سنًّا. أشعل سيجارة فازداد جوّ المكتب، الثقيل أصلاً، كثافة. سيصبح خلال وقت قصير خانقًا. مرّت دقائق طويلة قبل أن يتكلّم باولينو. هذا الصمت، الذي تكادُ أنْ تقاطعه تكتكة ساعة تقف كالبرج مهيبة مستقيمة، كان محرجًا لماريا كلاوديا. واضح أنّ ربّ العمل كان مرتاحًا، وكانت السيجارة مشتعلة إلى نصفها عندما تكلّم:

ـ إذًا، تريدين أن تعرفي ما جرى؟

فأجابت ماريا كلاوديا مقرّة:

ـ أعترف، سيّد موريس... أعترف بأنّه ليس من حقّي. ولكنّ صداقتي مع السيّدة ليديا...

تكلّمت مسبقًا كأنّها تعرف أنّ غياب باولينو لا يمكن أن يكون ناتجًا إلّا عن خصومة. ربّما بتأثر من كلام أمّها، التي لم ترَ دافعًا آخر. سيكون جوابه غبيًّا لو أنّه لم يكن هناك من خلاف. سألها باولينو:

ـ وصداقتك معي، ألا تدخل في الاعتبار؟ إذا كانت وحدها صداقتك لها تدفعك لتكلّميني في الموضوع، فلا أعرف إن كان يجب أن أقول لك...

ـ أسأت التصرّف بسؤالي. يجب ألّا أتدخّل في حياتك. أعذرني...

كان يمكن لباولينو أن يستفيد من إظهارها عدم الاهتمام كي لا يشرح لها ما جرى. لكنّه كان في انتظار أسئلة ماريا كلاوديا، حتّى أنّه كان يستعدّ للإجابة عنها.

ـ لاحظي أنّك لم تجيبيني عن سؤالي. هل صداقتك لها وحدها تدفعك لتسألي وتعرفي؟ أليس لصداقتك لي أيّ دور؟ ألست ص- أنت تُحسن معاملتي...

ـ أُحسن أيضًا معاملة الموظّفين الآخرين، لكنّ هذا لا يعني

أن أحكي لهم عن حياتي الخاصّة أو أطلب منهم الجلوس على هذا المقعد...

لم تُجب الفتاة. فاجأتها الملاحظة. أخفضت رأسها عندما أحسّت بوجنتيها تحمرّان، وتظاهر باولينو بأنّه لم ينتبه. أخذ كرسيًّا وجلس مقابل كلاوديا. ثمّ أخبرها بما حصل. الرسالة، الشجار مع ليديا، القطيعة. عتّم على المجريات التي لم تكن في صالحه وظهر بكرامة ونبل كان سينتقص منهما ذكر هذه المجريات انتقاصًا جمًّا. وبسبب تردّده في بعض الأماكن من حكايته، شكّت ماريا كلاوديا في كون تصرّفه على هذا القدر من النبل والاحترام. ولكن في جوهر المسألة، لم يكن هناك مجال للشكّ، لا سيّما بعد قراءة الرسالة التي أراها إيّاها باولينو:

ـ آسف جدًّا لأنّي سألتك، سيّد مورايس. أرى فعلاً أنّه ليس من حقّي...

ـ بل من حقّك أكثر ممّا تتصوّرين. أنا صديقك، وما من أسرار بين الأصدقاء.

ـ لكن...

ـ أنا طبعًا لن أطلب منك أن تحكي لي عن أسرارك. فالرجال يثقون بالنساء أكثر ممّا يثقن بهم، ولهذا أخبرتك كلّ شيء. أثق بك ثقة تامّة...

انحنى إلى الأمام مبتسمًا وقال:

ـ ليكن هذا إذًا سرًّا بيننا. أتعرفين أنّ الأسرار تُقرّب بين الأشخاص؟

كان جواب ماريا كلاوديا الوحيد ابتسامة. فعلت كلّ ما تفعله النساء عندما لا يجدن جوابًا، وللشخص الذي وُجّهت إليه الابتسامة أن يُفسّرها كما يشاء.

ـ أحبّ رؤيتك تبتسمين. في عمري، يحبّ المرء أن ينظر إلى ابتسامة الشباب. وأنت شابّة جدًّا...

ابتسامة جديدة من ماريا كلاوديا. وباولينو يُسهب:

ـ لستِ شابّة وحسب، بل جميلة أيضًا.

ـ شكرًا جزيلاً، سيّد موريس.

هذه المرّة لم تأتِ الابتسامة معزولة، ورافق الخجل كلمات الشكر:

ـ لا داعي للاحمرار، كلاوديا. ما قلتُه هو الحقيقة الخالصة. لا أعرف فتاة أخرى بهذا الجمال...

وكي تقول الفتاة شيئًا، بما أنّ الابتسامة غير كافية، قالت ما كان يجب أن تسكت عنه:

ـ السيّدة ليديا كانت أجمل منّي...

نعم هكذا: «كانت». كما لو أنّ ليديا ماتت، كما لو أنّ ذكرها في المحادثة يقتصر على كونها مجرّد أداة للمقارنة.

ـ لا تُقارني. أقول لك هذا كرجل... أنت مختلفة. أنت شابّة، وجميلة، ولديك شيء يُدهشني ولا أعرف ما هو...

كان باولينو إنسانًا لائقًا، لائقًا لدرجة أنّه قال: «بالإذن» قبل أن يمدّ يده ليسحب شعرة وقعت على كتف ماريا كلاوديا. لكنّ اليد لم تتبع الطريق نفسه في عودتها. حطّت على وجنة الفتاة ببطء بدت معه كأنّها تلامسها، وبتأنّ بدت معه كأنّها لا تريد الابتعاد. نهضت كلاوديا بسرعة، وسُمع صوت باولينو، الذي أصبح أجشّ فجأة:

ـ ما بك كلاوديا؟

ـ لا شيء سيّد موررايس. يجب أن أذهب. لقد تأخّرت.

ـ لم تدقّ الساعة السابعة بعد.

ـ لكن يجب أن أذهب.

قامت بحركة لتتقدّم، لكنّ باولينو سدّ عليها الطريق. نظرت إليه، خائفة مرتعبة. طمأنها. مرّر يده على وجهها كما يفعل جدّ حنون وهمس:

ـ مغفّلة. أنا لا أؤذيك. فقط أريد أن تكوني بخير...

تمامًا كما يقول الآباء. «فقط أريد أن تكوني بخير».

ـ هل تسمعين؟ فقط أريد أن تكوني بخير.

ـ يجب أن أذهب، سيّد موررايس.

ـ لكن، هل تصدّقين ما قلته لك الآن؟

ـ نعم أصدّقه، سيّد مورايس.

ـ وهل أنت صديقتي؟

ـ نعم، سيّد مورايس.

ـ وسنبقى دائمًا على اتّفاق؟

ـ آمل ذلك، سيّد مورايس.

ـ ممتاز.

مرّر يده من جديد على وجهها وأوصاها:

ـ أرجو أن يبقى ما قلته لك بيننا. إنّه سرّ. إذا أردت، يمكنك أن تُخبري به والديك... لكن إذا أخبرتهما، لا تنسي أن تقولي إنّي تركت تلك المرأة لتصرّفها غير اللائق. لا يجوز ترك إنسان نُقدّره من دون سبب يستحقّ تركه. والواقع أنّي، منذ فترة وأنا لا أشعر بالراحة إلى جانبها. أظنّ أنّي لم أعد أحبّها كما من قبل. كنت أفكّر في شخص آخر، شخص أعرفه منذ أسابيع قليلة. كان يؤلمني أن أرى هذا الشخص قريبًا منّي ولا يسعني التحدّث إليه. أتفهمينني كلاوديا؟ كنت أفكّر فيك أنت...

مدّ يديه، تقدّم نحو الفتاة، وأمسكها من كتفيها. أحسّت كلاوديا بشفتي باولينو تمرّ على وجهها، بحثًا عن فمها. شمّت رائحة التبغ، وشعرت بالقبلات النهمة تلتهمها. لم تجد القوّة للردّ. عندما تركها،

جلست في المقعد الوثير منهكة. ثمّ همست، من دون أن تنظر إليه:

ـ دعني أذهب، سيّد موريس...

أخذ باولينو نفسًا عميقًا، كما لو أنّه تحرّر فجأة من عبء يضغط على رئتيه، وقال:

ـ من واجبي أن أُسعدك، كلاوديا.

بعد ذلك فتح باب المكتب ونادى الساعي. طلب منه أن يُحضر معطف الآنسة كلاوديا. كان الساعي معاونه الذي يضع فيه ثقته، حتّى ظهر هذا كأنّه لم يُلاحظ اضطراب ماريا كلاوديا، كما لم تبدُ عليه الدهشة عندما رأى ربّ العمل يُساعدها على لبس معطفها.

لا شيء أكثر. هذا ما لم تأتِ ماريا كلاوديا على ذكره في البيت. رأسها يؤلمها بشدّة والنوم يُجافيها. كانت تُفكّر مستلقيةً على ظهرها، الذراعان مطويّتان واليدان مشبوكتان وراء رقبتها: من المستحيل ألّا تفهم ما يريده باولينو. مستحيل أن تغمض عينيها عن الحقيقة الجليّة. لا تزال عند منحنى الظاهر، ولكن قريبة جدًّا من الحقيقة قرب الساعة من الساعة التي تليها. تعرف أنّها لم تردّ كما كان يجب، ليس في هذه المحادثة فقط بل منذ اليوم الأوّل، منذ اللحظة التي صادفت نفسها وحيدة مع باولينو في بيت ليديا، ولاحظت عينيه المفترستين تُعرّيانها. تعرف جيّدًا أنّ في هذه القطيعة بين باولينو وليديا، وحدها الرسالة ليست من صنيعها. تعرف أنّها وصلت إلى هذه النقطة ليس بما فعلت، بل بما لم تفعل. تعرف كلّ هذا. فقط

لا تعرف ما إذا كانت تُريد فعلاً أن تشغل مكان ليديا. فكلّ المسألة تُختصر الآن بأن كانت تُريد هذا أو لا تُريده. لو أنّها قصّت كلّ شيء على والديها، فلن تذهب في اليوم التالي إلى المكتب. لكنّها لم تشأ أن تُخبرهما. ولِمَ لم تُخبرهما؟ ألأنّه يجب أن تحلّ الموضوع بقواها الخاصّة؟ قواها الخاصّة التي أوصلتها إلى الوضع الحالي؟ أم هو تحفّظ من يريد أن يكون مستقلّاً؟ وبأيّ ثمن؟

منذ دقائق وماريا كلاوديا تُميّز صوت حذاء عالي الكعب قادم من شقّة الطابق الأسفل. لم تُعره انتباهًا في البداية، لكنّ الصوت لم يتوقّف ونجح في تشتيت أفكارها. أثار فضولها. فجأة سمعت الباب يُفتح، والمفتاح يدور في القفل وبعد صمت قصير، خطوات شخص ينزل الدرج. إنّها ليديا تخرج من شقّتها. نظرت ماريا كلاوديا إلى الساعة تلمع في العتمة على الطاولة المنخفضة بجانب السرير. الحادية عشرة إلّا ربعاً. لِمَ تخرج ليديا إلى الشارع في هذه الساعة؟ حالما تشكّل السؤال في رأسها، وجدت الإجابة. ابتسمت بفتور، ولكن سرعان ما أدركت مدى شناعة هذه الابتسامة، وأحسّت برغبة مفاجئة في البكاء. خبّأت رأسها تحت الأغطية كي تكتم صوت بكائها. هكذا، شبه مخنوقة بنقص الهواء وبدموعها، اتّخذت قرارها الحاسم بأن تُخبر والديها كلّ شيء في اليوم التالي...

****

٣٣

عندما وصل إميليو إلى البيت بعد لفّ ودوران، ونفقات، ومعه كلّ الأوراق التي تحتاجها الأمّ والابن للسفر، كاد قلب كارمن يقفز من شدّة الفرح. بدت لها أيّام الانتظار هذه كأنّها سنوات. رأت في أيّ عائق يُجبرها على تأخير سفرها شيئًا أقوى ممّا يُمكن أن يطيقه صبرها. لكن الآن لم يعد هناك من سبب للخوف. تصفّحت جواز السفر أكثر من مرّة بفضول طفولي. قرأته من الغلاف إلى الغلاف. كلّ شيء في مكانه، ولم يبقَ سوى تحديد يوم السفر وإعلام والديها. لو كان الأمر بيدها، لغادرت في اليوم التالي، بعد إرسال برقية لهما. ولكن يجب تحضير الحقائب. ساعدها إميليو في ذلك والسهرات التي استغرقها هذا العمل كانت من أسعد الأوقات التي مرّت على العائلة. فقط إنريكي نثر في أجواء الفرح العامّ ومن غير قصد سحابة صغيرة عندما قال إنّه يشعر بالحزن لأنّ أباه لا يُرافقهما. لكنّ مثابرة كارمن وإميليو وإرادتهما الطيّبة لإقناعه بأنّ الأمر ليس ذا أهمّية جعلاه ينسى غصّته العابرة. إذا كان الوالدان مبتهجين، فيجب أن يكون هو كذلك. إذا كان الوالدان لا يبكيان بينما هما يضعان جانبًا الملابس والأغراض المستخدمة يوميًا استعدادًا للسفر، فلا داعي لبكائه. بعد ليالٍ ثلاث، كلّ شيء كان حاضرًا. الحقائب تحمل المربّعات الخشبية

وعليها اسم كارمن والعنوان الذي تقصده. إميليو ابتاع تذكرتي السفر وقال لزوجته إنّهما سيُجريان الحساب بعد عودتها. كان واضحًا أنّ هذه العملية ضرورية بما أنّ الحموين وعدا بدفع ثمن التذكرتين، واضطرّ إميليو إلى الاقتراض لشرائهما. لكنّ كارمن أجابت بأنّها حالما تصل ستُرسل إليه النقود كي لا تعترضه أيّ مشكلة. كان الزوج والزوجة يتصرّفان بلباقة كاملة جعلت إنريكي يعيش هذه الساعات الأخيرة مسرورًا برؤية والديه متصالحين، يتحدّثان مع بعضهما كما لم يرهما من قبل.

قبل سفرها بيوم واحد عرفت كارمن بما حصل في بيت ليديا، وذلك عندما زارتها روزاليا لتتمنّى لها رحلة ميمونة، وأمضت عندها جزءًا من الصباح تروي لها قصّة غضب باولينو. أخبرتها عن الدوافع وانتقدت تصرّف ليديا مضيفةً من عندها، وعلى مسؤوليتها، أنّه ربّما ليست هذه المرّة الأولى التي تستغلّ فيها طيبة السيّد مورايس. أغدقت المديح على ربّ عمل ابنتها وصفاته، ولفتت إلى لياقته ونبل تصرّفه. ولم تنسَ أن تذكر أنّه رفع راتب كلاوديا بعد مضيّ شهر واحد على عملها في شركته.

في تلك اللحظات أظهرت كارمن الدهشة التي يُظهرها تلقائيًا كلّ من يسمع هذه القصّة المخزية. رافقت روزاليا في انتقاداتها، ووافقتها أسفها على العادات اللا أخلاقية لدى بعض النساء، ومثل جارتها اعتزّت في قرارة نفسها بأنّها ليست مثلهن. لكن بعد خروج روزاليا، لاحظت أنّها واصلت التفكير طويلاً في هذا الموضوع، وكان

لا بأس بذلك لولا أنّها مسافرة في اليوم التالي وستلهيها الأفكار عن مشاغلها الكثيرة. ما همّها هي من السيّدة ليديا؟ فهي لم تشكُ منها يومًا، بل على العكس كانت الجارة دائمًا لطيفة ولطالما ناولت إنريكيتو عشرة سنتات لقاء خدمة بسيطة. ما شأنها إذا كانت ليديا قامت بهذا العمل البشع؟

العمل بحدّ ذاته ليس مهمًّا، ولكن تهمّ تبعاته. الآن لا يستطيع باولينو بعد الذي حصل أن يعود إلى بيت ليديا: سيكون عارًا عليه. ومن دون أن تعرف كيف، وجدت كارمن نفسها في وضع باولينو ذاته، تقريبًا. لم يحصل بينها وبين زوجها أيّ فضيحة علنية، ولكن حياة طويلة مشتركة، حياة صعبة ومضنية، حافلة بالنقمة والخلافات، بمشاهد الشجار العنيفة والمصالحات المتعثّرة. باولينو ذهب، واثقًا بأنّه لن يعود أبدًا. هي أيضًا ستذهب، لكنّها ستعود بعد ثلاثة أشهر. وماذا لو لم تعد؟ ماذا لو بقيت في بلادها مع ابنها وعائلتها؟

عندما طرحت هذا الاحتمال، عندما فكّرت في أنّها قد لا تعود أبدًا، شعرت بدوار. بدا الأمر سهلاً: تسكت، تنطلق مع ابنها، وعندما تصل إلى إسبانيا، تكتب رسالة إلى زوجها تُعلمه بقرارها. وبعد ذلك؟ بعد ذلك ستُعيد بناء حياتها، من البداية، كأنّها وُلدت من جديد. البرتغال، إميليو، الزواج، كان هذا كابوسًا طال سنوات وسنوات. قد تكون الفكرة ممكنة... سيكون الطلاق ضروريًا، طبعًا... ربّما... لكن هنا تذكّرت كارمن أنّها لا تستطيع البقاء في إسبانيا من دون تصريح الزوج. ستُسافر بإذن منه، وفقط بإذن منه يُمكنها الاستمرار.

نغّصت عليها هذه الأفكار فرحتها. ستُسافر بها أو من دونها، ولكنّ حلم عدم الرجوع المغري يُحوّل البهجة نوعًا ما إلى ألم. ألن تكون العودة بعد ثلاثة أشهر من الحرّية أسوأ عقاب؟ ألن يكون الحكم عليها بأن تتحمّل ما بقي من حياتها كلام زوجها وصوته وظلّه جحيمًا بعدما ذاقت طعم النعيم؟ سيكون عليها أن تُكافح كفاحًا مستمرًّا للحفاظ على حبّ ابنها. وعندما يتزوّج الابن (كان خيال كارمن يقفز متجاوزًا السنين)، عندما يتزوّج ستُصبح الحياة أسوأ، لأنّها ستعيش وحدها مع زوجها. كلّ الألم سينتهي لو أنّه يمنحها الطلاق. ولكن ماذا لو أنّه عن نزوة منه أو ريب أجبرها على الرجوع؟

أفكار عذّبتها طول النهار، وأنستها حتّى اللحظات السعيدة التي كانت عاشتها في حياتها الزوجية. الآن لا ترى سوى نظرة إميليو الباردة والساخرة، وصمته المحمّل باللوم، وهيئة الفشل على جبينه التي لا يهمّه أن يُظهرها كما هي، جاعلاً من فشله يافطة علنية يقرأها كلّ الناس.

حلّ المساء ولم تتقدّم ولو خطوة واحدة في إيجاد الأجوبة عن كلّ الأسئلة التي واصلت طرق باب تفكيرها. بدت صامتة لدرجة أنّ زوجها أراد أن يعرف ما بها. «لا شيء»، كان جوابها له. قالت إنّها متوتّرة قليلاً فقط لاقتراب موعد السفر. استوعبها إميليو ولم يلحّ عليها. هو أيضًا كان متوتّرًا. ساعات قليلة ويُصبح حرًّا. تنتظره ثلاثة أشهر من الوحدة، من الحرّية، من حياة ممتلئة...

وكان السفر في اليوم التالي. كلّ الجيران كانوا يعرفون وقد أطلّ معظمهم من النوافذ. ودّعت كارمن الجيران الذين تحتفظ بعلاقات ودّية معهم ودخلت السيّارة برفقة زوجها وابنها. وصلوا إلى المحطّة قبل انطلاق القطار بقليل، أي ما يكفي من الوقت لوضع الأمتعة، واتّخاذ أمكنة الجلوس، وإلقاء تحيّات الوداع. لم يكد إنريكي يجدُ الوقت ليبكي. ثمّ ضاع القطار في فم النفق تاركاً في الهواء عمودًا من الدخان الأبيض، مثل منديل للوداع تبتلعه المسافة...

كان أوّل يوم من الحرّية. جال إميليو في شوارع المدينة طيلة ساعات. سار في نواحٍ لم يزرها من قبل، تناول غداءه في حانة في منطقة ألكانتارا وعلى وجهه هيئة سعادة جعلت صاحب الحانة يقبض منه ضعف ثمن الوجبة. لم يعترض، لا بل ترك إكرامية أيضًا. عاد بالسيّارة إلى وسط المدينة، واشترى تبغًا أجنبيًا وعند مروره أمام مطعم فاخر، أدرك أنّه كان من الغباء أن يتناول غداءه في تلك الحانة. دخل إلى السينما، وفي الاستراحة شرب القهوة، وتجاذب أطراف الحديث مع رجل غريب قال له، بالنسبة إلى القهوة، إنّها تُسبّب له ألمًا شديدًا في معدته.

عندما انتهى الفيلم، سار وراء امرأة، ثمّ أضاعها في الشارع ولم يهتمّ. وقف على أحد الأرصفة مبتسمًا أمام النصب وسط ميدان الرستاورادورس. تصوّر أنّه بقفزة واحدة يُمكنه أن يصل إلى أعلى المسلّة، لكنّه لم يقفز. بقي أكثر من عشر دقائق ينظر إلى شرطي المرور ويستمع إلى صفيره. كان يجد كلّ شيء مسلّيًا وينظر إلى الناس والأشياء

كأنّه يراهم أَوَّلَ مرّة، كأنّه استعاد البصر بعد سنوات طويلة من فقدانه. كان هناك صبيّ يحاول إقناع المارّة بأن يأخذ لهم صورًا، توجّه إلى إميليو فلم يردّه خائبًا. اتّخذ وضعيةً للتصوير وعند الإشارة من المصوّر، سار إلى الأمام بخطوة حاسمة والابتسامة تعلو وجهه.

ذهب للعشاء في مطعم فاخر. كان الطعام لذيذًا والنبيذ أيضًا. بعد هذه المصاريف الزائدة، لم يبق لديه الكثير من النقود لكنّه لم يندم. لم يكن يندم على شيء. كان حرًّا، ليس كما الطيور التي لا التزامات لديها، ولكن بقدر ما كان يتوقّع من الحرّية. خرج من المطعم وشاهد كلّ اللوحات الإعلانية في ميدان روسيو مضيئة متلألئة. نظر إليها واحدة واحدة، وكأنّها النجوم في ليلة عيد السيّدة العذراء. هنا صورة لماكينة خياطة، وهناك ساعات، وهنالك كأس من نبيذ أوبورتو تفرغ من دون أن يشربها أحد، وسيارة لا تبارح مكانها. وتحت الإعلانات النافورتان وعرائس البحر وقرون يُفترض أن تكون ملأى بالفاكهة لكنّها لبخلها لا تُقدّم سوى الماء. وأيضًا تمثال الامبراطور ماكسيميليانو دي مكسيكو، وأعمدة المسرح الوطني، والسيّارات المنطلقة على الأسفلت، وصراخ باعة الجرائد والمجلّات، ونسيم الحرّية العليل.

عاد إلى البيت متأخّرًا، متعبًا بعض الشيء، والمصابيح القليلة تُضيء الشارع من دون اقتناع. كلّ النوافذ كانت مغلقة ومعتمة. نافذته أيضًا.

عندما فتح الباب أحسّ بالصمت يترك عنده انطباعًا غريبًا.

طاف من غرفة إلى غرفة مخلّفًا وراءه المصابيح مشتعلة والأبواب مفتوحة، مثل طفل صغير. بالطبع لم يكن خائفًا، لكنّ سكون الأشياء، وغياب الأصوات المألوفة، وجوًّا من الترقّب الغامض كلّها تُحدث عنده شعورًا بعدم الارتياح. جلس على السرير الذي سيشغله وحده لثلاثة أشهر مقبلة وأشعل سيجارة. سيكون وحيدًا في مايو، ويونيو، ويوليو وربّما في جزءٍ من أغسطس، أي في أفضل وقت من السنة للاستمتاع بالحرّية. الشمس، الدفء، الهواء الطلق. سيذهب إلى الشاطئ كلّ يوم أحد، سيستلقي تحت الشمس مثل سحلية أفاقت لتوّها من سباتها الشتوي. سيرى السماء زرقاء، خالية من الغيوم. وسيتنزّه طويلاً في الريف. أشجار سينترا، وكاستيلو دوس موروس، وشواطئ الساحل القريب. كلّ هذا وحده. سيقوم وحده بكلّ هذا وكلّ ما يسعه فعله ويعجز الآن عن تخيّله لأنّه فقد عادة التخيّل منذ زمن. كان كالعصفور الذي يرى باب قفصه مفتوحًا، ويتردّد في المبادرة إلى القفزة التي تُطلقه بعيدًا عن القضبان.

يُحيط به صمت المنزل مثل يد مغلقة. تحقيق المشاريع، أيًّا تكن، تلزمه نقود. سيكون عليه أن يعمل كثيرًا وسيأخذ هذا من وقته. لكنّه سيعمل راغبًا أكثر، راضيًا أكثر، وإن كان عليه أن يقتصد في شيء فسيقتصد في طعامه. ندم على العشاء الباهظ والتبغ الأجنبي، لكن على كلّ حال كان هذا في اليوم الأوّل ومن الطبيعي أن يتجاوز الحدود. أيّ شخص مكانه لفعل مثله وأكثر.

نهض وأطفأ الأنوار ثمّ عاد إلى الجلوس. كان محتارًا، كمن ربح

الجائزة الكبرى ولا يعرف ماذا يفعل بكلّ المال. اكتشف أنّه لشدّة ما تمنّى هذه الحرّية، لا يعرف الآن كيف يستمتع بها بالكامل. بدت له المشاريع التي فكّر فيها سطحيّة وتافهة. بالنهاية سيفعل كلّ ما كان يفعله برفقة العائلة. سيذهب إلى الأمكنة ذاتها، سيجلس تحت الأشجار ذاتها، وسيستلقي فوق الرمال ذاتها. غير مقبول. ينبغي أن يُفكّر في شيء أكثر أهمّية، شيء يستحقّ أن يتذكّره بعد عودة زوجته وابنه. ماذا يمكن أن يكون؟ سهرات؟ حفلات عربدة؟ مغامرات مع النساء؟ لقد عاشها كلّها في سنيّ عزوبيته ولا يرغب في العودة إليها. يعرف أنّ هذه الممارسات المسرفة تُخلّف دائمًا طعمًا من مرارة الندم والاشمئزاز. سيكون تكرارها تدنيسًا لحرّيته. لكن بالإضافة إلى النزهات والانغماس في الشهوات، لم يجد ما يُمكن أن يشغل به الأشهر الثلاثة أمامه. يُريد فكرة أهمّ وأرقى، ولا يدري ما هي.

أشعل سيجارة أخرى، خلع ثيابه واستلقى في السرير الذي توجد فيه الآن وسادة واحدة: كان كأنّه أرمل، أو عازب، أو مطلّق. وفكّر: «ماذا سأفعل غدًا؟ يجب أن أخرج للعمل. سأقوم بجولة في الصباح. هناك طلبيات في انتظاري. وفي المساء؟ هل أذهب إلى السينما؟ السينما مضيعة للوقت، ولا يُعرض حاليًا أيّ فيلم يستحقّ المشاهدة. وإذا لم أذهب إلى السينما، فأين أذهب؟ في نزهة، طبعًا. سأقصد مكانًا ما، ولكن أين؟ لشبونة مدينة يستمتع بالحياة فيها من يملك المال. وعلى من لا يملكه أن يعمل ويكدّ كي يملأ وقته ويؤمّن لقمة عيشه. ومالي ليس كثيرًا... وفي الليل؟ ماذا سأفعل في الليل؟

أذهب من جديد إلى السينما؟... يا له من جدول... هل سأمضي أيّامي في صالة سينما، كأنّ ما من عمل آخر أقوم به؟ والنقود؟ حتّى وأنا وحدي عليّ أن أدفع ثمن الطعام وإيجار البيت. أنا حرّ، هذا مؤكّد، ولكن ما نفع الحرّية إن كنت لا أملك وسائل الاستفادة منها؟ إذا بقيت أفكّر بهذه الطريقة، سأنتهي إلى تمنّي رجوعهما...».

جلس في سريره، متوتّرًا: «اليوم بالغت في طموحاتي... استمتعت به كلّيًا إلى حين عودتي إلى البيت، ولكن ما إن تجاوزت العتبة حتّى راودتني هذه الأفكار الغبيّة. هل تبدّلتُ حتّى صرت مثل النساء اللواتي يتعرّضن لضرب أزواجهن ومع ذلك لا يستطعن العيش من دونهم؟ وضع أحمق. مستحيل. من المضحك أن أعيش كلّ هذه السنوات متمنّيًا الحرّية، وقبل أن ينتهي اليوم الأوّل أشعر بالرغبة في الركض بحثًا عمّن كان يمنعها عنّي». أخذ نفسًا من سيجارته وهمس لنفسه:

ـ إنّها العادّة، من دون شكّ. التبغ أيضًا مضرّ بالصحّة ولا أتخلّى عنه. غير أنّي قد أتوقّف عن التدخين يوم يقول لي الطبيب: «التبغ يقتلك». واضح أنّ الإنسان أسير عاداته. هذا التردّد هو نتيجة العادة. لم أعتد على الحرّية بعد...

بعد اطمئنانه لهذه الخلاصة، عاد إلى الاستلقاء. رمى بعقب السيجارة إلى المنفضة، لكنّه لم يصبها. تدحرج العقب على رخام الطاولة المنخفضة ووقع على أرض الغرفة. ولكي يُثبت إميليو لنفسه أنّه حرّ، لم يتحرّك ليلمّه. بقيت السيجارة مشتعلة حتّى آخرها،

وأحرقت قليلاً من خشب الأرضية، ثمّ صعد الدخان متباطئًا، واختبأت الجمرة المنطفئة تحت الرماد. غطّى إميليو نفسه حتّى عنقه، وأطفأ النور، فأمسى البيت أكثر صمتًا. «إنّها العادة...، عادة الحرّية. الإنسان المتضوّر جوعًا يموت لو أُعطي كمّية كبيرة من الطعام دفعة واحدة. من الضروري تعويده...من الضروري تعويد المعدة... هذا ضروري...» وغلبه النعاس على نحو مفاجئ.

كان الصباح متقدّمًا عندما استيقظ. فرك عينيه ببطء وشعر بالجوع. عندما فتح فمه لينادي تذكّر فجأةً أنّ زوجته سافرت، وأنّه وحده. قفز من السرير قفزة واحدة وركض في البيت حافي القدمين. لا أحد. إنّه وحيد، كما يتمنّى. ولم يُفكّر كما قبل أن ينام، بأنّه لا يعرف بأيّ طريقة سيستمتع بحرّيته. فكّر فقط في أنّه حرّ. وضحك. ضحك عاليًا. اغتسل وحلق ذقنه وارتدى ثيابه، وحمل حقيبته وخرج إلى الشارع، كلّ هذا وكأنّه يحلم.

كان الصباح مشرقًا تحت سماء صافية وشمس دافئة. بدت بشاعة المباني ظاهرة وكذلك بشاعة الناس المارّين. المباني كأنّها مشدودة إلى الأرض والناس لهم وجوه المُدانين بحكم ما. ضحك إميليو مرّة أخرى. إنّه حرّ. مع نقود أو من دونها، إنّه حرّ. حتّى ولو لم يفعل غير تكرار الخطوات ذاتها ومشاهدة الأشياء ذاتها، إنّه حرّ.

ردّ قبّعته إلى الخلف كأنّ الظلّ يزعجه. وغار في الشوارع، في عينيه بريق جديد وفي قلبه عصفور مُغرّد.

****

٣٤

أخيرًا وصل اليوم الذي ستنكشف فيه كلّ الأسرار. لقد توصّلت أميليا إلى إقناع أختها بمرافقة إيساورا إلى محلّ القمصان حيث تعمل، بعدما وظّفت كلّ مهاراتها الدبلوماسية. وصفت لها كم أنّ الطقس رائع، وكيف سيفيدها أن تخرج في الهواء الطلق وتستمتع بأشعّة الشمس، وأنّه من المؤسف جدًّا أن تبقى حبيسة أربعة جدران بينما يكاد فصل الربيع في الخارج يُجنّ من شدّة الفرح. وفي مديحها الربيع كادت تقترب من أسلوب الغزل، ووصلت في بلاغتها إلى درجة دفعت الأخت وابنتها إلى بعض الاستهزاء. سألتاها إن كانت تُريد أن تخرج هي أيضًا، بما أنّ الجوّ أغدق عليها بهذا القدر من الإلهام، لكنّها تذرّعت بانشغالها بتحضير العشاء وتقريبًا دفعتهما إلى الباب دفعًا. ثمّ لاحقتهما بعينيها من النافذة لأنّها كانت تخشى أن تعود أيّ منهما فتُفاجئها. هذا لأنّ كانديدا كانت تنسى كثيرًا، وغالبًا ما تترك خلفها أشياء تحتاج إليها.

وصارت أميليا الآن وحدها في البيت: ستغيب الأخت وابنتها لساعتين على الأقلّ، وستعود أدريانا بعدهما. أحضرت المفاتيح التي كانت أخفتها وعادت إلى غرفة ابنتي أختها. في خزانة البياضات ثلاثة أدراج صغيرة، وأوسطها درج أدريانا.

عندما اقتربت أميليا، شعرت بخزي مفاجئ. فهي تعرف أنّها على وشك ارتكاب عمل شنيع، ولو أنّه يُتيح لها الاطّلاع على ما تُخبّئه ابنتا أختها بحرص شديد. في حال أُجبرت على الكلام، كيف سيُمكنها الاعتراف بأنّها فتحت الدرج عنوة؟ وإذا انكشفت مخالفتها، كلّهن سيخشين منها تجاوزات أخرى وهي، أميليا، لن تفوز سوى بكرههن جميعهن لها. أن تعرف بالصدفة أو بأيّ طريقة مشروعة أخرى لا ينال من سلطتها المعنوية، ولكن أن تستخدم مفتاحًا منسوخًا، وتلجأ إلى التزوير وتُبعد الأشخاص الذين يمكنهم منعها، فهذه قمّة الخساسة.

حملت أميليا المفاتيح بيدها وراحت تُصارع نفسها بين رغبتها في أن تعرف وإدراكها دناءة فعلتها. من يضمن أنّها لن تكتشف شيئًا من الأفضل لو يبقى طيّ الكتمان؟ إيساورا الآن صافية المزاج، أدريانا استعادت بهجتها، وكانديدا تحتفظ كالعادة بثقتها التامّة بابنتيها، بمعزل عن أفكار أميليا نفسها. وتبدو حياة النساء الأربع كأنّها تهمّ بالعودة إلى دروبها السابقة: هادئة، وادعة، مطمئنة. ألن يؤدّي انتهاك أسرار أدريانا إلى انعدام الطمأنينة؟ ألن يؤدّي كشف الأسرار إلى وضع تستحيل معالجته؟ ألن تنقلب كلّهن ضدّها؟ ومهما تكن ذنوب الشقيقتين الصغيرتين كبيرة، هل ستنجح نيّاتها في تبرئة اعتدائها على حقّ كلّ إنسان في حرّية الاحتفاظ بأسراره لنفسه؟

كانت كلّ هذه المثاليات قد اجتاحت أميليا من قبل وكانت قد ردّتها. لكن الآن وهي على قيد أنملة من فتح الدرج، عادت

بزخم أقوى من ذي قبل، بهبّة النشاط الأخيرة واليائسة التي يملكها المحتضر. نظرت إلى المفاتيح في باطن كفّها المفتوح، وبينما هي تُفكّر لاحظت، لا واعية، أن أصغرها حجمًا لا ينفعها، ففتحة القفل أكبر بكثير من أن يُطابقها. استمرّت المحاذير الأخلاقية في التضارب في ما بينها، وكلّ منها يريد الوصول إلى أميليا بسرعة وإقناعها قبل غيره. غير أنّه لا عزم فيها ولا أمل لها، وكلّها اصطدمت في النهاية بحائط مسدود. تناولت أميليا أحد المفتاحين الباقيين وأدخلته في فتحة القفل. رنين المعدن وصوت دوران المفتاح في الفجوة قضيا على آخر المحاذير. لكنّ المفتاح لم يعمل. من دون أن تلتفت أميليا إلى أنّه مازال لديها مفتاح آخر لتُجرّبه، أصرّت على استخدام هذا الذي بين يديها. جزعت وهي تشعر بأنّه يكاد يعلق وبدأت تظهر على جبينها قطرات من العرق. شدّت المفتاح بقوّة وعلى دفعات، يأخذها ذعر غير عقلاني، وتمكّنت من سحبه بمحاولة أشدّ عنفًا. لا شكّ في أنّ المفتاح الآخر هو المطلوب. لكنّ أميليا، بعد هذا الجهد، كانت منهكة مرتجفة الساقين وبحاجة إلى الجلوس على حافة سرير ابنة أختها. نهضت بعد مرور لحظات وكانت أكثر هدوءًا. أدخلت المفتاح الثاني وأدارته بتأنٍ. بدأ قلبها يضرب ضربًا أقوى، بخفقات عميقة شعرت معها بالدوار. ها هو المفتاح يدور والتراجع بات مستحيلاً. أوّل ما أحسّت به عندما فتح الدرج هو عطر صابون الخزامى. وقبل أن تسحب الأغراض التي تملأه، حرصت على أن تحفظ موضع كلّ منها. فوق كلّ شيء، منديلان طُرّز عليهما حرفان

عرفتهما فورًا. كانا لصهرها، والد أدريانا. إلى اليسار رزمة صور قديمة يلفّها شريط من المطّاط. وإلى اليمين صندوق أسود صغير، من دون قفل، تتخلّله عروق من الفضّة، وفي داخله بضع خرزات عقد، وبروش ينقصه حجران، وغصن صغير من زهر البرتقال (ذكرى من حفل زفاف فتاة عرفتها أدريانا) وأشياء قليلة غير هذه. في قاع الدرج صندوق أكبر حجمًا، مقفل. تجاهلت أميليا الصور، كانت أقدم من أن تهمّها. بكلّ تأنّ، وكي لا يتغيّر ترتيب الأغراض، سحبت الصندوق وفتحته بالمفتاح الأصغر حجمًا لتجد ما تبحث عنه: المفكّرة، وشيئًا آخر: رزمة رسائل ملفوفة بشريط بهت لونه الأخضر. لم تفكّ عقدة الشريط، فقد تعرّفت إلى هذه الرسائل، وكلّها من فترة السنتين ١٩٤١ و١٩٤٢، بقايا خطوبة لم تتكلّل بزواج أدريانا، خطوبتها الأولى والوحيدة. اعتبرت من غير المجدي الاحتفاظ بهذه الرسائل، بعد عشر سنوات من إنهاء العلاقة.

كانت أميليا تُفكّر في كلّ ذلك وهي تسحب المفكّرة من الصندوق. المظهر عادي لا شيء يُميّزه، فقد كانت عبارة عن دفتر كالذي يكتب فيه تلامذة المدارس. كانت أدريانا قد كتبت على الغلاف، بكلّ دقّة وبأفضل خطّ من يدها وإلى جانب اسمها على السطر المخصّص له، كلمة «مفكّرة» بالأحرف اللاتينية الكبيرة وبأسلوب قوطي، طفولي ومتقن في وقت واحد. تتصوّرها كانت تعضّ على لسانها حينما كتبته، كشخص يضع كلّ معرفته وحرفته في فنّ الخطّ. الصفحة الأولى مؤرّخة في ١٠ كانون الثاني/يناير ١٩٥٠، منذ أكثر من سنتين.

بدأت أميليا القراءة، لكنّها سرعان ما أدركت أنّها لم تجد ما يُثير الاهتمام. قفزت عشرات الصفحات وكلّها مكتوبة بالحرف العمودي حادّ الزوايا نفسه، حتّى وصلت إلى آخر يوم تناولته ابنة أختها في كتابتها. شعرت بأنّها وجدت شيئًا في الأسطر الأولى التي تتحدّث فيها أدريانا عن رجل. لاتذكر اسمه، بل تُشير إليه بضمير الغائب «هو». إنّه زميل لها، وتفهم هذا جيّدًا، لكن لا شيء يشي بالغلطة الكبيرة التي تبحث عنها أميليا. قرأت الصفحات السابقة مباشرة. وجدت شكاوى من اللامبالاة، ولمحات ثورة على ضعف من يُحبّ شخصًا لا يستحقّ، كما استخلصت، وكلّ ذلك يُمازجه ذكر حوادث من الحياة العائلية، وإثناء على الموسيقى التي تُسمع في المنزل، أي باختصار لا شيء يؤكّد شكوك أميليا. ثمّ وصلت بقراءتها إلى حين تتحدّث أدريانا عن زيارة أمّها وخالتها يوم ٢٣ آذار/مارس إلى قريباتهن في كامبوليدي. وقرأت أميليا بكلّ أناة: اليوم المضجر، غطاء السرير المطرّز... الاعتراف بالبشاعة... عزّة النفس... المقارنة مع بتهوفن، الذي كان أيضًا بشعًا وغير محبوب... «لو أنّي عشت في زمانه، لكنت قبّلت له قدميه، وأنا متأكّدة من أنّ أيّ امرأة جميلة لا يمكن أن تفعل ذلك». (مسكينة أدريانا، لكانت أحبّت بتهوفن، وقبّلت قدميه كأنّه إله...) ثمّ كتاب إيساورا... ووجه إيساورا بسروره وألمه... الألم الذي يمنح المتعة أو المتعة التي تُسبّب الألم... أميليا تقرأ وتُعيد القراءة. نشأ لديها حدس مبهم بأنّه هنا يكمن تفسير اللغز. وكفّت عن التفكير في وجود غلطة جسيمة. أدريانا تُحبّ رجلاً، لا

شكّ في ذلك، وهذا الرجل لا يُحبّها... «كيف يُثير غيرتي وهو لا يدري حتّى أنّه يُعجبني؟» حتّى لو أنّ أدريانا أخبرت أختها عن حبّها هذا، لما كانت قالت لها أكثر ممّا كتبت هنا. وحتّى لو كانت تخشى إفشاء سرّها، ولا تكتب في مفكّرتها كلّ ما يحصل معها، لما قالت إنّ «هو» لا يُحبّها. مهما تكن صراحتها ناقصة في كتابتها، فهي لن تُخفي كلّ الحقيقة. وإلّا فما الجدوى من المفكّرة؟ المفكّرة متنفّس، ومع ذلك كان المتنفّس الوحيد الذي تضمّه مفكّرة أدريانا كلامها عن ألم حبّ من طرف واحد، والأسوأ من ذلك، لا يعرف الطرف الآخر بوجوده. أين يختبئ إذًا سبب الفتور والتباعد بين الشقيقتين؟

تابعت أميليا قراءتها، عائدةً بالزمن إلى الخلف. التأفّفات نفسها، الروتين في العمل، حكاية خطأ في مجموع مبلغ ما، والموسيقى، وأسماء مؤلّفين موسيقيين، والخلافات بين الأمّ والخالة، وغضبها المتعلّق بموضوع راتبها... احمرّ وجه أميليا عندما قرأت رأي ابنة أختها بها: «الخالة أميليا عدائية الطبع اليوم...». لكنّها تأثّرت بحنان بما تبع: «أحبّ خالتي. أحبّ أمّي. أحبّ إيساورا». ومن جديد بتهوفن، وقناع بتهوفن، إله أدريانا... ويعود «هو» حاضرًا دائمًا وبلا جدوى... صفحات أكثر إلى الوراء: أيّام، أسابيع، أشهر. هنا تختفي الشكوى ونُصادف الحبّ الجديد الذي يولد غير واثق بنفسه وفي وقت مبكر على عدم التأكّد من شعور «هو». أمّا الصفحات التي تسبق ظهور «هو» فلا تتعدّى كونها كلامًا عن أمور عادية جدًّا.

هكذا، والدفتر مفتوح وملقى فوق ركبتيها، أحسّت أميليا بنفسها راضية محقّقة ما سعت إليه، إذ لم يكن هناك ما يستحقّ النكد أو الخوف أو القلق. جلّ ما هناك حبّ مستور، منطوٍ على نفسه، وفاشل كالحبّ الذي تحفظه رزمة الرسائل المحزّمة بالشريط الأخضر. فإذًا، أين السرّ؟ ما السبب وراء دموع إيساورا وتكتّم أدريانا؟

عادت إلى تصفّح الدفتر حتّى وقعت تحت نظرها ومن جديد صفحة ٢٣ مارس: كانت عينا إيساورا حمراوين... وكأنّها بكت... وبدت عصبية... الكتاب... المتعة ـ الألم أو الألم ـ المتعة...

أتراه هنا يكمن التفسير؟ أعادت الدفتر إلى الصندوق. أقفلته. أقفلت الدرج. لم يعد هناك ما يُمكن سحبه منه. وبالنهاية، لم يكن لأدريانا أيّ أسرار. ولكن يوجد سرّ ما. أين يا ترى؟

كلّ الطرقات مسدودة. الكتاب... ما هي آخر رواية قرأتها إيساورا؟ بدت ذاكرة أميليا كأنّها هي أيضًا مسدودة، وكلّ الأبواب موصدة. ثمّ فتحت فجأة وبدأت تظهر لها أسماء مؤلّفين وعناوين روايات. لكن لم تجد في أيّ منها ما يهمّها. احتفظت الذاكرة بباب مغلق، باب بقي مفتاحه ضائعًا. أميليا تتذكّر كلّ شيء. الكتاب الصغير الملفوف والملقى على طاولة الراديو. يومها ذكرت إيساورا ماذا يروي ومن المؤلّف. ثمّ تذكّرت أيضًا أنهن استمعن إلى موسيقى «رقصة الأموات» لهونيغر، وتذكّرت موسيقى الجيران التي تصمّ الآذان ونقاشها مع أختها كانديدا.

لكن... ربّما تكون أدريانا كتبت عن الأمر في المفكّرة. عادت وفتحت الدرج، فتّشت عن النهار المطلوب وعثرت عليه فوجدت هونيغر و«هو». لا شيء آخر.

أغلقت الصندوق من جديد ونظرت إلى المفاتيح في باطن يدها. خجلت من نفسها. فقد ارتكبت، نعم، الآن هي ارتكبت خطأ جسيمًا. عرفت ما لم يجدر بها أن تعرفه: حبّ أدريانا المحبَط.

خرجت من الغرفة إلى المطبخ وفتحت زجاج الشرفة الناتئة. مازالت الشمس عالية مشرقة. والسماء مشرقة، والنهر مشرق. وفي البعيد تلوح تلال الضفة المقابلة، بلون يميل إلى الأزرق بحكم المسافة. لفّت إميليا سحابة من الحزن وشعرت بالغصّة في حلقها. هكذا هي الحياة، حياتها، حزينة وخافتة. الآن هي تحمل سرًّا عليها أن تحفظه وتسكت عنه. ضغطت على المفاتيح بشدّة ونظرت إلى الأبنية المقابلة بأسطحها الأكثر انخفاضًا. رأت على أحدها قطّتين منبطحتين تحت أشعّة الشمس، وبيد حازمة، رمت مفاتيحها من دون تردّد، الواحد تلو الآخر.

هربت القطّتان أمام هذا القصف غير المتوقّع. دارت المفاتيح فوق السطح المنحني ثمّ وقعت في المزراب. انتهينا. وفي هذه اللحظة بالذات فكّرت أميليا في أنّه بقي أمامها احتمال أخير: أن تفتح درج إيساورا. لكن لا، من دون فائدة. إيساورا لا تملك مفكّرة، وحتّى لو كانت تملكها... فجأة شعرت بالتعب. رجعت إلى المطبخ،

جلست على أحد المقاعد وبكت، مغلوبًا على أمرها. لقد لعبت وخسرت. ولحسن الحظّ أنّها خسرت، فهي لم تعرف ولا تُريد أن تعرف. وحتّى لو تذكّرت عنوان الرواية، فلن تذهب لاستعارتها من المكتبة العامّة وقراءتها. ستبذل كلّ ما في وسعها كي لا تتذكّر، وإذا ما فُتح باب الذاكرة الموصد، ستعود وتقفله بكلّ المفاتيح التي تجدها أمامها، باستثناء النسخ التي قذفت بها بعيدًا... المفاتيح المنسوخة... والأسرار المنتهكة... ولّى عهدها، انتهت. وخزيها الآن أكبر من أن يُتيح لها إعادة الكرّة.

مسحت دموعها ونهضت، فعليها أن تُعدّ العشاء. اقتربت إيساورا وأمّها من العودة وستستغربان التأخّر في تحضير الطعام. ذهبت إلى غرفة الطعام لتجلب الأواني التي تحتاج إليها، فلمحت فوق الراديو برامج الإذاعة الوطنية لهذا الأسبوع. تذكّرت أنّها منذ زمن لم تسمع الموسيقى كما يجب أن تُسمع. أخذت النشرة بيدها، فتحتها، وبحثت عن برنامج اليوم. أخبار، مؤتمرات، وموسيقى... فجأةً تسمّرت الدهشة في عينيها على أحد السطور: قرأت الكلمات وأعادت قراءتها. وبقيت عيناها مثبّتتين على نقطة معيّنة في الفضاء وكأنّهما في انتظار إلهام ما. وجاء الإلهام.

خلعت المريلة بسرعة وانتعلت حذاءها ولبست سترتها. ثمّ فتحت درجها الخاصّ وأخرجت منه قطعة مجوهرات: دبّوسًا من الذهب، قديمًا، يحمل شكل زنبقة. كتبت على وريقة: «اضطررتُ إلى الخروج. أنتما أعدّا الطعام. لا تخافا، لا شيء يدعو إلى القلق. أميليا».

عندما رجعت مع هبوط الليل، متعبة تكاد لا تحملها رجلاها، كانت تحمل رزمة وضعتها في غرفتها. ورفضت أن تُوضّح سبب خروجها المفاجئ من البيت. لاحظت كانديدا:

ـ لكنّك تعودين منهكة...

ـ صحيح.

ـ هل حصل شيء؟

ـ هذا سرّ، حتّى الآن.

جلست على كرسيّ، نظرت إلى أختها مبتسمة، ومبتسمة نظرت إلى إيساورا وأدريانا. كان في نظرتها من العذوبة والحنان ما أثّر في مشاعر ابنتي أختها. أعادتا طرح الأسئلة، لكنّها وبكلّ صمت هزّت رأسها نافية بالنظرة ذاتها والابتسامة ذاتها.

تناولن العشاء وبعدها حان وقت السهرة. بعض الأعمال الصغيرة، ودقائق تمرّ بطيئة، ودودة خشب تنخر في مكان ما، والمذياع الصامت.

نهضت أميليا حوالى الساعة العاشرة فسألتها أختها:

ـ ستذهبين إلى النوم؟

من دون أن تُجيب، أدارت المذياع، فامتلأ البيت بالأصوات، أصوات تولد من آلة أرغن وتجري مثل تيّار لا يتوقّف. رفعت كانديدا وابنتاها رؤوسهن باستغراب، وكان في تعابير أميليا ما يُثير الفضول.

الابتسامة ذاتها، النظرة ذاتها. بعدئذٍ، ومثل كاتدرائية تنهار، سكت الأرغن بعد صدح وردح من العصر الباروكي. صمت لثوان قبل أن يستأنف المذيع تقديم البرامج المتبقّية. صرخت أدريانا:

ـ السمفونية التاسعة! هذا رائع خالتي.

وصفّقت مثل بنت صغيرة.

كلّهن أصلحن جلوسهن في كراسيهن. غادرت أميليا الصالون وعادت بعد لحظات مع بداية الحركة الأولى من السمفونية. كانت تحمل الرزمة بيدها لتضعها فوق الطاولة. نظرت إليها أختها متسائلة. ذهبت إلى أحد الجدران ورفعت عنه لوحة تُزيّنه وهي متمهلة، كما لو أنّها تؤدّي طقسًا ما، فتحت غلاف ما تحمله. ثمّ تابعت الموسيقى بعدما أُهملت قليلاً، وصوت الورق يمنع من الاستمتاع بها. حركة أخرى ووقع الورق على الأرض ليظهر قناع بتهوفن. وكأنّها نهاية فصل مسرحي. لكن الستارة لم تُسدل. نظرت أميليا إلى أدريانا وراحت تشرح لها وهي تُعلّق القناع على الجدار:

ـ منذ فترة وأنا أسمعك تقولين ما يدلّ على رغبتك في اقتناء هذا القناع... وهذه هي المفاجأة.

ـ خالتي حبيبتي!

وسألت كانديدا:

ـ لكن... لكن، النقود!

فأجابتها أختها:

ـ هذا لا يهمّ. إنّه سرّ.

أمام هذه الكلمة، اختلست أدريانا وإيساورا نظرة إلى خالتهما. ولكن لم يعد في عينيها هي من أثر لأيّ شكوك. كانتا تحملان فقط حنانًا وافرًا، حنانًا يتبدّى من خلال شيء يشبه الدموع، لو أنّ الخالة أميليا من الذين يبكون أمام الآخرين...

****

٣٥

ـ تأخّر أبيل. هل أضع العشاء الآن؟

ـ لا، لننتظر قليلاً بعد.

تنهّدت ماريانا:

ـ قد لا يأتي. نحن شخصان في انتظار شخص واحد...

ـ لو كان لن يأتي للعشاء، لأعلمَنا. لكن إذا كنت لا تريدين الانتظار، تناولي عشاءك. أنا لا أحسّ بالجوع.

ـ ولا أنا.

عندما فتح الباب، انتفض كلاهما. وعندما دخل أبيل، سأله سيلفستري:

ـ كيف سارت الأمور؟

ـ لا شيء.

ـ ألم تُوفّق؟

سحب الشابّ كرسيًا منخفضًا صوبه وجلس:

ـ قصدت المكتب. قلت للساعي إنّني أحد زبائنهم وأريد

التحدّث إلى المدير موررايس. أدخلوني إحدى القاعات ولم يلبث أن أطلّ حضرته. عندما أخبرته عن سبب زيارتي، قرع جرسًا، فدخل الساعي وطلب منه أن يوصلني إلى الباب. على الرغم من كلّ ذلك حاولت أن أتكلّم، أن أشرح له، لكنّه أدار ظهره وخرج. التقيت في الممرّ بالفتاة المقيمة في الطابق الثاني فرمقتني بنظرة ازدراء. وفي النهاية ألقوا بي إلى الشارع.

ضرب سيلفستري بقبضة يده على المائدة:

ـ رجل من الرعاع.

ـ هكذا وصفني عندما اتّصلت به في بيته. اتّهمني بأنّي من الرعاع وأقفل الخطّ.

سألت ماريانا:

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك؟ لو لم يكن في سنّه هذه لناولته صفعتين. لكن في هذا الوضع، لا أستطيع...

نهض سيلفستري وراح يذرع المطبخ بخطوات سريعة.

ـ هذه الحياة... هذه الحياة كومة نفايات. مجرّد تفاهة. ألا يوجد الآن أيّ حلّ؟

ـ لا أعتقد. سأفعل ما عليّ فعله.

كبح سيلفستري فجأةً مسيرة إيابه وذهابه.

ـ ما عليك فعله؟ لا أفهم...

ـ بكلّ بساطة، لا يسعني البقاء هنا. كلّ الجيران يعرفون ما جرى، وبقائي هنا سيكون قمّة الوقاحة. إضافةً إلى أنّه طبيعي ألّا تشعر ليديا بالراحة وهي تعرف أنّي لا أزال هنا وتسمع ما يتداوله الجيران.

ـ ماذا؟ أتريد أن ترحل؟

ابتسم أبيل ابتسامة متعبة بعض الشيء:

ـ أريد أن أرحل؟ لا، لا أريد، ولكن ينبغي عليّ. لقد وجدت غرفة، وغداً سأنتقل إليها... لا تنظرا إليّ بهذه النظرات، أرجوكما...

كانت ماريانا تبكي. تقدّم سيلفستري نحو أبيل ووضع يديه على كتفيه. أراد أن يقول شيئًا لكنّه عجز عن الكلام.

ـ ماذا؟ ما الأمر؟ قال الشابّ.

اصطنع سيلفستري ابتسامة وقال:

ـ لو كنت أنا امرأة، لبكيت أيضًا. لكني لست امرأة... لست...

ثمّ استدار ناحية الجدار، كأنّه لا يريد أن يرى أبيل وجهه. قام الشابّ وأعاده:

ـ ماذا؟ هل سنبكي كلّنا الآن؟ هذا لا يليق بنا...

شهقت ماريانا وقالت:

ـ يؤلمني جدًّا أن تغادر... اعتدنا عليك. أنت الآن فرد من العائلة...

سمعها أبيل وتأثّر. نظر إلى كلّ منهما وسأل بهدوء:

ـ لنتحدّث بصراحة. هل تعتقدان أنّه يجب أن أبقى؟

تردّد سيلفستري للحظة وأجاب:

ـ لا.

التفتت المرأة بسرعة وقالت:

ـ سيلفستري! لِم لا تقول نعم؟ لعلّه يبقى...

ـ أنت لا تُفكّرين. أبيل على حقّ. سنحزن كثيرًا، لكن ماذا عسى أن نفعل؟

مسحت ماريانا عينيها وأنفها. حاولت أن تبتسم:

ـ لكن ستأتي لزيارتنا بين الحين والآخر. أليس كذلك سيّد أبيل؟

ـ فقط إن أعطيتني وعدًا...

ـ ما هو؟ أنا أعدك بكلّ ما تطلب...

ـ أن تكفّي نهائيًا عن مناداتي سيّد أبيل، قولي أبيل، من دون ألقاب. اتّفقنا؟

ـ اتّفقنا.

ثمّ جلسوا، سعداء حزينين في وقت واحد. سعداء بحبّ أحدهم الآخر، حزينين بسبب الفراق القريب. إنّه العشاء الأخير الذي يجمعهم. لا شكّ في أنّه ستلحقه عشاءات أخرى، بعدما تستقيم الأمور ويمكن لأبيل أن يعود، لكن سيكون لها طعم مختلف. لن يكون العشاء اجتماعًا بين ثلاثة يعيشون تحت سقف واحد، يتشاركون الأفراح والأحزان، مثل الخبز والملح. والتعويض الوحيد يكمن في الحبّ، ليس في الحبّ الملزِم مثل الرابط العائلي والقرابة، الذي كثيرًا ما تحوّله الأعراف إلى عبء ثقيل مفروض على المرء، بل هو الحبّ العفوي الذي يُغذّي نفسه بنفسه.

بعد انتهاء العشاء، وبينما ماريانا تغسل الأطباق، دخل أبيل ليحضّر حقائبه مع سيلفستري. أنهَيا المهمّة بسرعة، وانهار الشابّ فوق سريره متنهّدًا. سأله السكّاف:

ـ هل أنت حزين؟

ـ طبيعي. كما لو أنّ الأذى الذي نُحدثه عمدًا لا يكفي للتسبّب باضطرابنا... فإنّ مجرّد وجودنا يمكن أن يتحوّل إلى أذى كما ترى.

ـ أو إلى فائدة.

ـ في هذه الحال، لم يكن مفيدًا. لو أنّي لم آتِ للسكن في منزلك، ربّما ما كان هذا ليحدث.

ـ ربّما... لكن إن كان الشخص الذي كتب الرسالة مصمّمًا على

كتابتها، لكان وجد أيّ طريقة للوشاية. أنت كنت الذريعة المناسبة لهذا الغرض، مثل أيّ ذريعة أخرى.

ـ كلامك صحيح. لكنّ الأمر حصل معي...

ـ معك أنت، وقد اتّخذت أفضل الحيطة، وقطعت جميع الأذرع.

ـ لا تسخر.

ـ أنا لا أسخر. قطع الأذرع لا يكفي. أنت سترحل غدًا، ستختفي قاطعًا ذراعًا أخرى. لكن الذراع ستبقى هنا، في الصداقة التي أكنّها لك، وفي التحوّل الذي طرأ على حياة السيّدة ليديا.

ـ كما قلت لك. مجرّد أن نحيا قد يكون سببًا للأذى.

ـ بالنسبة إليّ كان أمرًا حميدًا. تعرّفت إليك وغدوت صديقًا لك.

ـ وماذا كسبت بذلك؟

ـ الصداقة. وهل هذا قليل برأيك؟

ـ لا طبعًا...

لم يردّ سيلفستري. قرّب الكرسيّ من السرير وجلس. سحب علبة التبغ والورق من جيب صدريّته ولفّ سيجارة. نظر إلى أبيل من خلال سحابة الدخان التي ترتفع وهمس، كمن يتلاعب:

ـ مشكلتك يا أبيل أنّك لا تحبّ.

ـ أنا صديق؛ والصداقة نوع من الحبّ.

ـ صحيح...

حلّ صمت ثانٍ لم يكفّ خلاله سيلفستري عن النظر إلى الشابّ الذي سأله:

ـ فيمَ تفكّر؟

ـ في نقاشاتنا القديمة.

ـ لا أرى ما العلاقة...

ـ كلّ شيء متعلّق بالأشياء الأخرى... عندما قلت لك إنّ مشكلتك في أنّك لا تحبّ، هل حسبتني أقصد حبّ امرأة؟

ـ هذا ما اعتقدته. أنا في الواقع أُعجبت بكثيرات، لكنّي لم أحبّ أيًّا منهن. أنا جافّ القلب.

ابتسم سيلفستري:

ـ في عمر الخامسة والعشرين؟ أنت تُضحكني، انتظر إذًا متى تصبح في مثل سنّي.

ـ سنرى. إذاً لم تكن تقصد حبّ امرأة؟

ـ لا.

ـ ماذا إذًا؟

ـ نوعًا آخر من الحبّ. ألم تشعر مرّة وأنت في الشارع برغبة مفاجئة في عناق الأشخاص المحيطين بك؟

ـ إذا كنت تبحث عن الفكاهة، دعني أقلْ إنّ رغبتي كانت في معانقة النساء، وليس دائمًا، وليس كلّهن... ولكن مهلاً... لا تغضب. لا، لم يحصل معي شيء مماثل، صدقًا.

ـ هذا هو الحبّ الذي كنت أعنيه.

عدّل أبيل جلوسه مستندًا إلى ساعديه ونظر بفضول إلى السكّاف:

ـ أتعرف أنّك تصلح لأن تكون واحدًا من الرسل؟

ـ لست بمؤمن، إن كان هذا ما ترمي إليه. أم أنّك تعتبرني ليّنًا متراخيًا؟...

اعترض الشابّ قائلًا:

ـ لا مطلقًا.

ـ إن كنت تظنّ أنّ هذا ناجم عن الشيخوخة، فهذا يعني أنّي كنت دائمًا كهلاً. أنا دائمًا فكّرت وشعرت بالطريقة ذاتها. وإن كنت اليوم أؤمن بشيء ما فبالحبّ، بهذا النوع من الحبّ.

ـ جميل...، جميل أن أسمع منك هذا الكلام. لكنّها يوتوبيا، عالم مثالي. وتناقض أيضًا. ألم تقل منذ لحظات إنَّ العالم ركام من النفايات؟

ـ أنا لا أتراجع عن كلامي. الحياة هي ركام من النفايات لأنّ بعضهم يريدونها على هذا النحو. وهؤلاء كان لديهم، ولا يزال، من يخلفهم.

جلس أبيل فوق السرير، فقد بدأت المحادثة تُثير اهتمامه:

ـ وهل ستعانق هؤلاء أيضًا؟

ـ لست ليّنًا إلى هذه الدرجة. كيف يسع المرء أن يحبّ المسؤولين عن انعدام الحبّ بين الناس؟

أيقظت هذه الجملة الزاخرة بالمعنى بعضًا من ذاكرة أبيل:

ـ *Pas de liberté pour les ennemis de la liberté ...*

ـ لا أفهم. كأنّه كلام فرنسي، لكنّي لم أفهم معناه...

ـ هذه عبارة لسان جوست، أحد شخصيات الثورة الفرنسية. ومعناها تقريبًا أنّه يجب ألّا تُمنح الحرّية لأعداء الحرّية. وإن شئنا تطبيقها على موضوعنا، تصبح أنّه يجب أن نكره أعداء الحبّ.

ـ صحيح ما قاله صاحبك...

ـ سان جوست.

ـ تمامًا. ألا توافقني؟

ـ بالنسبة إلى العبارة أم الباقي؟

ـ كلا الأمرين معًا.

بدا أبيل كأنّه يمعن التفكير ثمّ أجاب:

ـ بالنسبة إلى العبارة، أنا موافق. لكن بالنسبة إلى الباقي... بصراحة لم ألتقِ شخصًا يسعه كلّ هذا الحبّ. هذا وقد عرفت كثيرًا من الناس، ولا أدري من منهم أسوأ معاملة للآخر. قد يكون الإنسان الذي يسكنك استثناء، وليس بسبب ما قلته لي، بل من خلال ما أعرفه عنك من حياتك. أفهم كيف أنّك قادر على كلّ هذا الحبّ، ولكن أنا لست بقادر. أنا تلقّيت الكثير من الضربات، وعانيت الكثير. لذلك لن أفعل كمن يعطي خدّه الأيسر لمن صفع خدّه الأيمن...

قاطعه سيلفستري متوقّدًا:

ـ ولا أنا. كنت في ما مضى مستعدًّا لقطع يد من يعتدي عليّ.

ـ لو اختار كلّ الناس هذا التصرّف، لما بقي أحد في الدنيا ويداه معه. من يتلقّى ضربة، إذا لم يضرب بعد، فسيضرب يومًا ما، عندما تسنح له الفرصة.

ـ يُسمّون هذه الطريقة في التفكير تشاؤمًا، ومن يُفكّر هكذا يكون مساندًا للذين يريدون انعدام الحبّ بين البشر.

ـ عذرًا إن كان كلامي يُزعجك، لكنّ هذا كلّه يوتوبيا، والحياة هي صراع بين الذئاب، في كلّ زمان ومكان. «ومن يستطيع فليُخلّص نفسه» لا أكثر. الحبّ هو شعار الضعفاء، والحقد هو روح الأقوياء. المرء يكره خصومه، ومنافسيه، والمرشّحين للحصول على قطعة الخبز نفسها، أو قطعة الأرض، أو بئر البترول. والحبّ يُستخدم

كدعابة أو كفرصة للأقوياء كي يستفيدوا من ضعف الضعفاء. وجود الضعفاء مفيد بصفته ملاذًا، يخدم كصمام للهرب.

كأنّ بسيلفستري لم يفهم المقارنة، فبقي يرمي أبيل بنظرته الجادّة. ثمّ ابتسم فجأةً وسأل:

ـ وأنت إلى أين تنتمي؟ إلى معسكر الأقوياء أم فريق الضعفاء؟

أحسّ الشابّ وكأنّه ضُبط متلبّسًا بذنب ما:

ـ أنا؟ غدرني هذا السؤال...

ـ سأساعدك. إذا كنت من الأقوياء، فلِم لا تفعل مثلهم؟ وإذا كنت من الضعفاء، فلِم لا تفعل مثلي؟

ـ لا تبتسم وكأنّك المنتصر. أعود وأقول لك: سؤالك مشكوك بأمره.

ـ لكن أجبني عليه.

ـ لا أعرف الجواب. قد يوجد صنف في الوسط. من جهة هناك الأقوياء، من جهة ثانية الضعفاء؛ وفي الوسط أنا و...

كفّ سيلفستري عن الابتسام. ثبّت نظره عليه وبادله الآخر نظرته، على مهل، مستعدًّا لأن يعدّ كلّ عباراته على أصابع يده:

ـ إذًا أنا سأقول لك. أنت لا تعرف ما تريد، لا تعرف إلى أين تتّجه، ولا تعرف ما لديك.

ـ باختصار، أنا لا أعرف شيئًا.

ـ ليس وقت المزاح. ما أقوله لك مهمّ جدًّا. عندما قلت لك منذ فترة إنّ عليك أن تكتشف بنفسك...

قاطعه أبيل مسرعًا:

ـ كيف أكون نافعًا، أعرف.

ـ عندما قلت لك ذلك لم أكن أحسب أنّك سترحل بهذه السرعة. كذلك قلت لك إنّه لا يسعني أن أسدي إليك النصيحة. وما زلت عند كلامي. لكن إن أنت ذهبت غدًا، ربّما لن نعود ونلتقي مجدّدًا... وإن كنت لا أستطيع نصحك، فعلى الأقلّ أظنّ أنّه يمكنني أن أقول لك إنّ الحياة من دون حبّ، الحياة كما وصفتَها منذ برهة، هي ركام من النفايات، أو مستنقع.

نهض أبيل متحمّسًا:

ـ هي هكذا تمامًا سيّدي. وماذا بيدنا أن نفعل؟

ـ أن نُبدّلها! أجاب سيلفستري، وهو ينهض أيضًا.

ـ كيف؟ بأن نحبّ بعضنا البعض؟

تلاشت ابتسامة أبيل وهو يرى التعبير الجادّ على محيّا سيلفستري:

ـ صحيح، وليكن حبًّا خالصًا وفاعلاً، حبًّا يقهر البغض.

ـ لكن الإنسان...

ـ اسمع أبيل: عند الحديث عن الإنسان، تذكّر أيضًا البشر،

الأشخاص. الإنسان، بصفته المطلقة، كما تراه أحيانًا في الصحف، هو كذبة، كذبة تُستخدم كغطاء لكلّ الأعمال الشنيعة. العالم بأسره يريد أن يُخلّص الإنسان، لكن لا أحد يريد أن يعرف شيئًا عن البشر.

رفع أبيل كتفيه، في إشارة يائسة. هو يرى الحقيقة في كلمات سيلفستري الأخيرة، وقد خطرت له الفكرة ذاتها أكثر من مرّة، لكن لم يكن عنده هذا الإيمان. سأل صديقه:

ـ وماذا يمكن أن نفعل نحن؟ أنا؟ أنت؟

ـ أن نعيش بين البشر، أن نساعد الأشخاص.

ـ وأنت ماذا تفعل لمساعدتهم؟

ـ أصلح لهم أحذيتهم، بما أنّه لا يسعني فعلِ شيء آخر الآن. أنت شابّ، وذكيّ، وتحمل بين كتفيك رأسًا يُفكّر... افتح عينيك وسترى، وإذا لم تفهم حتّى بعد ذلك، فالأجدر أن تجلس في بيتك وتقفل على نفسك إلى أن ينهار العالم فوق رأسك.

كان صوت سيلفستري قد ارتفع في هذه اللحظات. شفتاه ترتجفان من انفعال لم يستطع كتمانه. كان الرجلان يقفان متواجهين وعينا أحدهما في عيني الآخر. بينهما يجري دفق من الفهم المتبادل، من الأفكار التي تتناقل بين الطرفين بصمت أبلغ من كلّ الكلام. همس أبيل وعلى فمه ابتسامة تكلّفها:

ـ يجب أن تقرّ معي أنّ في ما تقوله بعض المغالاة...

ـ أهذا ما تعتقده؟ لا أظنّ. إذا كان ما أقول مغاليًا، فكلّ شيء

مغالٍ. أجلس وأفكّر تمامًا كما أتنفّس، بالفطرة ذاتها، بالضرورة ذاتها. إن كان الناس يكرهون بعضهم، لا يمكن فعل شيء. سنكون كلّنا ضحايا الأحقاد. كلّنا سنقتل ونُقتل في حروب لا نرغب فيها ولا نتحمّل أيّ مسؤولية عنها. ستوضع عصبة على أعيننا وتُحشى آذاننا بالكلام. لِم كلّ ذلك؟ لزرع بذار حروب جديدة، لاستحداث أحقاد جديدة، ولوضع عصبات جديدة وتأليف كلام جديد. ألهذا نعيش؟ لننجب الأبناء ثمّ نقذف بهم إلى المعركة؟ لنبني المدن ثمّ نمسحها؟ لنتمنّى السلام ثمّ نُقيم الحرب؟

ـ وهل سيُقدّم الحبّ الحلول لكلّ هذه المسائل؟

كان هذا سؤال أبيل، تصاحبه ابتسامة حزينة، يُستشفّ منها أيضًا بعض من سخرية.

ـ لا أدري. هذا هو الوضع الوحيد الذي لم نختبره حتّى الآن...

ـ وهل سيتسنّى لنا هذا الاختبار؟

ـ محتمل. إذا اقتنع الذين يتعذّبون أنّ هذه هي الحقيقة، قد يتسنّى لنا ذلك...

قال سيلفستري وتوقّف، كما لو أنّ فكرة هبطت فجأةً واجتاحت تفكيره، ثمّ تابع:

ـ إنّما لا تنسَ يا أبيل: يجب أن نُحبّ حبًّا صافيًا وفاعلًا. وألّا نُهمل الصفاء لصالح الفعل، أو يدفعنا الفعل إلى ارتكاب الأذى

كالذين يريدون انعدام الحبّ بين البشر. نعم نُريده حبًّا فاعلًا، ولكن أيضًا خالصًا، خالصًا ومجرّدًا قبل أي شيء.

مثل نابض ينكسر من فرط الشدّ، هدأت الحماسة، ابتسم سيلفستري:

ـ تكلّم السكّاف. لو أنّ شخصًا آخر سمعني لقال»: لا بأس بكلامه كسكّاف. تراه يكون دكتورًا متنكّرًا؟».

وبدوره، ضحك أبيل وسأل:

ـ تراك دكتورًا متنكّرًا؟

ـ لا، أنا فقط رجل يُفكّر.

سار أبيل بضع خطوات في غرفة النوم، بصمت. جلس فوق الحقيبة التي تلمّ له كتبه ونظر إلى السكّاف. بدا على سيلفستري الالتباس وهو يلفّ أوراق التبغ. تمتم الشابّ:

ـ رجل يُفكّر...

رفع السكّاف عينيه، بنظرة متسائلة. وتابع أبيل كلامه:

ـ كلّنا نُفكّر. لكن يحدث أنّنا نُخطئ التفكير في أغلب الحالات. أو بالأحرى توجد هوّة بين ما نفكّر فيه وما نفعله... أو فعلناه...

ردّ سيلفستري:

ـ لا أفهم إلى أين تريد الوصول.

ـ المسألة بسيطة. عندما رويت لي قصّة حياتك، وُلد لديّ شعور أكيد بعدم جدواي، وهذا آلمني. في هذه اللحظة أحسّ بشيء ما يعوّضني. ففي النهاية يا صديقي، أنت عالق في سلوك يشبه سلوكي بسلبيته أو ربّما هو أكثر سلبية. عمليًا أنت لست بأكثر جدوى منّي...

ـ أعتقد أنّك أسأت فهمي، أبيل.

ـ بل فهمتك جيّدًا. ما تحمله من أفكار يفيدك فقط لإقناع نفسك بأنّك أفضل من الآخرين.

ـ أنا لا أعتبر نفسي متفوّقًا على أحد.

ـ بلى. لديّ يقين بأنّك تعتبر نفسك هكذا.

ـ أعطيك كلمتي.

ـ طيّب. أصدّقك. في جميع الأحوال هذا لا يهمّ. المهمّ أنّه عندما كان بإمكانك العمل لم تكن تفكّر بهذه الطريقة، كانت معتقداتك مختلفة. اليوم ومع اضطرارك إلى السكوت بحكم السنّ والظروف، تحاول خداع نفسك بهذا الحبّ شبه الملائكي. ويل للإنسان الذي عليه استبدال أفعاله بأقواله! لن يسمع غير صوته... كلمة «العمل» في فمك يا صديقي، ما هي إلّا ذكرى، كلمة خاوية...

ـ لا ينقص إلّا أن تقول لي إنّي لست صادقًا.

ـ لا أبدًا، ليس هذا ما قصدت. لكنّك فقدت التماسّ مع الحياة،

أنت مقتلع من جذورك، تخال أنّك ما زلت في المعركة، بينما الواقع أنّ ما تحمله بيدك ليس إلّا ظلّ سيف، ولا يوجد حواليك إلّا ظلال مبارزين...

ـ منذ متى وهذا رأيك بي؟

ـ منذ خمس دقائق. بعد كلّ ما عشته وها أنت تقع في الحبّ!

لم يردّ سيلفستري. لفّ السيجارة بيدين مرتجفتين وأشعلها. بينما أكمل أبيل:

ـ وصفتني بالمتشائم واتّهمتني بأنّي بتشاؤمي أساعد أولئك الذين يريدون انعدام الحبّ بين البشر. لن أقول إنّك غير محقّ، لكن سأطلب منك أن تلاحظ أنّ موقفك، المحايد بامتياز، لا يتوانى عن مساعدتهم هو الآخر لأنّ هؤلاء الذين تُشير إليهم يستخدمون أيضًا، وتقريبًا على الدوام، لغة الحبّ. الكلام ذاته، كلامك وكلامهم، يُعلن أو يخفي أهدافًا مختلفة. بل أستطيع الجزم أنّ كلماتك تخدم فقط ما يرمون هم إليه، لأنّي لا أعتقد أنّك تملك أنت اليوم هدفًا محدّدًا. أنت ترضى بأن تؤكّد: «أحبّ البشر» وتكتفي، ناسيًا أنّ ماضيك يتطلّب أكثر من مجرّد تأكيد. أخبرني من فضلك، بِمَ يمكن أن تهمّ العالم جملة كهذه، ولو تفوّه بها ملايين الناس، إذا ما بقي ينقص كلّ هذه الملايين كلّ الوسائل اللازمة لأخذ عبارتهم إلى أبعد من كونها دافعًا انفعاليًا.

ـ أنت تتكلّم بطريقة أكاد لا أفهمها... هل نسيت ما قلته لك عن الحبّ الخالص والفاعل؟

ـ عبارة جميلة أخرى. أرني أين هو فعلك؟ أين هو فعل كلّ الذين يفكّرون مثلك ولا يملكون حجّة الكبر في السنّ للاعتذار عن عدم فعاليتهم؟ من هم؟

ـ حان الآن دورك في إسداء النصائح لي...

ـ لا أدّعي ذلك، فالنصائح لا تُجدي نفعًا. أليس هذا ما قلته؟ ولكن تتراءى لي حقيقة واحدة: المثل الأعلى، والأمل الأكبر الذي تحدّثني عنه لن يكونا أكثر من مجرّد كلام إن نحن أردنا تجسيدهما بلجوئنا فقط إلى الحبّ.

ابتعد سيلفستري نحو إحدى زوايا الغرفة ومن هناك، سأل فجأةً:

ـ ماذا ستفعل؟

لم يردّ الشابّ في الحال. وفي الصمت الذي تلا كلمات سيلفستري كان يُسمع غناء بأصوات متعدّدة لا يُعرف مصدره. ثمّ أجاب أبيل:

ـ لا أدري. أنا في الوقت الحالي غير نافع، أقبل اتّهامك، لكنّي أفضّل عدم الجدوى المؤقّت هذا على الدور النافع المفترض أنّ سلوكك يؤدّيه.

ـ انقلبت الأدوار، أنت الآن تنتقدني.

ـ لا أنتقدك. ما تقوله عن الحبّ جميل جدًّا، لكنّه لا يفيدني.

ـ نسيت أنّه يوجد بيننا فارق أربعين سنة... لا تستطيع أن تفهمني.

ـ كذلك سيلفستري قبل أربعين سنة ما كان ليفهم سيلفستري الحالي يا صديقي.

ـ تقصد أنّ الكبر في العمر هو ما يدفع إلى هذا التفكير؟

ابتسم أبيل وقال:

ـ ربّما. العمر يُغيّر كثيرًا. يحمل معه الخبرة، ولكن التعب أيضًا.

ـ من يسمعك تتكلّم لا يحزر أنّك حتّى اليوم لم تفعل شيئًا غير العيش لنفسك...

ـ هذا مؤكّد. ولكن ما الداعي إلى انتقادي؟ ربّما أنا من النوع الذي يتعلّم الأمور ببطء أكثر، ربّما عليّ أن أجمع المزيد من الندبات قبل أن أتحوّل إلى إنسان حقيقي... أنا الآن شخص يوصف بأنّه غير نافع ويسكت لأنّه يعرف أنّها الحقيقة. ولكن لن يبقى عديم النفع مدى الحياة...

ـ ماذا تنوي أن تفعل، أبيل؟

نهض الشابّ على مهل وتوجّه نحو سيلفستري. وعلى بعد خطوتين منه، أجابه:

ـ أمرًا بغاية البساطة: أن أعيش. أغادر بيتك أكثر ثقة من وقت وصولي إليه. ليس لأنّ الطريق الذي أرشدتني إليه سيفيدني، بل لأنّك دفعتني إلى التفكير في أن أجد طريقي الخاصّ. ستكون المسألة مسألة وقت فقط.

ـ طريقك سيكون دومًا طريق التشاؤم.

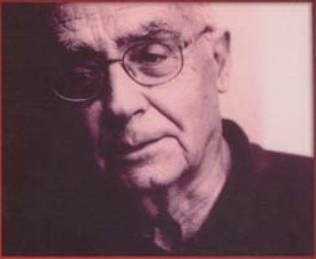
ـ لا شكّ في ذلك. فقط أرجو أن يحوّلني هذا التشاؤم عن الأوهام السهلة والأخّاذة، مثل الحبّ...

أمسكه سيلفستري بكتفيه وهزّه:

ـ أبيل: كلّ ما يُبنى على أساس غير الحبّ يولّد الحقد!

ـ أنت على حقّ يا صديقي. أنت على حقّ. لكن ربّما هذا ما يجب أن تكون عليه الأمور إلى أجل غير مسمّى... الزمن الذي يمكن أن يكون الحبّ فيه أساس كلّ بناء لم يحن بعد...

****



جوزيه دي سوزا ساراماجو

روائـي حائز جائزة نوبل للآداب وكاتب مسـرحي وصحافي برتغالي. ولد في ١٦ تشرين الثاني من عام ١٩٢٢. مؤلفاته، التـي يمكن اعتبار بعضها أمثولات، تسـتعرض عادة أحداثًا تاريخيـة مـن وجهة نظـر مختلفـة، تتمركز حـول العنصر الإنسـاني. ويعتبره النقـاد واحـدا مـن أهـم الكتـاب في البرتغال. حصد جائزة نادي القلم الدولي عام ١٩٨٢ وجائزة كامويس البرتغالية عام ١٩٩٥.

المنوَر

رواية رفض مؤلفها بإصرار أن تُنشر إلا بعد موته، إذ إن أصحاب دار النشر لم يعاودوا الاتصال به إلا بعد مرور ٣٦ عامًا على إيداعها لديهم ليقولوا له إنهم وجدوها بعد ضياعها كل ذلك الوقت، وإنهم يرغبون بنشرها فلم يقبل. هي الرواية الثانية التي كتبها بعد «دليل الرسم والخطّ» سنة ١٩٤٧. رأى النقاد العالميون أنها تحمل نضارة ملهمة وتخترق أحاسيسنا وتنتزع منا التعبير عن دهشتنا وبهجتنا. وما أثار استغرابهم كيف أن شاباً في العقد الثالث تمكّن أن يكتب بكل هذا النضج ويرسم معالم هواجسه الأدبية وخريطة عمله الفني وإحساسه بكل هذا الوضوح؟ ومن أين أتى بكل هذه المعرفة العميقة؟!

نلتقي في «المنور» كل شخصيات ساراماجو الرجال؛ إتش من «دليل الرسم والخط»، ريكاردو ريس من «سنة موت ريكاردو ريس»، ريموندو سيفا من «قصة حصار ليشبونة» وقايين، والسيد المسيح، وسيبريانو ألغور. إنهم مجموعة رجال مقلّين في الكلام، وحيدين، أحرار لا ينقصهم غير إيجاد الحب ليكسروا طريقة عيشهم المكثفة والانطوائية في هذا العالم.

أما نساء ساراماجو فيتميزن بالقوة والجمال، وإخضاع الرجال، والميل أحياناً نحو المحرّمات.

رواية المنور رواية شخصيات في الدرجة الأولى.. تتجاوز القيم السائدة وترى أن الخلية العائلية قد تتحول جحيمًا.

ISBN 978-9953-88-802-6
9 789953 888026

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب. :٨٣٧٥-١١ بيروت - لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١١ ٩٦١+

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر